روائع من سيرة الرسول ﷺ

فضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

رحمه الله

جمع وتحقيق

صلاح الدين محمود السعيد

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين



دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم





دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

[آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

[النساء: ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧١، ٧٢].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كلام الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أما بعد:

يقول الله عز وجل: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. ويقول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ويقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال سبحانه: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]. وقال الله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر: ٧٢].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح: ١]. ويقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة: ٦١]. ويقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ﴾ [الكوثر: ١]. ويقول تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشرح: ١ – ٤].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسن الناس خلقًا» (١)، وفي رواية: «كان أحسن الناس خلقًا» (٢).

وعن سعيد بن هشام قال: سألتُ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقلتُ: أخبريني عن خُلُقِ رسول الله ﷺ فقالت: «أما تقرأ القرآن؟» قلتُ: بلى. فقالت: «كان خلقه القرآن» (٣).

وعن أبي سعيد قال: «كان النَّبيّ ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها» (٤).

---

(١) البخاري في المناقب (٣٥٤٩).
(٢) مسلم في الفضائل (٢٣١٠).
(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦/١٣٩).
(٤) البخاري في المناقب (٣٥٦٢).

قال الماوردي - رحمه الله - في ذكر خصائص الرسول ﷺ وفضائله وشرف أخلاقه وشمائله المؤيدة لنبوته والمبرهنة على عموم رسالته: «فالكمال المعتبر في البشر من أربعة أوجه: كمال الخَلْقِ، وكمال الخُلُقِ، وفضائل الأقوال، وفضائل الأعمال:

فأما الوجه الأول، في كمال خَلْقِهِ بعد اعتدال صورته فيكون بأربعة أوصاف:

أحدها - السَّكينة الباعثة على الهيبة والتعظيم الداعية إلى التقديم والتسليم، وكان أعظم مهيب في النفوس حتى ارتاعت رسل كسرى من هيبته حين أتوه مع ارتياعهم بصولة الأكاسرة ومكاثرة الملوك الجبابرة، فكان ﷺ في نفوسهم أهيب وفي عيونهم أعظم، وإن لم يتعاظم بأهبة ولم يتطاول بسطوة، بل كان بالتواضع موصوفًا، وبالوطاة (أي السهولة) معروفًا.

والثاني - في الطلاقة الموجبة للإخلاص والمحبة والباعثة على المصافاة والمودة، وقد كان صلوات الله وسلامه عليه محبوبًا، استحكمت طلاقته في النفوس حتى لم يقله مصاحب ولم يتباعد عنه مقارب، وكان أحب إلى أصحابه من الآباء والأبناء، وشرب الماء البارد على الظمأ.

والثالث - حسن القبول الجالب لمايلة القلوب حتى تسرع إلى طاعته وتُذعن بموافقته، وقد كان قبول منظره ﷺ مستوليًا على القلوب ولذلك استحكمت مصاحبته في النفوس؛ حتى لم ينفر منه معاند ولا استوحش منه مباعد إلا من ساقه الحسد إلى شقوته وقاده الحرمان إلى مخالفته.

والرابع - ميل النفوس إلى متابعته وانقيادها لموافقته وثباته على شدائده ومصابرته، فما شذّ عنه معها من أخلص ولا ند عنه فيها من تصبر.

وهذه الأربعة من دواعي السعادة وقوانين الرسالة وقد تكاملت فيه، فكمل لما يوازيها واستحق ما يقتضيها.

وأما الوجه الثاني في كمال أخلاقه فيكون بست خصال:

إحداهن: رجاحة عقله وصحة همه وصدق فراسته، وقد دلّ على وفور ذلك فيه صحة رأيه وصواب تدبيره وحسن تالفه، وأنه ما استُغل في مكيدة ولا استُعجز في شديدة، بل كان يلحظ الأعجاز في المبادئ فيكشف عيوبها ويحل خطوبها، وهذا لا ينتظم إلا باصدق هم وأوضح جزم.

والخصلة الثانية: ثباته في الشدائد وهو مطلوب، وصبره على البأساء والضراء وهو مكروب ومحروب ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة لا يخور في شديدة ولا يستكين لعظيمة، وقد لقي بمكة من قريش ما يشيب النواصي ويهد الصياصي وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلي ويثبت ثبات المستولي.

والخصلة الثالثة: زهده في الدنيا وإعراضه عنها وقناعته بالبلاغ منها، فلم يَمِل إلى غضارتها ولم يَلْه لحلاوتها وقد ملك من أقصى الحجاز إلى نهاية العراق، ومن أقصى اليمن إلى آخر عمان، وهو أزهد الناس فيما يُقتنى ويُدخر وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر، لم يُخلّف عَينًا ولا دينارًا، ولا حفر نهرًا، ولا شيّد قصرًا، ولم يورث ولده وأهله متاعًا ولا مالاً ليصرفهم عن الرغبة في الدنيا كما صرف نفسه عنها فيكونوا على مثل حاله في الزهد فيها.

وحقيق بمن كان في الدنيا بهذا الزهادة حتى اجتذب أصحابه إليها أن لا يتهم بطلبها ويكذب على الله تعالى في ادعاء الآخرة ويقنع في العاجل وقد سُلِبَ الآجل بالميسور النّزر ورضي بالعيش الكدر.

والخصلة الرابعة: تواضعه للناس وهم أتباع وخفض جناحه لهم وهو مُطاع يمشي في الأسواق ويجلس على التراب ويمتزج بأصحابه وجلسائه، فلا يتميز عنهم إلا بإطراقه وحيائه، فصار بالتواضع متميزًا وبالتذلل مُتَعَزّزًا.

ولقد دخل عليه بعض الأعراب فارتاع من هيبته فقال: **«خفض عليك فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القَديد بمكة»**. وهذا من شرف أخلاقه وكريم شيمه ﷺ،

فهي غريزة فُطِرَ عليها وجبِلَّة طبع بها لم تندُر فتعد ولم تُحصر فتُحد.

والخصلة الخامسة: حلمه ووقاره عن طيش يهزه أو خرق يستفزه، فقد كان أحلم في الغضب من كل حليم وأسلم في الخصام من كل سليم، وقد مني بجفوة الأعراب، فلم يوجد منه نادرة، ولم يُحفظ عليه بادرة. ولا حليم غيره إلا ذو عثرة ولا وقور سواه إلا ذو هفوة، فإن الله تعالى عصمه من نزع الهوى وطيش القدرة لهفوة أو عثرة ليكون بأمته رءوفًا وعلى الخَلْق عطوفًا، قد تناولته قريش بكل كبيرة وقصدته بكل جريرة، وهو صبور عليهم ومُعرض عنهم.

وما تفرد بذلك سفهاؤهم عن حلمائهم ولا أراذلهم دون عظمائهم، بل تملأ عليه الجُلَّة والدون، فكلما كانوا عليه من الأمر ألح كان عنهم أعرض وأصفح حتى قهر فعفا، وقدر فغفر، وقال لهم حين ظفر بهم عام الفتح وقد اجتمعوا إليه: «ما ظنكم بي؟» قالوا: ابن عم كريم، فإن تعف فذاك الظن بك، وإن تنتقم فقد أسأنا. فقال: «بل أقول كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. وقال: «اللهم قد أذقت أول قريش نكالاً فأذق آخرهم نوالاً» وأتته هند بنت عتبة وقد بقرت بطن حمزة ولاكت كبده فصفح عنها. فإن قيل فقد ضرب رقاب بني قريظة صبراً في يوم واحد وهم نحو سبعمائة، فأين موضع العفو والصفح؟ قيل: إنما فعل ذلك في حقوق الله تعالى، وقد كانت بنو قريظة رضوا بتحكيم سعد بن معاذ عليهم فحكم أن من جرت عليه الموت قتل، ومن لم تُجر عليه استُرق، فقال رسول الله ﷺ: «هذا حكم الله من فوق سبعة أرقعة» [1]، فلم يجز أن يعفو عن حق وجب لله تعالى عليهم، وإنما يختص عفوه بحق نفسه.

والخصلة السادسة: حفظه للعهد ووفاؤه بالوعد، فإنه ما نقض لمحافظ عهداً، ولا أخلف لمراقب وعداً، يرى الغدر من كبائر الذنوب والإخلاف من مساوئ

---

(١) فتح الباري (٧/٤٧٦).

الشّيم، فيلتزم فيها الأغلظ ويرتكب فيها الأصعب حفظًا لعهده ووفاءً بوعده حتى يبتدئ معاهدوه بنقضه، فيجعل الله تعالى له مخرجًا كفعل اليهود من بني قريظة وبني النضير، وكفعل قريش بصلح الحديبية، فيجعل الله تعالى له في نكثهم الخيَرة.

فهذه ست خصال تكاملت في خُلقه ﷺ، فضّله الله تعالى على جميع خَلْقه.

وأما الوجه الثالث في فضائل أقواله ﷺ فمعتبر بثمان خصال:

إحداهن: ما أوتي من الحكمة البالغة وأعطيَ من العلوم الجمة الباهرة، وهو أمّي من أمّة أميّة لم يقرأ كتابًا ولا درس علمًا ولا صاحب عالمًا ولا معلمًا، فاتى بما بهر العقول وأذهل الفطن من إتقان ما أبان وإحكام ما أظهر فلم يعثر فيه بزلل في قول أو عمل.

وقد شرع من تقدم من حكماء الفلاسفة سننًا حملوا الناس على التدين بها حين علموا أنه (لا صلاح للعالم إلاّ بدين ينقادون له ويعملون به) فماراق لها أثر وما فاق لها خبر.

والخصلة الثانية: حفظه لما أطلعه الله تعالى عليه من قصص الأنبياء مع الأمم وأخبار العالم في الزمن من الأقدم حتى لم يعزب عنه منها صغير ولا كبير ولا شذّ عنه منها قليل ولا كثير.

وهو لا يضبطها بكتاب يدرسه ولا يحفظها بعين تحرسه، وما ذاك إلاّ من ذهن صحيح وصدر فسيح وقلب شريح وهذه الثلاثة آلة ما استودع من الرسالة وحُمّل من أعباء النبوة فجدير أن يكون بها مبعوثًا وعلى القيام بها محثوثًا.

والخصلة الثالثة: إحكامه لما شرع باظهر دليل وبيانه بأوضح تعليل حتى يخرج منه ما يوجبه معقول، ولا دخل فيه ما تدفعه العقول؛ ولذلك قال ﷺ: «**أوتيت جوامع الكلم، واختصرت لي الحكمة اختصاراً**» [1]؛ لانه نبَّهَ بالقليل

---

(١) انظر الضعفاء (٢/٢١) للعقيلي.

على الكثير فكف الإطالة وكشف عن الجهالة وما تيسر ذلك إلا وهو عليه معان، وإليه مقاد.

والخصلة الرابعة: ما أمر به من محاسن الأخلاق ودعا إليه من مستحسن الآداب، وحثّ عليه من صلة الأرحام وندب إليه من التعطف على الضعفاء والأيتام، ثم ما نهى عنه من التباغض والتحاسد وكف عنه من التقاطع والتباعد لتكون الفضائل فيهم أكثر ومحاسن الأخلاق بينهم أنشر ومستحسن الآداب عليهم أظهر وتكون إلى الخير أسرع ومن الشر أمنع. فيحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فلزموا أمره واتقوا زواجره، فتكامل بهم صلاح دينهم ودنياهم، حتى عز بهم الإسلام بعد ضعفه، وذلّ بهم الشرك بعد عِزّه، فصاروا أئمة أبراراً وقادة أخياراً.

والخصلة الخامسة: وضوح جوابه إذا سُئل وظهور حجابه إذا جادل، لا يَحْصُرُهُ عيّ ولا يقطعه عجز ولا يعارضه خصم في جدال إلا كان جوابه أوضح وحجابه أرجح.

والخصلة السادسة: أنه محفوظ اللسان من تحريف في قول واسترسال في خبر يكون إلى الكذب منسوباً وللصدق مجانباً، فإنه لم يزل مشهوداً بالصدق في خبره فاشياً وكثيراً حتى صار بالصدق مرقوماً وبالأمانة مرسوماً، وكانت قريش بأسرهم تتيقن صدقه قبل الإسلام فجهزوا بتكذيبه في استدعائهم إليه، فمنهم من كذبه حسداً ومنهم من كذبه عناداً ومنهم من كذبه استبعاداً أن يكون نبيّاً أو رسولاً. ولو حفظوا عليه كذبة نادرة في غير الرسالة لجعلوها دليلاً على تكذيبه في الرسالة ومن لزم الصدق في صغره كان له في الكبر ألزم، ومن عصم منه في حق نفسه كان في حقوق الله تعالى أعصم وحسبك بهذا دفعاً لجاحد ورداً لمعاند.

والخصلة السابعة: تحرير كلامه في التوخي به إبان حاجته والإقتصار منه على قدر كفايته، فلا يسترسل فيه هذراً ولا يحجم عنه حصراً، وهو فيما عدا حالتي الحاجة والكفاية أجمل الناس صمتًا وأحسنهم سمتًا، ولذلك حفظ كلامه حتى لم يختل، وظهر رونقه حتى لم يعتل واستعذبته الأفواه، حتى بقي محفوظًا في القلوب مدونًا في الكتب فلن يسلم الإكثار من الزلل ولا الهذر من الملل.

والخصلة الثامنة: انه أفصح الناس لسانًا وأوضحهم بيانًا، وأوجزهم كلامًا وأجزلهم ألفاظًا وأصحهم معاني، لا يظهر فيه هُجنة التكلف ولا يتخلله فيهقت التعسف، وقد دُوِّن كثير من جوامع كلمه ومن كلامه الذي لا يُشَاكَل في فصاحته وبلاغته ومع ذلك فلا يأتي عليه إحصاء ولا يبلغه استقصاء، ولو مزج كلامه بغيره لتميز بأسلوبه ولظهر فيه آثار التنافر فلم يلتبس حقه من باطنه ولَبَانَ سدقه من كذبه، هذا ولم يكن متعاطيًا للبلاغة ولا مخالطًا لأهلها من خطباء أو شعراء أو فصحاء وإنما هو من غرائز طبعه وبداية جبلته وما ذاك إلا لغاية تُراد وحادثة تُشَاد.

وأما الوجه الرابع في فضائل أفعاله فمعتبر بثمان خصال:

إحداها: حسن سيرته وصحة سياسته في دين نقل به الأمة عن مألوف، وصرفهم به عن معروف إلى غير معروف، فاذعنت به النفوس طوعًا وانقادت خوفًا وطمعًا وشديد عادة منتزعة إلا لمن كان مع التأييد الإلهي معانًا بحزم صائب وعزم ثاقب، وحسبك بما استقرت قواعده على الأبد حتى انتقل عن سلف إلى خلف، يزداد فيهم حلاوته ويشتد فيهم جدته ويرونه نظامًا لإعصار تنقلب صروفها ويختلف مألوفها أن يكون لمن قام به برهانًا ولمن ارتاب به بيانًا.

والخصلة الثانية: أن جمع بين رغبة من استمال ورهبة من استطاع حتى اجتمع الفريقان على نصرته وقاموا بحقوق دعوته رغبًا في عاجل ورهبًا من

رزائل، ونازل لاختلاف الشيم والطباع في الانقياد الذي لا ينتظم باحدهما ولا يستديم إلاّ بهما فلذلك صار الدين بهما مستقراً والصلاح بهما مستمراً.

والخصلة الثالثة: أنه عدل فيما شرعه الدين عن الغلو والتقصير إلى التوسط وخير الأمور أوسطها وليس لما جاوز العدل حظ من رشد ولا نصيب من سداد.

والخصلة الرابعة: أنه لم يَمِل بأصحابه إلى الدنيا ولا إلى رفضها وأمرهم فيها بالاعتدال.

والخصلة الخامسة: تصدّيه لمعالم الدين ونوازل الأحكام التي أوضح للأمة ما كُلّفوا من العبادات وبَيَّن لهم ما يحل وما يحرم من مباحات ومحظورات وفصل لهم ما يجوز ويمتنع عن عقود ومناكح ومعاملات، حتى احتاج أهل الكتاب في كثير من معاملاتهم ومواريثهم لشرعه ولم يحتج شرعه إلى شارع، ثم مهد لشرعه أصولاً تدل على الحوادث المغْفَلَة ويستنبط لها الأحكام المعللة فاغنى عن نص بعد ارتفاعه وعن التباس بعد إغفاله، ثم أمر الشاهد أن يبلغ الغائب ليعلم بإنذاره ويحتج بإظهاره، فقال ﷺ: **«بلّغوا عني ولا تكذبوا عليّ؛ فرُبَّ مبلغ أوعى من سامع ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»** [1].

فأحكم ما شرع من نص أو تنبيه وعم بما أمر من حاضر وبعيد حتى صار لما تحمله من الشرع مؤديًا ولما تقلّده من حقوق الأمة مُوفيًا لئلاّ يكون في حقوق الله زلل وذلك في بُرهة من زمانه لم يستوفَ تطاول الإستيعاب حتى أوجز وأنجز وماذاك إلاّ بديع معجز.

والخصلة السادسة: انتصابه لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته وأحدقوا بجنباته، وهو قُطب مهجور وعدد محقور «قليل» فزاد به من قل وعز به من ذل وصار بإثخانه في الأعداء محذوراً وبالرعب منه منصوراً، فجمع بين التصدي لشرع الدين حتى ظهر وانتشر وبين الإنتصاب لجهاد العدو حتى قهر وانتصر، والجمع بينهما عسير إلا لمن أمده الله بمعونته وأيده بلطفه.

(١) رواه الطبراني وغيره وأصله عند البخاري (٤/٢٠٧).

والخصلة السابعة: ما خُصَّ به من الشجاعة في حروبه والنجدة في مصابرة عدوه، فإنه لم يشهد حربًا في فزاع إلا صابر حتى انجلت عن ظفر أو دفاع، وهو في موقفه لم يَزُلْ عنه هربًا ولا حاز فيه رغبًا، بل ثبت بقلب آمن وجاش ساكن قد ولّى أصحابه يوم حنين حتى بقى بإزاء جَمْع كثير وجَمٍّ غفير في تسعة من أهل بيته وأصحابه على بغلة مسبوقة إن طُلبت غير مستعدة لهرب ولا طلب وهو ينادي أصحابه ويظهر نفسه ويقول: «إليَّ عباد الله أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»[١] . فعادوا أشداداً وأرسالاً وهوازن تراه وتحجم عنه فما هاب حرب من محاثرة ولا انكفأ عن مصاولة من صابره.

وقد عضده الله تعالى بأنجاد وأمجاد فانحازوا وصبر حتى أمده الله بنصره وما لهذه الشجاعة من عديل، ولقد طرق المدينة فزع فانطلق الناس فتلقوه نحو الصوت فوجدوا رسول الله ﷺ قد سبقهم إليه فتلقوه عائداً على فرس عري لأبي طلحة الأنصاري وعليه السيف فجعل يقول: «أيها الناس لم تراعوا لم تراعوا»[٢] ثم قال لأبي طلحة: «إنا وجدنا بحراً» أي الفرس واسع الجري، وكان الفرس يبطئ فما سبقه فرس بعد ذلك.

وما ذاك إلاّ عن ثقة من أن الله تعالى سينصره وأن دينه سيظهره تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] وتصديقًا لقول رسول الله ﷺ: «زُوِيَت لي الأرض فرأيتُ مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»[٣] . وكفى بهذا قيامًا بحقه وشاهداً على صدقه.

والخصلة الثامنة: ما مُنح من السخاء والجود حتى جاد بكل موجود وآثر بكل مطلوب ومحبوب ومات ودرعه مرهونة عند يهودي على صاع من شعير لطعام أهله.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٦٤) مسلم (١٧٧٦).
(٢) رواه البخاري (٣٠٤٠) مسلم (٢٣٠٧).
(٣) مسلم (٢٨٨٩).

وقد ملك جزيرة العرب وكان فيها ملوك لهم خزائن وأموال يقتنوها ذخراً ويتباهون بها فخراً، ويستمتعون بها أشراً وبطراً، وقد حاز ملك جميعهم فما اقتنى ديناراً ولا درهماً لا يأكل إلا الخشن ولا يلبس إلا الخشن، ويعطي الجزل الخطير ويصل الجمّ الغفير ويتجرع مرارة الإقلال وكان يقول: **«أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن ترك ديناً أو ضياعاً، فعليّ، ومن ترك مالاً فلورثته»** (١) .

فهل مثل هذا الجود والكرم جود وكرم؟ أم هل لمثل هذا الإعراض والزهد إعراض وزهد .. هيهات.

هل تدرك منزلة من هذه شذور من فضائله ويسير من محاسنه التي لا يحصى لها عدد ولا يُدرك لها أمد، لم تكمل في غيره فيساويه ولا كذب بها ضدٌ يُناويه، ولقد جهد كل منافق ومعاند وكل زنديق وملحد ان يزري عليه في قول أو فعل، أو يظفر بهفوة في جد أو هزل فلم يجد إليه سبيلاً، وقد جهد جهده، وجمع كيده، فأي فضل أعظم من فضل شاهده الحسدة والأعداء، فلم يجدوا فيه مغمزاً لثالب أو قادح ولا مطعناً لجارح أو فاضح فهو كما قال الشاعر:

شهد الأنام بفضله حتى العدا ... والفضل ما شهدت به الأعداء

وقال آخر:

محاسن أصناف النبيين جمة ... وما قصبات السبق إلا لأحمد

وبالجملة فآية أخلاقه صلوات الله عليه وسلامه آية كبرى، وعَلَمٌ من أعلام نبوته العظمى، وقد أجملها بعضهم بقوله، وآية أخرى لا يعرفها إلا الخاصة ومتى ذكرت الخاصة فالعامة في ذلك مثل الخاصة، وهي الأخلاق والأفعال التي لم تجتمع لبشر قط قبله، ولا تجتمع لبشر بعده، وذلك أنّا لم نرَ ولم نسمع لأحد قط كصبره ولا كحلمه ولا كوفائه ولا كزهده، ولا كجوده، ولا كنجدته، ولا كصدق لهجته، ولا ككرم عشرته، ولا كتواضعه، ولا كحفظه، ولا كصمته إذا

(١) رواه البخاري (١٤).

صمت، ولا كقوله إذا قال، ولا كعجيب منشئه، ولا كعفوه، ولا كدوام طريقته وقلة امتنانه، ولم تجد شجاعًا قط إلا وقد جال جولة وفر فرة، وانحاز مرة، ولا يستطيع منافق ولا زنديق ولا دهري أن يحدث أنه ﷺ جال جولة ولا فرّ فرة قط، ولا حام عن غزوة ولا هاب حربًا من مكاثرة.

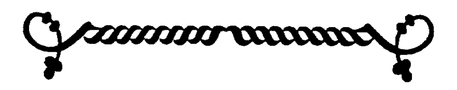
وذلك من أعجب ما أتاه الله نبيًا قط من سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب البرهانات إذ أعداؤه جم غفير وجمعهم كثير فحضّهم حين حادوا وصابرهم حين عاندوا وكابد من الشدائد ما لم يثبت عليها إلا كُل معصوم ولم يسلم منها إلا منصور إلى أن علت كلمته وظهرت دعوته.

وكل هذه آيات تنذر بالحق وتلائم الصدق؛ لأن الله لا يهدي كيد الخائنين ولا يُصلح عمل المفسدين، وهذا كتاب «روائع من السيرة النبوية» لفضيلة الشيخ/ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - قمت بجمعه من خلال شرحه لهذه الشمائل في كتب الأحاديث كرياض الصالحين وغيره؛ لتكون لنا نبراسًا لنهتدي بهدي النّبيّ ﷺ وأسأل الله عز وجل أن ينفعني والمسلمين به، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

جمع وتحقيق

صلاح الدين محمود السعيد

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين



صفة خلق النبي ﷺ

وضع الله سبحانه وتعالى الرسالة العظمى في محمد ﷺ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وضعها فيمن أكمله الله خلقة حيث جاء جسده كاملاً متناسبًا حسنًا جميلاً، فكان ﷺ ربعة من الرجال ليس بالطويل البائن ولا القصير، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الأعضاء بتناسب، رحب الصدر، وكان أحسن الناس وجهًا، أزهر اللون مشربًا بحمرة مستدير الوجه مع سهولة الخدين، أكحل العينين أدعجهما، أسبغ الحواجب في غير قرن بينهما، دقيق الأنف، حسن الفم، مفلج الأسنان، براق الثنايا، كث اللحية حسنها.

قال أنس بن مالك ﷺ: توفاه الله وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء إنما كان شمط عند العنفقة وفي الصدغين والرأس يسيرًا له شعر يبلغ شحمة أذنيه إلى منكبيه كان يسدله ثم عدل إلى تفريقه على جانبي الرأس.

هذه صفاته الخلقية أكمل صفات الرجال بينتها لكم لتكون لكم آية عندما ترونه في النوم؛ لأن من رآه في المنام على صفته الثابتة عنه فقد رآه حقًا؛ لأنالشيطان لا يتمثل به، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، ولا بالأبيض الأمهق[١] ، ولا بالآدم[٢] ، ولا بالجعد[٣] القطط[٤] ، ولا بالسّبْط[٥] . بعثه الله تعالى على رأس أربعين سنة فأقام بمكّة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء» [٦] .

---

(١) الأمهق: شديد البياض.
(٢) الآدم: شدة السمرة وهي منزلة بين البياض والسواد.
(٣) الجعد: خلاف السبط هو المتثني.
(٤) القطط: الشديد الجعود
(٥) السبط: السهل المنبسط.
(٦) رواه البخاري (٣٥٤٨) ومسلم (٢٣٤٧).

وعنه أيضًا قال: «كان رسول الله ﷺ ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير، حسن الجسم، وكان شعره ليس بجعد ولا سبط أسمر اللون، إذا مشى يتكفأ» [١].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ رجلاً مربوعًا، بعيد ما بين المنكبين عظيم الجمة إلى شحمة أذنيه عليه حُلّة حمراء ما رأيتُ قط أحسن منه» [٢]. وعنه أيضًا قال: «ما رأيتُ من ذي لمة في حُلّة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ له شعر يضرب منكبيه بعيد ما بين المنكبين لم يكن بالقصير ولا بالطويل» [٣].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «لم يكن النّبيّ ﷺ بالطويل ولا بالقصير، شثن[٤] الكفين والقدمين، ضخم الرأس، ضخم الكراديس[٥]، طويل المسربة[٦]، إذا مشى تكفأ تكفؤًا كأنما ينحط من صبب[٧] لم أرَ قبله ولا بعده مثله ﷺ» [٨]، وعن جابر بن سمرة . قال: «كان رسول الله ﷺ أشكل العين[٩]، منهوس العقب[١٠]» [١١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان يسدل شعره[١٢] وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم وكان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق رسول الله ﷺ رأسه» [١٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٥٤٧) ومسلم (٢٣٣٨).
(٢) رواه البخاري (٣٥٥١) ومسلم (٢٣٣٧).
(٣) مسلم (٢٣٣٧) والترمذي (١٧٢٤).
(٤) شثن: أي تميلان إلى الغلظ والقصر.
(٥) الكراديس: هي رؤوس العظام والمراد أنه ضخم الأعضاء.
(٦) المسربة: شعر بين الصدر والسرة.
(٧) صبب: أي انحدار.
(٨) رواه الترمذي (٣٦٣٧) وحسّنه الألباني في صحيح الترمذي.
(٩) أي في بياضهن شيء من الحمرة.
(١٠) منهوس العقب: قليل لحم مؤخرة القدم.
(١١) رواه مسلم (٢٣٣٩) والترمذي (٣٦٤٧).
(١٢) سدل الشعر: أي إرساله، أي يترك شعر ناصيته علي جبهته.
(١٣) رواه البخاري (٣٥٥٨) ومسلم (٢٣٣٨).

جلسة النبي ﷺ

عن عبد الله بن يزيد رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ مستلقيًا في المسجد واضعًا إحدى رجليه على الأخرى (١).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كان النَّبيّ ﷺ إذا صلّى الفجر تربع في مجلسه حتى تطلع الشمس حسناء» (٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ بفناء الكعبة محتبيًا بيديه هكذا، ووصف بيديه الإحتباء، وهو القرفصاء» (٣).

وعن قيله بنت مخرمة رضي الله عنها قالت: «رأيتُ النّبي ﷺ وهو جالس القرفصاء فلما رأيتُ رسول الله ﷺ المتخشع في الجلسة أرعدت من الفرق» (٤).

وعن الشريد بن سويد رضي الله عنه قال: مَرَّ بي رسول الله ﷺ وأنا جالس هكذا، وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري واتّكأتُ على إلية يدي، فقال: «أتقعد قعدة المغضوب عليهم» (٥).

في بيان النوم على الظهر، وقد سبق أن الأفضل من أراد أن ينام على الجنب الأيمن، وسبق أن النوم على البطن لا ينبغي إلا لحاجة، وبقى النوم على الظهر وهو لا بأس به بشرط أن يأمن إنكشاف العورة، فإن كان يخشى من إنكشاف العورة، بحيث يرفع إحدى رجليه فيرتفع الإزار عليه سراويل، فإنه لا ينبغي، لكن إذا أمن من انكشاف العورة فإن ذلك لا باس به.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٥) ومسلم (٢١٠٠).

(٢) حديث صحيح، رواه أبو داود وغيره بأسانيد صحيحة، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٠٦٠).

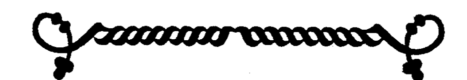
(٣) رواه البخاري (٦٢٧٢).

(٤) رواه أبو داود (٤٨٤٧)، والترمذي (٢٨١٤) وحسّنه الألباني في الشمائل (١٠١) وفي صحيح أبي داود (٤٠٥٧).

(٥) رواه أبو داود (٤٨٤٨) بإسناد صحيح، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٠٥٨).

وبقي شيء رابع وهو النوم على الجنب الأيسر، فهذا أيضًا لا بأس به، فالنوم على الظهر لا بأس به والنوم على الجانب الأيسر لا بأس به، والنوم على الجانب الأيمن فهو الأفضل، والنوم منبطحًا لا ينبغي إلاَّ لحاجة، أما القعود فإن جميع القعود لا بأس بها، فلا بأس أن يقعد الإنسان متربعًا، ولا بأس أن يجلس وهو محتبي القرفصاء – يعني يقيم فخذيه وساقيه ويجعل يديه مضمومتين على الساقين – هذا أيضًا لا بأس به؛ لأن النَّبيّ ﷺ قعد هذه القعدة.

ولا يكره من الجلوس إلا ما وصفه النَّبيّ ﷺ بأنَّه قعدة المغضوب عليهم، بأن يجعل يده اليسرى من خلف ظهره، ويجعل بطن الكف على الأرض ويتكئ عليها، فإن هذه القعدة وصفها النَّبيّ ﷺ بأنها قعدة المغضوب عليهم. أما لو وضع اليدين كلتيهما من وراء ظهره، واتكأ عليهما فلا بأس، ولو وضع اليد اليمنى فلا بأس، إنما التي وصفها النَّبي ﷺ بأنها قعدة المغضوب عليهم، أن يجعل اليد اليسرى من خلف ظهره ويجعل باطنها – أي إليتها – على الأرض، ويتكئ عليها، فهذه هي التي وصفها النَّبيّ ﷺ بأنها قعدة المغضوب عليهم.



لباسه ﷺ

وعن البراء رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ مربوعًا، ولقد رأيته في حُلَّةٍ حمراء ما رأيتُ شيئًا قط أحسن منه»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]، السرابيل: هي الدروع، يعني مثل لباسنا هذا يسمى سرابيل: القمص، والدروع وشبهها.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أما السرابيل التي تقينا البأس فهي السرابيل من الحديد، كانوا في السابق يلبسونها عند الحرب والقتال؛ لأنها تقي الإنسان السهام الواردة إليه؛ فإنها عبارة عن حلق من حديد مسوج، كما قال الله تعالى، وهو يُعلم داود: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]، فيصفون هذه الدروع بأنها إذا لبسها الإنسان وجاءته السهام أو الرماح أو السيوف ضربت على هذا الحديد ووقته الشر.

أما قوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ فهي الثياب من القطن وشبهها تقي من الحر، وقد يقول قائل: لماذا لم يقل تقيكم البرد؟ أجاب العلماء عن ذلك بأن هذا على تقدير شيء محذوف، أي تقيكم الحر وتقيكم البرد، لكنه ذكر الحر؛ لأن السورة مكية نزلت في مكة وأهل مكة ليس عندهم برد، فذكرَ الله مِنَّتَهُ عليهم بهذه السرابيل التي تقي الحر، وقيل: إنه ليس في الآية شيء محذوف، وأن الدروع التي تقي البأس تقي الإنسان حر السهام ونحوها، والسرابيل الخفيفة تقي الحر الجوي؛ وذلك أن الإنسان في الجو الحار لو لم يكن عليه سرابيل تقيه الحر للَفَحَهُ الحر واسودَّ جلده وتأذَّى وجَفَّ، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل السرابيل التي تقي الحر من نعمته تبارك وتعالى.

---

(١) رواه البخاري (٣٥٥١) ومسلم (٢٢٣٧).

ثم ذكر حديث ابن عباس [(١)] وحديث سمرة [(٢)] رضي الله عنهم في أن النبيّ ﷺ حثّ على لبس الثياب البيض وقال: «إنها من خير ثيابكم» وقال: «كفنوا فيها موتاكم»، وصدق عليه الصلاة والسلام؛ فإن الثوب الأبيض خير من غيره من جهة الإضاءة والنور، ومن جهة أنه إذا اتسخ أدنى اتساخ ظهر فيه، فبادر الإنسان إلى غسله، أما الثياب الأخرى، فربما تتراكم فيها الأوساخ، والإنسان لا يشعر بها ولا يغسلها، وإذا غسلها فلا يدري هل تنظفت أم لا، فلهذا قال النبيّ ﷺ: «إنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم» وهو شامل للبس الأبيض: القمص، والأزر، والسراويل، كلها ينبغي أن تكون من البياض؛ فإنه أفضل، ولكن لو أنه لبس من لون آخر فلا بأس، بشرط ألا يكون مما يختص لبسه بالنساء؛ فإن كان مما يختص لبسه بالنساء فإنه لا يجوز أن يلبسه الرجل؛ لأن النبيّ ﷺ لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، وكذلك بشرط ألا يكون أحمر؛ لأن الأحمر قد نهى عنه النبيّ ﷺ إذا كان أحمر خالصًا، فإن كان أحمر وفيه بياض فلا بأس، وليس هناك دليل صحيح على ذلك.

وعلى هذا يُحمل الحديث الثالث أن النبيّ ﷺ كان مربوعًا، وأنه كان عليه حُلَّة حمراء، هذه الحلَّة الحمراء ليس كلها حمراء، لكن معناها أن أعلامها حمر، مثل ما تقول الشماغ أحمر، وليس هو كله أحمر، بل فيه بياض كثير، لكن نقطه ووشمه الذي فيه أحمر، كذلك الحلة الحمراء يعني أن أعلامها حمر، أما أن يلبس الرجل أحمر خالصًا ليس فيه شيء من البياض، فإن النبي ﷺ قد نهى عن ذلك.

وعن أبي جحيفة وهب بن عبد الله رضي الله عنه قال: رأيت النبيّ ﷺ بمكة وهو بالأبطح في قبة له حمراء من أدم فخرج بلال بوضوئه، فمن ناضح ونائل، فخرج النبيّ ﷺ وعليه حُلَّة حمراء، كأني أنظر إلى بياض ساقيه، فتوضأ وأذن بلال، فجعلت أتتبع فاه هنا وهاهنا، يقول يمينًا وشمالاً: «حي على الصلاة، حي على

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٦١) والترمذي (٩٩٤) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٤٢٦).
(٢) رواه النسائي (٢٠٢٣) وصححه الألباني في صحيح النسائي (٤٩١٥).

الفلاح » ثم ركزت له عنزة، فتقدم فصلى يمر بين يديه الكلب والحمار لا يمنع.
« العنزة » بفتح النون: نحو العكازة. (١).

وعن أبي رمثة رفاعة التيمي رضي الله عنه قال: « رأيت رسول الله ﷺ وعليه ثوبان أخضران »(٢)، وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء(٣).

وقد سبق ذكر شيء من هذه الأحاديث، وهنا حديث وهب بن عبد الله السوائي أبي جحيفة رضي الله عنه أنه رأى النّبيّ ﷺ في قبة له حمراء من أَدَم أو من أَدُمٍ، ولكن الصواب من أدم، وذلك في الأبطح في حجة الوداع، فإن النّبيّ ﷺ لما قدم مكة في حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، قدمها ضُحَىً يوم الأحد، الرابع من ذي الحجة، ونزل إلى المسجد الحرام فطاف وسعى ثم خرج إلى الأبطح، فنزل فيه إلى اليوم الثامن، وكان في هذه القبة التي ضربت له عليه الصلاة والسلام.

يقول: فخرج، يعني حين زالت الشمس، فخرج النّبيّ ﷺ وعليه حلة حمراء كأني أنظر إلى بياض ساقيه، وهذه الحلة حُلَّة حمراء، يعني أن أعلامها حمر ليست سوداء ولا خضراء؛ لأن الأحمر الخالص قد ثبت نهي النّبيّ ﷺ عن لبسه فتحمل هذه على أن المراد أن أعلامها يعني خطوطها ونقشها حمراء.

خرج بلال رضي الله عنه بوضوء النّبيّ ﷺ – يعني بما بقى من مائه الذي توضأ به، فجعل الناس يأخذون منه من ناضح ونائل، يعني بعضهم أخذ كثيراً وبعضهم أخذ قليلاً، يتبركون بفضل وضوئه ﷺ، فخرج النّبيُّ ﷺ من هذه القبة، وأذّن بلال ثم ركزت العنزة لرسول الله ﷺ، والعنزة: رمح في طرفه زلج، يعني رمح في

---

(١) رواه البخاري (١٨٢) ومسلم (٥٠٣).
(٢) رواه أبو داود (٤٠٦٥) والترمذي (٢٨١٢) بإسناد صحيح وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٤٣٠).
(٣) رواه مسلم (١٣٥٨).

طرفه حديدة محددة، كان النّبيُّ ﷺ يصحبها معه في السفر، ركزت العنزة من أجل أن يصلي إليها؛ لأن الإنسان إذا كان في السفر فإنه ينبغي أن يصلي إلى شيء قائم، كعصا في الأرض أو ما أشبه ذلك.

يقول: فتقدم فصلى الظهر ركعتين، والعصر ركعتين، وهذا يدل على جواز الجمع للمسافر، وإن كان نازلاً، لكن الأفضل ألا يجمع إلا من حاجة، كما لو كان سائراً يمشي أو كان نازلاً ولكن يحتاج إلى راحة، فيجمع جمع تأخير أو جمع تقديم، وإلا فالأفضل للنازل ألا يجمع.

ثم ذكر وهب بن عبد الله السوائي أبو جحيفة كيف كان أذان بلال، يقول: جعلت أتتبع فاه هاهنا وهاهنا، يعني يميناً وشمالاً، يقول: حي على الصلاة، حي على الفلاح. واختلف العلماء - رحمهم الله - هل يقول حي على الصلاة، حي على الفلاح على اليمين، وحي على الصلاة على اليسار، أم يحصل كل حي على الصلاة على اليمين، وحي على الفلاح على اليسار، والأمر في هذا واسع، وإن فعل هذا أو هذا فكله على خير ولا بأس به.

ثم ذكر حديثين آخرين، أحدهما: أن النّبيّ ﷺ كان عليه لباس أخضر، والثاني كان عليه عمامة سوداء، وهذا يدل أيضاً على جواز لباس الأخضر ولباس الأسود، وعن أبي سعيد عمرو بن حريث رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه [١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كُفِّن رسول الله ﷺ في ثلاث أثواب بيض سحولية من كرسف، ليس فيها قميص ولا عمامة» [٢]، وعنها قالت: «خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مِرط مرحلة من شعر أسود» [٣].

---

(١) رواه مسلم (١٣٥٩) وفي رواية له: أن رسول الله ﷺ خطب الناس، وعليه عمامة سوداء.

(٢) رواه البخاري (١٢٦٤) ومسلم (٩٤١)، سحولية بفتح السين وضمها وضم الحاء: ثياب تنسب إلى سحول: قرية باليمن، و«الكرسف»: القطن.

(٣) رواه مسلم (٢٠٨١)، و«المرط» بكسر الميم: وهو كساء، و«المرحل» بالحاء المهملة: هو الذي فيه صورة رحال الإبل، وهي الأكوار.

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة في مسير، فقال لي: «أمعك ماء؟» قلت: نعم، فنزل عن راحلته فمشى حتى توارى في سواد الليل، ثم جاء فأفرغت عليه من الإداوة، فغسل وجهه وعليه جبة من صوف، فلم يستطع أن يُخرج ذراعيه منها حتى أخرجهما من أسفل الجبة، فغسل ذراعيه ومسح برأسه ثم أهويت لأنزع خفيه فقال: «دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين» ومسح عليهما [١]، وفي رواية: «وعليه جبَّة شامية ضيقة الكُمَّين» وفي رواية: أن هذه القصة كانت في غزوة تبوك».

وإلى أنه يجوز للإنسان أن يلبس ما شاء من الثياب البيض، والسود، والخضر، والصفر، والحمر، إلا أن الأحمر الخالص قد ثبت فيه النهي عن النَّبيِّ ﷺ، فلا يلبس الأحمر الخالص إلا مشوبًا بلون آخر.

وفي حديث عمرو بن حريث، أنه رأى النَّبيَّ ﷺ وعليه عمامة سوداء، وسبق أنه ﷺ دخل مكة وعليه عمامة سوداء، فهو يدل عليه على جواز لبس العمامة السوداء، وكذلك الشماغ الذي نقشه أسود أو أخضر أو أحمر كل هذا جائز.

وفيه: دليل جواز لبس العمامة، وأن من الأفضل أن يجعل الإنسان لها ذؤابة، وأنه يرخي طرفها من خلف، كما فعل النَّبيِّ ﷺ، والعمامة التي ليس لها ذؤابة تُسمى العمامة الصماء؛ لأنه ليس لها طرف مرخي وكلاهما جائز، وكلاهما أيضًا يجوز المسح عليه على القول الراجح.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف، ليس فيها قميص ولا عمامة».

ففيه: دليل على أن الأفضل أن يكفن الأموات في الثياب البيض، وهذا إن تيسر، لكن إن لم يتيسر فيكفن الميت في مثل ما يلبسه الحي، من أي لون كان إلا الأحمر الخالص.

---

(١) رواه البخاري (٥٧٩٩) مسلم (٢٧٤).

وفي حديث عائشة: دليل على أن الميت لا يجعل عليه قميص ولا عمامة، وإنما توضع القطعة واحدة فوق الأخرى، ثم يوضع عليها الميت، ثم تلف القطع العليا عليه، ثم الوسطى، ثم السفلى، ثم تثنى من عند الرأس ومن عند الرجلين، وتربط وتحزم حتى يدخل الميت القبر، فإذا أُدخل القبر فإن الحزائم تُفك، قال العلماء: تفك الحزائم؛ لأن الميت إذا مات انتفخ وقد ربط فربما يتفجر، فتفك الحزائم من أجل ألا يتفجر.

وفي حديث المغيرة بن شعبة ﷺ : «أن النّبيّ ﷺ في غزوة تبوك نزل من بعيره وأخذ الإدواة» – والإدواة: إناء يوضع فيه الماء – «فأخذ الإدواة عليه الصلاة والسلام، وانطلق حتى توارى في سواد الليل»؛ لأنه عليه الصلاة والسلام أشد الناس حياء، فلا يجب أن يراه أحد وهو جالس على قضاء حاجته، وإن لم ترَ عورته، وهذا من كمال الأدب؛ أنك إذا أردت أن تقضي حاجتك فابتعد عن الناس حتى تتوارى عنهم لا من أجل ألا يروا عورتك؛ لأن ستر العورة واجب، ولا يجوز أن تتكشف أمام الناس، لكن هذا فوق ذلك، يعني الأفضل ألا يُرى الإنسان وهو على حاجته، وهذا من هدي النّبيّ ﷺ؛ لأن هديه أكمل الهدي، ثم أراد أن يتوضأ وكان عليه جبة من صوف ضيقة الأكمام، لبسها عليه الصلاة والسلام؛ لأن الوقت كان باردًا؛ لأن تبوك قريبة من الشام، والشام باردة؛ فلذلك كان عليه هذه الجبة عليه الصلاة والسلام، فلما توضأ وغسل وجهه وأراد أن يُخرِج ذراعيه من الكم، وكان ضيقًا صفيقًا، فلم تستطع يده أن تخرج فأخرجها من أسفل وغسلها عليها الصلاة والسلام، ولما أراد أن يغسل قدميه أهوى المغيرة بن شعبة لينزع خفيه، قياسًا على أن الرسول لم يمسح على الكمين لما كانا ضيقين، وإنما أخرج يده من أسفل حتى غسلها، فظن المغيرة بن شعبة أن الخفين مثل ذلك، وأنها تُنْزَع من أجل غسل الرجل، ولكن النّبيّ ﷺ، قال له: «دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين» فمسح عليهما، وقوله: «أدخلتهما طاهرتين» أي لبستهما على طهارة، فمسح عليهما .

ففي هذا الحديث عدة فوائد:

منها: أن رسول الله ﷺ بشر يناله ما ينال البشر من الأمور الطبيعية، يبرد كما يبرد الناس، ويحتر كما يحتر الناس، ولهذا رآه مرة معاوية وقد فك أزرار القميص - لأنه والله أعلم كان محترًا ففك الأزرار - فظن معاوية رضي الله عنه أن هذا من السُّنَّة، وهو ليس من السُّنن المطلقة، لكن من السنة إذا كان فيه تخفيف على البدن؛ لأن كل ما يخفف عن البدن فهو خير، فإذا كان الإنسان محترًا، وأراد أن يفتح الأزرار الأعلى والذي يليه فلا بأس، ويكون هذا من السُّنَّة، أما بدون سبب فإنه ليس من السُّنَّة؛ لأنه لو كان من السّنة لكان وضع الأزرار عبثًا لا فائدة منه، والدين ليس فيه شيء عبث، فكله جد.

ومن فوائد هذا الحديث: أنه لا حرج على الإنسان أن يتوقى ما يؤذيه من حر أو برد، كما فعل النّبي ﷺ، بل الأفضل للإنسان أن يتوقى ما يؤذيه؛ لأن هذا من تمام الرعاية للنفس، حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - قال: الأكل إذا خفت أن يؤذيك صار حرامًا عليك. الأكل الذي هو الغذاء إذا خفت أن يؤذيك إما بكثرته أو بكونك أكلت قريبًا فتخشى أن تتأذى بالأكل الجديد، فإنه يحرم عليك، بمعنى أنك تأثم إذا أكلته لأن الإنسان يجب أن يرعى نفسه حق الرعاية.

ومن فوائد هذا الحديث: أنه لا يجوز أن يمسح على حائل سوى الخفين أو العمامة، فلو كان على الإنسان ثوب ضيق الأكمام ولا تخرج اليد إلا بصعوبة قال: أمسح على هذا الثوب كما أمسح على الخف، قلنا: هذا لا يجوز، لابد أن تخرج يدك حتى تغسلها، حتى لو فرض أنها لم تخرج إلا بشق الكم فإنه يشق حتى يؤدي الإنسان ما فرض الله عليه من غسل اليد ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦].

ومن فوائد الحديث: جواز استخدام الأحرار؛ لأن المغيرة رضي الله عنه كان يخدم النّبيَّ

ﷺ، ولكن لاشك أن خدمة الرسول ﷺ شرف، كلٌّ يفخر بخدمة الرسول ﷺ، وكان للنبيّ ﷺ خدم من الأحرار كعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك وغيرهما رضي الله عنهما، فالمغيرة كان يخدم النبيّ ﷺ.

ومن فوائد الحديث: أن الإنسان إذا كان لابسًا خفين أو جوارب على طهارة، فإنه يمسح عليهما؛ لأن الرسول ﷺ قال: **«دعهما»** أي اتركهما لا تنزعهما **«فإني أدخلتهما طاهرتين»** فمسح عليهما.

ومن فوائد الحديث: أنه لا يجوز المسح على الخفين أو الجوربين إلا إذا كان لبسهما على طهارة، فإن لبسهما على غير طهارة وجب عليه أن ينزعهما عند الوضوء ويغسل قدميه، وفيه فوائد أخرى.

وعن أسماء بنت يزيد الأنصارية رضي الله عنها قالت: **«كان كم قميص رسول الله ﷺ إلى الرسغ»** [1].

تدل على أن أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص، وذلك أن القميص أستر من الإزار والرداء، وكانوا في عهد الرسول ﷺ يلبسون الإزار والرداء أحيانًا، وأحيانًا يلبسون القميص وكان النبيّ ﷺ يحب القميص لأنه أستر، ولأنه قطعة واحدة يلبسها الإنسان مرة واحدة، فهي أسهل من أن يلبس الإزار أولاً، ثم الرداء ثانيًا.

ولكن مع ذلك لو كنت في بلد يعتادون لباس الإزر والأردية ولبست مثلهم فلا حرج، والمهم ألا تخالف لباس أهل بلدك فتقع في الشهرة، وقد نهى النبيّ ﷺ عن لباس الشهرة.

وفي الأحاديث أيضًا دليل على أن كم القميص يكون إلى الرسغ، والرسغ هو الوسط بين الكوع والكرسوع؛ لأن الإنسان له مرفق وهو المفصل الذي بين العضد

---

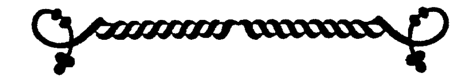
(١) رواه أبو داود (٤٠٢٧) والترمذي (١٤٦٥) وقال: حديث حسن، وضعّفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (١٧٠٠).

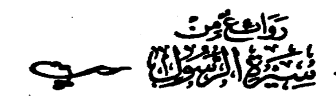
والذراع، وله كوع وكرسوع ورسغ، فالكوع: هو طرف الذراع مما يلي الكف من جهة الإبهام. والكرسوع: طرف أعظم للذراع، مما يلي الكف من جهة الخنصر، وأما الرسغ فهو ما بينهما، وعلى هذا قال الناظم:

وعظم يلي الإبهام كوع وما يلي الخنصر الكرسوع والرسغ ما وسط

والعوام إذا أرادوا ضرب المثل بالإنسان الأبله قالوا: هذا رجل لا يعرف كوعه من كرسوعه.

وأكثر الناس يظنون أن الكوع هو المرفق الذي إليه منتهى الوضوء،ولكن ليس كذلك، فما عند مفصل الكف من الذراع مما يلي الخنصر هو الكرسوع، وما يلي الإبهام فهو الكوع، وما بينهما فهو الرسغ، والنّبيّ ﷺ كان قميصه إلى الرسغ.





في صفة تيمن النبي ﷺ

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يعجبه التَّيمُّن في شأنه كله: في طهوره، وترجُّله، وتنعُّله»[١]، وعنها قالت: «كانت يد رسول الله ﷺ اليمنى لطهوره وطعامه، وكانت اليسرى لخلائه، وما كان من أذى»[٢].

وعنها رضي الله عنها قالت: «كان النَّبيّ ﷺ يعجبه التيامن في شأنه كله».

في شأنه كله: أي في جميع أحواله.

يعجبه: يعني يسره، ويستحسن البداءة باليمين في كل شيء في طهوره وترجله وتنعله.

في طهوره: يعني إذا تطهر يبدأ باليمين، فيبدأ بغسل اليد اليمنى قبل اليد اليسرى، ثم يغسل الرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى، وأما الأذنان فإنهما عضو واحد داخلان في الرأس، فيمسحهما جميعًا إلا إذا كان لا يستطيع أن يمسح إلا بيد واحدة، فهنا يبدأ بالأذن اليمنى للضرورة.

قالت: «وترجله»: والتَّرَجُّل - يعني تسريح الشعر ومشطه ودهنه - وكان الرسول ﷺ كعادة الناس في ذلك الوقت لا يأخذ رأسه إلا في حج أو عمرة، لكن أحيانًا يأخذ منه وأحيانًا يبقيه، فأحيانًا يكون إلى شحمة أذنيه، وأحيانًا ينزل حتى يضرب على منكبيه، فكان ﷺ يتعاهده بالتنظيف والتسريح والدهن، حتى يبقى نظيفًا، لا يكون فيه الغبار، ولا القمل، ولا غير ذلك مما يستقذر.

وكذلك أيضًا يعجبه التيمُّن في «تنعُّله»: أي إذا لبس النعل فإنه يبدأ باليمين قبل اليسار، وإذا خلع يبدأ باليسار قبل اليمين، وكذلك الثوب إذا لبسه

---

(١) رواه البخاري (١٦٨) ومسلم (٢٦٨).

(٢) صحيح، رواه أبو داود (٣٣) وغيره بإسناد صحيح، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٦).

يبدأ بإدخال الكم اليمين قبل اليسار وكذلك السراويل يبدأ بإدخال اليمنى قبل اليسرى، والعكس في الخلع.

وفي حديثها الثاني ﵂: أنها بينت ما كان النبيّ ﷺ يستعمل فيه اليمين ويستعمل فيه اليسار، فذكرت أن الذي يستعمل فيه اليسار ما كان فيه أذى كالإستنجاء والإستجمار والإستنشاق والإستنثار وما أشبه ذلك، كل ما فيه أذى فإنه تَقَدَّم فيه اليسرى، وما سوى ذلك فإنه تُقَدَّم فيه اليمنى تكريمًا لها؛ لأن اليمنى أفضل من اليسرى كما سبق.

وعن حفصة ﵂ أن رسول الله ﷺ كان يجعل يمينه لطعامه وشرابه وثيابه ويجعل يساره لما سوى ذلك [١]، وعن أنس ﵁ أن رسول الله ﷺ أتى مِنًى، فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمنى، ونحر، ثم قال للحلاق: «خذ» وأشار إلى جانبه الأيمن، ثم الأيسر ثم جعل يعطيه الناس[٢].

وفي رواية: لما رمى الجمرة، ونحر نُسُكَه وحلق: ناول الحلاق شِقَّه الأيمن فحلقه، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري ﵁ فأعطاه إياه، ثم ناوله الشق الأيسر، فقال: احلق فحلقه، فأعطاه أبا طلحة، فقال «اقسمه بين الناس».

وفي حديث أنس بن مالك ﵁ في قصة حلق النّبيّ ﷺ في حجة الوداع، فإن النّبيّ ﷺ في حجة الوداع، لما بات بمزدلفة وصلى الفجر، وجلس يدعو حتى أسفر جدا ودفع قبل أن تطلع الشمس ووصل إلى جمرة العقبة وقد ارتفع النهار، وصار للشمس حرارة، فرمى الجمرة وذلك يوم العيد، وذهب ﷺ إلى منزله فدعا بالحلاق فحلق رأسه، وأشار ﷺ إلى الشق الأيمن فبدأ الحلاق بالشق الأيمن، وكان النبي ﷺ يُعفي شعر الرأس، فكان شعر رأسه كثيراً، ثم دعا أبا طلحة وأعطاه إياه، وقال: «اقسمه بين الناس» فقسمه، فمن الناس من ناله شعرة واحد، ومنهم

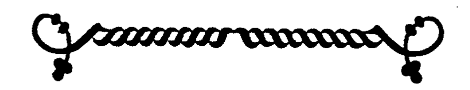
---

(١) رواه أبو داود (٣٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٥).
(٢) رواه البخاري (١٧٠، ١٧١) ومسلم (١٣٠٥).

من ناله شعرتان، ومنهم من ناله أكثر حسب ما تيسر، وذلك لأجل التَّبَرُّك بهذا الشعر الكريم، شعر النّبيّ ﷺ.

وكون أبي طلحة خَصَّه الرسول ﷺ بالجنب الأيمن كله يدل على أن من الناس من يُختص بخصيصة يخصه الله بها، وإن كان في الصحابة من هو أفضل منه، فأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وكثير من الصحابة يتبركون بشعر النّبيّ ﷺ وثيابه وبعرقه، لكن غيره لا يتبرك بشعره ولا بثيابه ولا بعرقه...

وكان عند أم سلمة رضي الله عنها إحدى زوجات الرسول ﷺ شعرات من شعر الرسول ﷺ، وضعتها في جلجل يعني طبق من الفضة، وجعلته من الفضة تكريمًا لشعر الرسول ﷺ، فكان الناس إذا مرض عندهم مريض جاءوا إليها فصبت على الشعر ماء وحرّكته به، ثم أعطته المريض فيشفى بإذن الله ببركة شعر النّبيّ ﷺ وهذا ليس لغير النّبيّ ﷺ.



صفة أكله ﷺ

عن أبي أمامة ﷺ أن النّبيّ ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: «الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً فيه، غير مكفي ولا دموع ولا مستغني عنه ربنا»[1].

وفيها دلالة على أمور:

منها: أن الإنسان إذا لم يُسمِّ الله على طعامه فإن الشيطان يأكله معه؛ لحديث أمية بن مخشن، أن رجلاً أكل طعامًا فلم يسمِّ، فلما بقى لقمة واحدة تذكر فسمى الله تعالى، فضحك النّبيّ ﷺ، وأخبر أن الشيطان كان يأكل معه، فلما ذكر الله قاء الشيطان ما أكله، وهذه من نعم الله سبحانه وتعالى، أن الشيطان يحرم أن يأكل معنا إذا سمَّينا في أول الطعام، كذلك إذا سمَّينا في آخره، وقلنا: بسم الله أوله وآخره، فإن ما أكله يتقيؤه فيحرم إياه.

وفي الحديث: دليل على أن الشيطان يأكل؛ لأنه أكل من هذا الطعام، فالشيطان يأكل ويشرب ويشارك الآكل والشرب إذا لم يُسمِّ الله تعالى على أكله وشربه، وكذلك ذكر حديث عائشة ﷺ أن النبيّ ﷺ كان يأكل في ستة نفر من أصحابه، فجاء أعرابي فأكل معهم فأكل الباقي بلقمتين هذا كأنه جائع والله أعلم، فجاء مُنهَم في الأكل، فأكل الباقي، فقال النّبي ﷺ: «أما أنه لو سمى لكفاكم»[2]، لكنه لم يُسمِّ، فأكل الباقي كله بلقمتين ولم يكفه.

وهذا يدل على أن الإنسان إذا لم يسمِّ نُزعت البركة من طعامه؛ لأن الشيطان يأكل معه، فيكون الطعام الذي يظن أنه يكفيه لا يكفيه؛ لأن البركة تُنزع منه.

وبقية الأحاديث فيها دليل على أن الإنسان ينبغي له إذا أكل أكلاً أن يحمد الله سبحانه وتعالى، وأن يقول الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول

---

(١) رواه البخاري (٥٤٥٨).

(٢) رواه الترمذي (١٨٥٨) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٥١٤).

مني ولا قوة. ومعنى ذلك أنه لولا أن الله تعالى يسر لك هذا الطعام ما حصل لك، كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة: ٦٣ – ٦٦].

فالإنسان لولا أن الله يسر له الطعام من حين أن يُبذَر، ثم ينبت، ثم يُحصَد، ثم يحضر إليه، ثم يطحن، ثم يُعجن، ثم يطبخ، ثم ييسر الله له الأكل، ما تيسر له ذلك.

ولهذا قال بعض العلماء: إن الطعام لا يصل إلى الإنسان ويقدم إليه إلا وقد سبق ذلك نحو مئة نعمة منَ الله لهذا الطعام، ولكننا أكثر الأحيان في غفلة عن هذا، نسأل الله أن يطعمنا وجميع المسلمين الطعام الحلال، وأن يرزقنا شكر نعمته، إنه على كل شيء قدير.

وفي حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه حثّ النبيّ ﷺ على قول: «الحمد لله حمداً كثيراً طيبًا مباركًا فيه، غير مكفي ولا دموع ولا مستغني عنه ربنا» أي لأننا لا نستغني عن الله عز وجل، ولا أحد يكفينا دونه، فهو سبحانه وتعالى حسبنا وهو رازقنا جل وعلا.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه»[١]، وعن جابر رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ سأل أهله الأدم فقالوا: ما عندنا إلا خل، فدعا به، فجعل يأكل ويقول: «نعم الأدم الخل، نعم الأدم الخل»[٢].

والذي ينبغي للإنسان إذا قُدّم له الطعام أن يعرف قدر نعمة الله سبحانه وتعالى بتيسيره، وأن يشكره على ذلك، وألا يعيبه، إن كان يشتهيه وطابت به نفسه فليأكله وإلا فلا يأكله، ولا يتكلم فيه بقدح أو بعيب.

---

(١) رواه البخاري (٥٤٠٩) ومسلم (٢٠٦٤).
(٢) رواه مسلم (٢٠٥٢)، والطعام: ما يطعمه من مأكول ومشروب.

ودليل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما عاب النبيّ ﷺ طعامًا قط، يعني لم يعب أبدًا فيما مضى طعامًا، ولكنه إن اشتهاه أكله، وإلا تركه ولا يعيبه، مثال ذلك: رجل قُدم له تمر وكان التمر رديئًا، فلا يقل: هذا تمر رديء، بل يقال له: إن اشتهيته فكل، وإلا فلا تأكله، أما أن تعيبه وهو نعمة أنعم الله بها عليك ويسرها لك، إن كان هذا الطبخ قد ساغ لك فكل، وإلا فاتركه.

وأما في مدح الطعام والثناء عليه فذكر حديث جابر رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ سأل أهله الأدم، فقالوا: ما عندنا شيء إلا الخل، والخل عبارة عن ماء يوضع فيه التمر حتى يكون حلوًا، فجيء إليه بالخل فجعل يأتدم به، يعني يغط فيه الخبز ويأكله، ويقول: «نعم الأدم الخل، نعم الأدم الخل» وهذا ثناء على الطعام؛ لأن الخل وإن كان شرابًا يشرب لكن الشراب يسمى طعامًا، قال الله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وإنما يسمى طعامًا؛ لأن له طعمًا يطعم.

وهذا أيضًا من هدي النبيّ ﷺ أنه إذا أعجبه الطعام أثنى عليه، كذلك مثلاً لو أثنيتَ على الخبز، قلتَ نعم الخبز خبز فلان، أو ما ذلك، فهذا أيضًا من سُنَّة الرسول ﷺ.

وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: دعا رجل النّبيّ ﷺ لطعام صنعه له خامس خمسة، فتبعهم رجل، فلما بلغ الباب قال النّبيّ ﷺ: «إن هذا تَبِعَنا، فإن شئت أن تأذن له فأْذَن له، وإن شئت أن يَرجعَ رجع» فقال: لا، بل آذن قد أذنت له[١].

فحديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه أن رجلاً دعا النّبيّ ﷺ إلى الطعام، خامس خمسة، يعني حدد العدد بأنهم خمسة فتبعهم رجلا، فكانوا ستة، فلما بلغ النّبيّ ﷺ منزل الداعي استأذن للرجل السادس، قال ﷺ: «إن هذا تبعنا، فإن شئت أن تأذن له، وإن شئت رجع».

(١) رواه البخاري (٢٠٨١) ومسلم (٢٠٣٦).

ففي هذا دليل على فوائد:

أولاً - أنه يجوز للإنسان إذا دعا قومًا أن يحدد العدد، ولا حرج في ذلك، وبعض الناس يقول: إنه إذا حدد العدد فإنه بخيل، ولكن يقال: قد يكون هذا بسبب ضيق ذات اليد، يحتاج أن يحدد لأجل أن يصنع الطعام الذي لا يزيد عن كفايتهم، ولاسيما في مكان يكون فيه عامة الناس فقراء، أما الأغنياء فالحمد لله لا يحددون.

وفيه أيضًا: دليل على جواز اتباع الرجل للمدعوين لعله يحصل على طعام؛ لأن النبيّ ﷺ لم يمنع هذا الرجل من اتباعهم، بل استأذن له؛ ولأنه ورد أيضًا في حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين تبع النبيّ ﷺ أجل أن يُشبع بطنه.

وفيه أيضًا: دليل على أنه إذا جاء مع الإنسان من لم يدع فإنه يستأذن له، خصوصًا إذا كنت تظن أن صاحب البيت دعاك لغرض خاص لا يجب أن يطلع عليه أحد، فحينئذ لابد أن يستأذن.

وفيه أيضًا: دليل على أنه لا حرج على صاحب البيت إذا لم يأذن للذي تبع المدعو لأنه لو كان في ذلك حرج ما استأذنه النبيّ ﷺ، فلما استأذنه دلّ أنه بالخيار، إن شاء أذن وإن شاء قال: ارجع، وذلك أن الإنسان إذا استأذن على شخص فصاحب البيت بالخيار، إن شاء أذن له، وإن شاء قال: ارجع، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٨].

فلا يكن في صدرك حرج ولا في نفسك ضيق إذا استأذنت على شخص وقال: ارجع، أنا الآن مشغول، خلافًا لبعض الناس إذا استأذنوا على إنسان وقال له: ارجع أنا مشغول صار في قلبه شيء، وهذا غلط؛ لأن الناس لهم حاجات خاصة في بيوتهم، وقد يكون لهم تعلقات بأناس آخرين أهم، فإذا استأذنت على شخص في البيت، وقال لك: الآن عندي شغل فارجع، وارجع بكل راحة وبكل طمأنينة؛ لأن هذا هو الشرع.

وعن عبد الله بن بسر ﷺ قال: كان للنبيّ ﷺ قصعة يقال لها: العشراء، يحملها أربعة رجال، فلما أضحوا وسجدوا الضحى أتى بتلك القصعة، يعني وقد ثرد فيها، فالتفوا حولها، فلما كثروا جثا رسول الله ﷺ فقال أعرابي: ما هذه الجلسة؟ قال رسول الله ﷺ: «**إن الله جعلني عبداً كريمًا، ولم يجعلني جباراً عنيداً**» ثم قال رسول الله ﷺ: «**كلوا من حواليها، ودعوا ذروتها يبارك فيها**»[1].

وفي هذا الحديث دليل على استحباب ركعتي الضحى؛ لقوله فلما سجدوا الضحى، أي لما صلوا صلاة الضحى، وصلاة الضحى سُنَّة، ووقتها من ارتفاع الشمس قدر رمح، يعني من ربع ساعة من طلوع الشمس إلى قبيل الزوال، يعني إلى أن يبقى على الظهر عشر دقائق، كل هذا وقت لها، وهي سُنَّة ينبغي للإنسان أن يحافظ عليها؛ لأنها تغني عن الصدقات التي تصبح على كل عضو من أعضاء البدن، كما أخبر النبيّ ﷺ، بأنه يصبح على كل سُلامَى من الإنسان صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس صدقة، يعني كل عضو من أعضائك عليك به صدقة كل يوم، لكن ليست صدقة مال فقط، بل التسبيح صدقة والتكبير صدقة، والتهليل صدقة، وقراءة القرآن صدقة، والأمر بالمعروف صدقة، والنهي عن المنكر صدقة، ومعونة الرجل على متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وإتيان الرجل زوجته صدقة، كل شيء يتقرب به العبد إلى الله فهو صدقة، ويجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحى، وهذا يدل على أن سُنَّة الضحى سنة في كل يوم.

وفيه أيضًا، دليل على أن الإنسان عند الأكل لا يأكل متكئًا، وإنما يأكل وهو جاثٍ على ركبتيه حتى لا يُكثر من الأكل؛ لقول النبيّ ﷺ في الإكثار من الأكل: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، فإن كان لا محالة؛ فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**» هذا هو الأكل النافع الطبيعي، وإذا جعتَ فكلْ، فالأمر ليس مقصوراً على ساعات معينة.

---

(١) رواه أبو داود (٣٧٧٣) بإسناد جيد، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٢٠٧)، و«ذروتها» أعلاها، بكسر الذال وضمها.

ولو قال قائل: إن الإنسان لو اقتصر على ثلث وثلث وثلث، قد يجوع قبل أن يأتي وقت العشاء، نقول: إذا جُعتَ فكُلْ، لكن كونك تأكل هذا الأكل الخفيف يكون أسهل للهضم وأسهل للمعدة، وإذا اشتهيت فكل، وهذا من الطب النبوي.

لكن لا بأس بالشبع أحيانًا؛ لأن النّبيّ ﷺ أمر أبا هريرة رضي الله عنه حيثما سقاه اللبن وقال: «اشرب، اشرب، اشرب» حتى قال: والله لا أجد له مساغًا، يعني لا أجد له مكانًا، فأقره النّبي ﷺ على ذلك، وإنما الذي ينبغي أن يكون الأكثر في أكلك كما أرشد إليه النّبيّ ﷺ ثلث للطعام وثلث للشراب، وثلث للنفس.

وعن أبي جحيفة وهب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا آكل متكئًا»(١).

قال الخطابي: المتكئ هنا: هو الجالس معتمداً على وطاء تحته، قال: وأراد أنه لا يقعد على الوطاء والوسائد كفعل من يريد الإكثار من الطعام، بل يقعد مستوفزًا لا مستوطئًا، هذا كلام الخطابي، وأشار غيره إلى أن المتكئ هو المائل على جنبه، والله أعلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ جالسًا مقعيًا يأكل تمرًا(٢).

«المقعي» هو الذي يلصق إليته بالأرض، وينصب ساقيه.

الأكل ينقسم بالنسبة للجلوس له إلى قسمين: قسم منهي عنه، وليس من هدي النبيّ ﷺ، وهو أن يأكل الإنسان، مُتَّكِئًا إما على اليمين، أو على اليد اليسرى؛ وذلك لأن الإتكاء يدل على غطرسة وكبرياء، وهذا معنى نفسي؛ ولأنه إذا أكل متكئًا يتضرر، حيث يكون مجرى الطعام متمايلاً ليس مستقيمًا فلا يكون على طبيعته، فربما حصل في مجاري الطعام أضرار من ذلك.

ولهذا قال النّبيّ ﷺ في حديث أبي جحيفة عبد الله بن وهب السواري رضي الله عنه قال النّبيّ ﷺ: «لا آكل متكئًا» يعني ليس من هديي أن آكل متكئًا، وذلك

---

(١) رواه البخاري (٥٣٩٨).

(٢) رواه مسلم (٢٠٤٤).

للسببين اللذين ذكرتهما: سبب معنوي يكون بالنَّفْس، وهو الكبرياء، وسبب حِسِّي يتعلق بالبدن وهو الضرر الذي ينتج عن الأكل على هذا الوجه.

وحديث أنس أنه رأى النَّبيّ ﷺ يأكل تمرًا مقعيًا – والإقعاء أن ينصب قدميه ويجلس على عقبيه، هذا هو الإقعاء – وإنما أكل النبيّ ﷺ كذلك لئلاَّ يستقر في الجلسة فيأكل أكلاً كثيرًا، وإذا كان غير مطمئن فلن يأكل كثيرًا، وإذا كان مطمئنًا فإنه يأكل كثيرًا، هذا هو الغالب، وربما يأكل الإنسان كثيرًا، وهو غير مطمئن، وربما يأكل قليلاً وهو مطمئن، لكن من أسباب تقليل الأكل ألا يستقر الإنسان في جلسته، وألا يكون مطمئنًا الطمأنينة الكاملة.

والحاصل أن عندنا جلستين: الجلسة الأولى الإتكاء، وهذه ليست من هدي النَّبيّ ﷺ أن يأكل متكئًا، وكل أنواع الجلوس الباقية جائزة، ولكن أحسن ما يكون ألا تجلس جلسة الإنسان المطمئن المستقر؛ لئلا يكون ذلك سببًا لإكثار الطعام، وإكثار الطعام لا ينبغي، والأفضل أن يجعل الإنسان ثلثًا للأكل وثلثًا للشرب وثلثًا للنَّفَس، هذا أصح ما يكون في الغذاء، فإن تيسّر فهذا هو المطلوب، ولا بأس أن يشبع الإنسان أحيانًا.

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يأكل بثلاث أصابع، فإذا فرغ لعقها (١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعامًا، لعق أصابعه الثلاث قال: «إذا سقطت لقمة أحدكم فليأخذها، وليمط عنها الأذى وليأكلها، ولا يدعها للشيطان» وأمرنا أن نسلت القصعة وقال: «إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة» (٢).

وعن سعيد بن الحارث أنه سأل جابر رضي الله عنه عن الوضوء مما مَسَّت النار، فقال:

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣٢).
(٢) رواه مسلم (٢٠٣٤).

«لا، قد كنّا زمن النّبيّ ﷺ، لا نجد مثل ذلك الطعام إلا قليلاً، فإذا نحن وجدناه لم يكن لنا مناديل إلا أكفنا وسواعدنا وأقدامنا، ثم نصلي ولا نتوضأ»[١].

تضمنت مسائل متعددة:

المسألة الأولى: أنه ينبغي للإنسان أن يأكل بثلاث أصابع: الوسطى والسبابة والإبهام؛ لأن ذلك أدلّ على عدم الشّره، وأدل على التواضع، ولكن هذا في الطعام الذي يكفي فيه ثلاثة أصابع أما الطعام الذي لا يكفي فيه ثلاثة أصابع مثل الأرز، فلا بأس بأن تأكل بأكثر، لكن الشيء الذي تكفي فيه الأصابع الثلاثة يقتصر عليها فإن هذا سُنّة النّبيّ ﷺ.

المسألة الثانية: أنه ينبغي للإنسان إذا انتهى من الطعام أن يلعق أصابعه قبل أن يمسحها بالمنديل كما أمر النّبيّ ﷺ، يلعقها هو أو يلعقها غيره، أما كونه هو يلعقها فالأمر ظاهر، وكونه يلعقها غيره هذا أيضًا ممكن، فإنه إذا كانت المحبة بين الرجل وزوجته محبة قوية، يسهل عليه جدًا أن تلعق أصابعه أو أن يلعق أصابعها، فهذا ممكن.

وقول بعض الناس: أن هذا لا يمكن أن يقوله النّبيّ عليه الصلاة والسلام؛ لأنه كيف يلعق الإنسان أصابع غيره؟ نقول: إن النّبيّ ﷺ لا يقول إلا حقًا، يُمكن أن يقول شيئًا لا يمكن، فالأمر في هذا ممكن جدًا.

وقال النّبيّ ﷺ: «إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة»، قد تكون البركة ونفع الطعام الكثير بهذا الجزء الذي تلعقه من أصابعك، حتى إنه ذكر لي بعض الناس عن بعض الأطباء أن الأنامل – بإذن الله – تفرز إفرازات عند الطعام تُعين على هضم الطعام في المعدة، وهذه من الحكمة ولكننا نفعلها سُنّة، إن حصلت لنا هذه الفائدة الطيبة حصلت، وإن لم تحصل فلا يهمنا، الذي يهمنا امتثال أمر النّبيّ ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (٥٤٥٧).

المسألة الثالثة: أنه ينبغي للإنسان أن يلعق الصحن أو القدْر أو الإناء الذي فيه الطعام، إذا انتهيت، فالحس حافته كما أمر بهذا النبيّ ﷺ؛ فإنك لا تدري في أي طعامك البركة.

ومع الأسف أن الناس يتفرقون عن الطعام بدون تنفيذ هذه السُّنة، فتجد حافات الآنية عليها الطعام كما هي، والسبب في هذا الجهل بالسُّنَّة، ولو أن طلبة العلم إذا أكلوا مع العامة وَجَّهُوهُم إلى هذه السُّنَّة وغيرها من سنن الأكل والشرب لانتشرت هذه السُّنن، لكن نسأل الله أن يعاملنا بعفوه، فنحن نتجاوز كثيراً ونتهاون في الأمر، وهذا خلاف الدعوة إلى الحق.

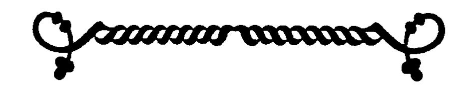
المسألة الرابعة: أن الإنسان إذا سقطت منه اللقمة فلا يتركها، بل يأخذها، وإذا كان فيها أذى يمسحه، لا يأكل الأذى؛ لأن الإنسان ليس مجبراً على أن يأكل شيئًا لا يشتهيه، يمسح الأذى، كأن يكون فيها عود أو تراب، أو ما أشبه ذلك، امسحه ثم كله، لماذا؟ لأن النّبيّ ﷺ قال: «**ولا يدعها الشيطان**» لأن الشيطان يحضر ابن آدم في كل شئونه، إن أراد أن يأكل حضره، وإن أراد أن يشرب حضره، وإن أراد أن يأتي أهله حضره، حتى يشاركه، كما في الآية الكريمة: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الإسراء: ٦٤]، فهو يشارك أهل الغفلة.

فإذا قلت وأنت تأكل: بسم الله، منعته من الأكل، ما يقدر على الأكل معك وقد سَمَّيْتَ على الطعام أبداً، إذا لم تقل: بسم الله، أكل معك، فإذا قلت: بسم الله، فإن الشيطان يترقب اللقمة إذا سقطت بالأرض، فإن رفعتها أنت فهي لك، وإن تركتها أكلها كلها، فصار إذا لم يشارك في الطعام شاركك فيما يسقط من الطعام، ولهذا فضيِّق عليه في ذلك أيضًا، فإذا سقطت اللقمة أو التمرة أو ما أشبه ذلك في الأرض فخذها، وإذا كان علق بها أذى من تراب أو عيدان أو ما أشبه ذلك فأزل ذلك الأذى ثم كُلْها، ولا تدعها للشيطان.

المسألة الخامسة: الوضوء من الطعام المطبوخ الذي مَسَّته النار، كالخبز والأرز

والجريش وغيرها، هل يتوضأ الإنسان إذا أكله أم لا؟ قال بعض العلماء: إنه يجب على من أكل شيئًا مطبوخًا على النار أن يتوضأ؛ لأن النبيّ ﷺ أمر بالوضوء مما مست النار، ولكن الصحيح أنه لا يجب، كما في حديث جابر في «صحيح البخاري» الصحيح أنه لا يجب بل هو سُنَّة، يعني الأفضل أن نتوضأ، لكنه ليس بواجب؛ لأن آخر الأمرين من النَّبيّ ﷺ ترك الوضوء مما مست النار، يعني عدم الالتزام به.

ويدل لهذا أيضًا أن النّبيّ ﷺ سُئِلَ: أن نتوضأ من لحوم الإبل قال: «نعم» قال: نتوضأ من لحوم الغنم، قال: «إن شئت» لأن لحم الإبل إذا أكله الإنسان انتقض وضوءه، لو كان على وضوء فلابد أن يتوضأ، ولكن ما يجب غسل الفرج؛ لأنه ما بال ولا تغوط، إنما يجب الوضوء سواء كان اللحم نيئًا أو مطبوخًا، وسواء أكلت الهبر أو الكبد أو القلب أو الكرش أو الأمعاء، أي شيء تأكله من البعير، فإنه يجب عليك أن تتوضأ؛ لأنه ينقض الوضوء، أما غيره إذا أكلته مطبوخًا، فالأفضل أن تتوضأ ولا يجب عليك ذلك.



صفة شرب رسول الله

عن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يتنفس في الشراب ثلاثًا»(١). يعني يتنفس خارج الإناء.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أُتيَ بشراب، فشرب منه وعن يمينه غلام، وعن يساره أشياخ، فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟» فقال الغلام: لا والله، لا أوثر بنصيبي منك أحدًا، فتله رسول الله ﷺ في يده(٢).

قوله: «تله» أي وضعه، وهذا الغلام هو ابن عباس رضي الله عنهما.

لا يعرف قدر هذه النعمة إلا من حُرِمَها، نسأل الله ألا يحرمنا إياها، فمن حرمها وذاق الجوع وذاق العطش عرف قدر الله تعالى بالأكل والشرب، وهذه إحدى الحكم من الصيام، أن الإنسان يمسك عن الأكل والشرب حتى يعرف نعمة الله عليه بتيسير الأكل والشرب.

وللشرب آداب، منها: أن يسمي الله عز وجل إذا شرب، فيقول عند الشرب: بسم الله.

ومنها: أن يتنفس في الشرب ثلاثًا، لقول أنس بن مالك رضي الله عنه: كان النّبيّ ﷺ إذا شرب تنفس في الشرب ثلاثًا، كيف يتنفس في الشرب ثلاثًا؟ يعني يشرب ثم يفصل الإناء عن فمه، ثم يشرب ثم يفصل الإناء عن فمه، ثم يشرب الثالثة ولا يتنفس في الإناء؛ لحديث أبي قتادة رضي الله عنه أن النّبيّ ﷺ: «نهى أن يتنفس الإنسان في الإناء»(٣).

والحكمة من ذلك أن النَّفَس في الإناء مستقذر على من يشرب من بعده،

(١) رواه البخاري (٥٦٣١) ومسلم (٢٠٢٨).
(٢) رواه البخاري (٢٣٥١) ومسلم (٢٠٣٠).
(٣) رواه البخاري (١٥٣) ومسلم (٢٦٧).

وربما تخرج مع النفس أمراض في المعدة، أو في المريء، أو في الفم فتلتصق بالإناء وربما يشرق إذا تَنَفَّس في الإناء، فلهذا نهى النبيّ ﷺ أن يتنفس الإنسان في الإناء، بل يتنفس ثلاثة أنفاس كل نفس يبعد فيه الإناء عن فمه.

وقد أخبر النبيّ ﷺ بأن هذا أهنأ وأبرأ وأمرأ، أهنأ لأنه يشرب بمهله وأبرأ، يعني أبرأ من العطش، وأسلم من المرض، وأمرأ: أسهل في النزل إلى الأمعاء.

ووجه ذلك أن العطش عبارة عن حرارة المعدة لقلة الماء أو لغير ذلك، وأحياناً يكون المرض، فإذا جاءها الماء دفعة واحدة ربما يضر، فإذا راسله الإنسان عليها مراسلة كان هذا أبرأ في إزالة العطش، وفي السلامة من المرض، والأثر الذي يحصل بورود الماء على المعدة دفعة واحدة؛ ولهذا ينبغي أيضاً إذا شرب ألا يعب الماء عبًّا، وإنما يمصه مصًّا، لا يعبه عبًّا، فيأخذ جرعات كبيرة، بل يمصه مصًّا حتى يأتي المعدة شيئًا فشيئًا، فيمصه في النَّفَس الأول، ثم يطلق الإناء، ثم يمصه في النَّفَس الثاني، ثم يطلق الإناء، ثم في النَّفَس الثالث، هذه هي السُّنَّة.

وأما التناول - يعني بمن يبدأ في إعطاء الإناء - إذا أراد أن يعطي الشراب أحداً، مثال ذلك: رجل دخل ومعه شراب، شاي أو قهوة بمن يبدأ؟ نقول: إذا كان أحد من الناس قد طلب الشراب، فقال: هات الماء مثلاً، فإنه يبدأ به هوالأول، وإذا لم يكن أحد طلبه، فإنه يبدأ بالأكبر ثم الأكبر، يناوله مَنْ على يمينه.

وإذا كان لكل واحد إناء كالكئوس مثلاً، فليبدأ بالأكبر، ثم يعطي الذي على يساره؛ لأن الذي على يساره هو الذي عن يمين الصاب، والصاب هو الذي سيناول، فيبدأ بمن على يمينه، والذي على يمين الصاب هو الذي عن يسار الشارب فيكون من على يسار الشارب هو الذي على يمين الصاب.

مثال ذلك مثلاً: إنسان طلب الماء، فجرى إليه بالماء فشرب منه، وأراد أن يناوله أحداً بعده، إن كان الذي جاء بالشراب واقفًا على رأسه يقول: أعطنيس

الإناء إذا فرغت فيعطيه إياه، وإن لم يكن فإنه إذا انتهى يعطيه للذي على يمينه، سواء كان صغيراً أو كبيراً، شريفاً أو ضعيفاً.

والدليل على هذا أن النّبيّ ﷺ أُتِيَ بلبن قد شيب بماء فشرب وعلى يمينه رجل من الأعراب، وعلى يساره أبو بكر وعمر فلما فرغ النّبي ﷺ ناول الأعرابي، فقال عمر للأعرابي: هذا أبو بكر – يريد من الأعرابي أن يكرم أبا بكر، ويقول: خذه يا أبا بكر؛ لأن أبا بكر مشهور معروف بين الصحابة، فهنا نجد أن النّبيّ ﷺ فضل المفضول على الفاضل؛ لأن أبا بكر أفضل من الأعرابي، لكن فضله عليه لأنه على يمينه وقال: «الأيمن فالأيمن»[1].

والقصة الثانية: أُتِيَ النّبيّ ﷺ بشراب، فشرب منه، وعلى يمينه غلام، وعلى يساره الأشياخ الكبار، فلما شرب قال للذي على يمينه وهو الغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء» يعني الأشياخ، فقال: والله يا رسول الله، ما أنا بالذي أوثر بنصيبي عليك أحداً، يعني ما أوثرهم عليّ، فقال: والله يا رسول الله أنا أحب أن أشرب فضلتك، فتله رسول الله ﷺ في يده يعني أعطاه الإناء في يده.

فهذا دليل على أنه إذا كان الذي على يمينه أصغر سناً فإنه يفضل على الذي على اليسار ولو كان أكبر سناً، والأول يدل على أنه إذا كان الذي على اليمين أقل قدراً، فإنه يُعطى ويُقَدَّم على الذي هو أعظم قدراً إذا كان على اليسار؛ لقول الرسول الله ﷺ: «الأيمنون الأيمنون الأيمنون، ألا فيمنوا، ألا فيمنوا، ألا فيمنوا» هكذا جاء الحديث، لكن هذا فيمن إذا شرب يريد أن يناول من على يمينه أو على يساره.

أما ما يفعله الناس اليوم، يأتي الرجل بالإبريق ويدخل المجلس، فهنا يبدأ بالأكبر؛ لأن الرسول ﷺ كانوا يبدأون فيعطونه أولاً؛ ولأنه لما أراد أن يناول عليه الصلاة والسلام المسواك أحد الرجلين اللذين وقفا، قيل له: «كبر كبر»، وقد ورد

(١) رواه البخاري (٢٣٥٢) ومسلم (٢٠٢٩).

في ذلك أيضًا أحاديث عن النَّبيّ ﷺ، أنك إذا دخلت المجلس تبدأ بالأكبر لا بمن على اليمين.

وعن أم ثابت كبشة بنت أخت حسان بن ثابت رضي الله عنه قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ، فشرب من فِي قِربَةٍ معلقة قائمًا، فقمتُ إلى فِيهَا فقطعته[١].

وإنما قطعتها: لتحفظ موضع فم رسول الله ﷺ وتتبرك به، وتصونه عن الابتذال، وهذا الحديث محمول على بيان الجواز، والحديثان السابقان لبيان الأفضل والأكمل والله أعلم.

من آداب الشرب: ألا يشرب الإنسان من فم القربة أو السقاء؛ لأن النَّبيّ ﷺ نهى عن ذلك، والحكمة من هذا أن المياه فيما سبق ليست بتلك المياه النظيفة فإذا صارت في القربة، أو في السقاء، فإنه يكون فيها أشياء مؤذية عيدان أو حشرات أو غير ذلك مما هو معروف لمن كانوا يستعملون هذا من قبل، فلهذا نهى النَّبيّ ﷺ «عن اختناث الأسقية»[٢] يعني أن الإنسان يكسر أفواهها هكذا ثم يشرب.

وذُكر أن رجلاً شرب مرة هكذا فخرجت حية من القربة، وهذا لا شك أنه على خطر، إما أن تلدغه أو تؤذيه؛ لهذا ينهى عن الشرب من فم القربة، وليس من ذلك الشرب من الصنبور؛ لأن هذه معلومة ونظيفة، فهو كالشرب من الأواني، لكن إذا كان هناك حاجة فلا بأس أن يشرب الإنسان من فم القِربة، مثل أن يكون محتاجًا إلى الماء وليس عنده إناء، فإنه يشرب من القِربَة، وعلى هذا فيكون النهي عن ذلك للكراهة وليس للتحريم.

ويستفاد من الحديث الأخير:

أنه يجوز أن يشرب الإنسان قائمًا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، مع أن النَّبيّ

---

(١) رواه الترمذي (١٨٩٢) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٥٤٢).
(٢) رواه البخاري (٥٦٢٥) ومسلم (٢٠٢٣).

ﷺ نهى عن الشرب قائمًا، لكن ذلك إذا كان للحاجة فلا بأس كما في هذه الحالة، القربة معلقة تكون عالية عن القاعدة، وليس عنده إناء، فشرب النّبيّ ﷺ من هذه القربة المعلقة قائمًا.

وفي الحديث أيضًا: دلالة على جواز التبرك بآثار النّبيّ ﷺ وهو كذلك، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتبركون بعرق النّبيّ ﷺ، ويتبركون بريقه، ويتبركون بثيابه، ويتبركون بشعره، أما غيره ﷺ فإنه لا يُتبرك بشيء من هذا منه، فلا يُتبرك بثياب الإنسان ولا بشعره ولا بأظفاره ولا بشيء من متعلقاته، إلا النّبيّ ﷺ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سقيتُ النّبيّ ﷺ من زمزم، فشرب وهو قائم»[1]. وعن النزال بن سبرة رضي الله عنه قال: «أتى عليّ رضي الله عنه باب الرحبة فشرب قائمًا، وقال: إني رأيتُ رسول الله ﷺ فعل كما رأيتموني فعلت»[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ، ونحن نمشي ونشرب ونحن قيام»[3].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يشرب قائمًا وقاعدًا»[4].

فالأفضل في الأكل والشرب أن يكون الإنسان قاعدًا؛ لأن هذا هو هدي النّبيّ ﷺ، ولا يأكل وهو قائم ولا يشرب وهو قائم، أما الشرب وهو قائم صحّ عن النّبيّ ﷺ أنه نهى عن ذلك، وسُئل أنس بن مالك عن الأكل، قال: ذلك أشرُّ وأخبث، يعني معناه أنه إذا نهى عن الشرب قائمًا فالأكل قائمًا من باب أولى.

لكن في حديث عمر الذي ذكره وصححه قال: كنا في عهد النّبي ﷺ، نأكل ونحن نمشي، ونشرب ونحن قيام. فهذا يدل على أن النهي ليس للتحريم

---

(١) رواه البخاري (١٦٣٧) ومسلم (٢٠٢٧).

(٢) رواه البخاري (٥٦١٥).

(٣) رواه الترمذي (١٨٨٠)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٥٣٢).

(٤) رواه الترمذي (١٨٨٣)، وقال: حديث حسن صحيح. وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (١٥٣٥).

ولكنه لترك الأولى بمعنى أن الأحسن والأكمل أن يشرب الإنسان وهو قاعد، وأن يأكل وهو قاعد، ولكن لا بأس أن يشرب وهو قائم وأن يأكل وهو قائم، والدليل على ذلك حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: سقيتُ النبيّ ﷺ من زمزم فشرب وهو قائم.

وزمزم هي عين الماء التي حول الكعبة، وسببها أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ترك هاجر أم إسماعيل وابنها إسماعيل في مكة، وليس فيها أحد، ليس فيها سكان وليس فيها كعبة، وليس فيها أحد، بل وليس فيها زروع، هي وادٍ غير ذي زرع، وجعل عندهما وعاء من تمر وسقاء من ماء وانصرف؛ لأن الله أمره أن يبقيهما هنالك، فلما انصرف لحقته هاجر وقالت له: كيف تذهب وتتركنا؟ هل أمرك الله بذلك؟ قال: نعم، قالت: إذا كان الله أمرك بذلك فإنه لن يضيعنا، وهذا يدل على كمال إيمان هاجر رضي الله عنها.

وقصتها هي نظير قصة أم موسى بن عمران: كان فرعون مسلطًا على بني إسرائيل، يقتل أبناءهم، ويبقي نساءهم، إذلالاً لهم، وقد قيل: إن المنجّمين قالوا له: إنه سيظهر من بني إسرائيل رجل يكون هلاكك على يده، فصار يُقتّل أبناءهم؛ فخافت أم موسى عليه السلام عليه، فأوحى الله إليها وحي إلهام لا وحي نبوة، أنها إذا خافت عليه تجعله في تابوت (صندوق من الخشب) وتُلقيه في البحر، وهذا شيء شديد على النفس أن تضع ولدها في تابوت، وتلقيه في البحر، لكنها مؤمنة واثقة بوعد الله عز وجل، ففعلت، جعلته في التابوت وألقته في البحر، فرآه جند فرعون، فأخذوه ليقتلوه، فلما رأته زوجة فرعون ألقى الله محبته في قلبها، وقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑨﴾ [القصص: ٩].

واضطربت أم موسى، فأصبح فؤادها فارغًا، يعني ما كان شيئًا وراءه، قد فرغ قلبها على ولدها، مع إيمانها بالله، ولكن الله عز وجل بقدرته جعل هذا الأمر

كلما عُرِضَت عليه امرأة ليرضع منها أبى أن يرضع منها، لا يرضى أن يرضع من أي امرأة، فإذا أخت موسى قد أرسلتها والدته تنظر ماذا حدث له، فرأت الناس يبحثون عن مرضعة لهذا الصبي، فقالت: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص: ١٢]، فردّه الله إلى أمه قبل أن يرضع من أي امرأة، ما رضع من أحد سوى أمه مع أنها قد ألقته في البحر، لكن رده الله عليها.

فهاجر ﷺ لما قال لها إبراهيم: إن الله أمرني هذا، قالت: إذًا لا يُضَيِّعُنا، ثم بقيت هي وطفلها في هذا المكان الذي ليس فيه أحد من بني آدم، وجعلت تأكل من التمر وتشرب من الماء، وتدر اللبن على الولد ويرضع، حتى نفد التمر والماء، وجاعت الأم، ومعلوم أن الأم إذا جاعت لا يكون فيها لبن، وجعل الطفل يصيح ويبكي.

فبحثتْ بما ألهمها الله عن أقرب جبل لها تصعد عليه لعلها تسمع صوتا أو ترى أحدًا، فوجدت أقرب مكان إليها وهو الصفا - والمشاهد الآن أن أقرب جبل للكعبة هو الصفا - فصعدت إليه وتَسَمَّعَت فلم تجد أحدًا، فنزلت وقالت أذهب إلى الجهة الثانية، وأقرب جبل إليها في الجهة الثانية هو المروة، فصعدت على المروة تسمع فلم تجد أحد، وكان بين الصفا والمروة شعيب، وهو مجرى سيل، ومعروف أن الشعيب يكون نازلاً عن الأرض، فكانت إذا نزلت في الشعيب ركضت ركضًا عظيمًا، تركض من أجل أن تسمع الولد وتلتفت إليه وتراه، فعلت هذا سبع مرات.

فلما أكملت سبع مرات إذا هي تسمع شيئًا، فقالت: أغثْ، إن كان عندك غواث، سَمِعَتْ حِسًا، وإذا هو جبريل، أمره ربه عز وجل أن ينزل إلى الأرض فيضرب بعقبه أو بجناحه مكان زمزم، فضربه مرة واحدة، فخرج هذا الماء ينبع، فجعلت تحوطه تحجز عليه، خافت أن يسيح في الأرض وينقص، وشربت من الماء، وإذا الماء يكفي عن الطعام والشراب وهو ماء، وجعلت تشرب من هذا الماء وتُرضع الولد، وفرّج الله عزّ وجل عنها.

وكان حولها أُناس ولكنهم كانوا بعيدين عنها من « جُرهُم » قبيلة من العرب

كانوا حولها، فرأوا الطيور تهوي إلى هذا المكان مكان زمزم الذي فيه الماء والطير يرى من بعيد، فقالوا: ما خبرنا أن هنا ماء حتى تأوي الطيور إليه، لكنهم قالوا: لا يمكن للطيور أن تأوي إلا إلى ماء، فتتبعوا هذه الطيور حتى وصلوا إلى المكان، وإذا بالمكان عين تنبع، فنزلوا حول المرأة وأنست بهم، وكبر إسماعيل وتزوج منهم.

بعد مدة جاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فدخل على أهل إسماعيل وعلى هاجر، وسأل زوجة إسماعيل كيف حالكم؟ فشكت الحال وتضجرت، فقال لها: إذا جاء زوجك فقولي له: يُغير عتبة بابه، فجاء إسماعيل وأخبرته بالذي حصل، قال: هل جاءكم أحد؟ قالت: نعم جاء شيخ صفته كذا وكذا، وإنه قال: أقرئيه السلام وقولي له: يُغير عتبة بابه. ماذا يريد إبراهيم بهذه الكلمة؟ يريد أن يُطلقها؛ لأن المرأة شكاية، شكَتْ زوجها، يعني أن ما عندهم إلا كل بؤس، فقال: هذا أبي وأنت العتبة، فالحقي بأهلك.

ثم تزوج غيرها، ثم جاء إبراهيم مرة أخرى بعد أن غاب عنه مدة، ودخل على بيت ابنه إسماعيل ووجد الزوجة فسألها عن حالهم، فأثنت على حالهم وقالت: نحن بخير، وأثنت على الحال، فقال: أقرئي زوجك مني السلام، وقولي له: يُمسك بعتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه سأل: هل جاء أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ، صفته كذا وكذا، وأنه يُقرئك السلام ويقول لك: أمسك عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وأنت عتبة الباب، وأمرني أن أُمسكك.

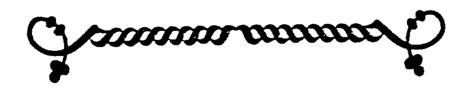
فالحاصل أن زمزم ماء مبارك: «طعام طُعم، وشفاء سُقْم»[1]، «وماء زمزم لما شُرِبَ له»، إن شربته لعطش رويت، وإن شربته لجوع شبعت، حتى إن بعض العلماء أخذ من عموم هذا الحديث أن الإنسان إذا كان مريضًا وشربه للشفاء شُفي، وإذا كان كثير النسيان وشربه للحفظ صار حافظًا، وإذا شربه لأي غرض ينفعه، فعلى كل حال هذا الماء مبارك.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

فالحاصل أن الأعم والأفضل أن يشرب الإنسان الماء وهو قاعد ويجوز الشرب قائمًا، وقد شرب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قائمًا، وقال: إن النّبيّ ﷺ فعل كما رأيتموني فعلت، فدلّ ذلك على أن من يشرب قائمًا لا بأس به، لكن الأفضل أن يشرب قاعدًا.

بقي أن يقال: إذا كانت البَرَّادة في المسجد ودخل الإنسان المسجد، فهل يجلس ويشرب أو يشرب قائمًا؛ لأنه إن جلس خالف قول النّبيّ ﷺ: **«إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين»** (١)، وإن شرب قائمًا ترك الأفضل فنقول: الأفضل أن يشرب قائمًا؛ لأن الجلوس قبل الصلاة للركعتين حرام عند بعض العلماء، بخلاف الشرب قائمًا، فهو أهون، وعلى هذا فيشرب قائمًا ثم يذهب ويصلي تحية المسجد.



(١) رواه البخاري (١١٦٣) ومسلم (٧١٤).

صفة ضحك النبي ﷺ

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ ضاحكًا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يبتسم»[١]. «اللهوات» جمع لهاة، وهي اللحمة التي في أقصى سقف الفم.

الوقار: هو هيئة يتصف بها العبد يكون وقورًا، بحيث إذا رآه من رآه يحترمه ويعظمه. السَّكينة: هي عدم الحركة الكثيرة وعدم الطيش، بل يكون ساكنًا في قلبه وفي جوارحه، وفي مقاله.

ولا شك أن هذين الوصفين الوقار والسكينة من خير الخصال التي يمن الله بها على العبد؛ لأن ضد ذلك أن يكون الإنسان لا شخصية له، ولا هيبة له، وليس وقورًا ذا هيبة، بل هو مهين، قد وضع نفسه ونزلها.

وكذلك السَّكينة ضدها أن يكون الإنسان كثير الحركات، كثير التَّلفُّت، لا يُرَى عليه أثر سكينة في قلبه ولا قوله ولا فعله، فإذا منّ الله على العبد بذلك (السكينة والوقار)، فإنه ينال بذلك خلقين كريمين.

وضد ذلك أيضًا العجلة، أن يكون الإنسان عجولاً لا يتحرى ولا يتأنى، ليس له همّ إلا القيل والقال، اللذان نهى عنهما رسول الله ﷺ، فقد كان ينهى عن القيل والقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال

فإن كان الإنسان ليس متانيًا ولا متثبتًا في الأمور، حصل منه زلل كثير، وأصبح الناس لا يثقون في قوله، وصار عند الناس من القوم الذين يُرد حديثهم، ولا ينتفع به.

ثم قوله تبارك وتعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٢٨) ومسلم (٨٩٩).

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ الذين منّ الله عليهم بالرحمة ووفقهم للخير، هم ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ يعني إذا رأيت أحدهم رأيت رجلاً في مشيته وقار بدون أن يعجل عجلة تقبح.

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ يعني قالوا قولاً سليمًا يسلمون به من شرهم، وليس المعنى أنهم يلقون السلام، بل المعنى أنه إذا خاطبه الجاهل قال قولاً يسلم به من شره، إما أن يدافعه بالتي هي أحسن، وإما أن يسكت إذا رأى السكوت خيراً.

المهم أنه يقول قولاً يسلم به؛ لأن الجاهل أمره مشكل، إن خاصمته أو جادلته فربما يبدر منه كلام سيئ عليك، وربما يبدر منه كلام سيئ على ما تدعو إليه من الخير، فيسب الدين وما أشبه ذلك والعياذ بالله.

فمن توفيق عباد الرحمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا، يعني قالوا قولاً يسلمون به ولا يحصل به إثم، وكذلك من أوصافهم ما ذكره في آخر الآيات.

﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ [الفرقان : ٧٢]، يعني لا يشهدون القول الكذب، ولا الفعل القبيح.

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ ﴾ أي: الذي ليس فيه خير ولا شر ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] أي: سالمين منه.

وذلك أن الأشياء إما خير، وإما شر، وإما لغو. فالشر لا يشهدونه واللغو يسلمون منه، ويمرون به كرامًا، والخير يرتعون فيه.

وحديث عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ لم يستجمع قط ضاحكًا تبدو منه لهواته، يعني ليس ضحكًا فاحش بقهقهة، يفتح فمه حتى تبدو لهاته، ولكنه ﷺ كان يبتسم أو يضحك حتى تبدو نواجذه أو تبدو أنيابه، وهذا من وقار النبيّ ﷺ.

ولهذا تجد الرجل كثير الكركرة الذي إذا ضحك قهقه وفتح فاه يكون هَيِّنًا عند الناس وضيعًا عندهم ليس له وقار، وأما الذي يكثر التبسم في محله، فإنه يكون محبوبًا تنشرح برؤيته الصدور وتطمئن به القلوب.



صفة وعظ النبي ﷺ

قال الله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: «كان ابن مسعود رضي الله عنه يذكرنا في كل خميس مرة، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لَوَدِدتُ أنك ذكّرتنا كل يوم، فقال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملّكم، وإني أتخوّلكم بالموعظة، كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا» (١).

يتخولنا: يتعهدنا، الوعظ: هو ذكر الأحكام الشرعية مقرونة بالترغيب أو الترهيب، كأن تقول للإنسان مثلاً: إنه يجب عليك كذا وكذا، فاتقِ الله، وقم بما أوجب الله عليك وما أشبه ذلك.

وأعظم واعظ هو كتاب الله عز وجل فإن الله يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: ٥٧].

فأعظم ما يوعظ به: كتاب الله عز وجل؛ لأنه جامع بين الترغيب والترهيب وذكر الجنة والنار والمتقين والفجار، فهو أعظم كتاب يوعظ به.

ولكن إنما يكون كذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وهكذا المؤمن كلما قرأ آية من كتاب الله ازداد إيمانًا بالله، واستبشر بما جعل الله في قلبه من النور من هذا الكتاب العظيم.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٥]، نعوذ بالله من ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٧٠) ومسلم (٢٨٢١).

فينبغي للإنسان أن يَعظَ الناسَ بالقرآن، وبالسُّنَّة وبكلام الأئمة، وبكل ما يلين القلوب ويوجهها إلى الله عز وجل.

وينبغي الإقتصاد في الموعظة، فلا تُكثر على الناس فتملهم وتُكَرِّه إليهم القرآن والسُّنَّة وكلام أهل العلم؛ لأن النفوس إذا مَلَّت كَلَّت وتعبت، وسئمت، وكرهت الحق وإن كان حقًا؛ ولهذا كان أحكم الواعظين من الخلق محمد رسول الله ﷺ يتخول الناس بالموعظة، ما يُكثر عليهم لئلا يملوا ويسأموا ويكرهوا ما يُقال من الحق.

يقول تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يعني إلى دين الله؛ لأن سبيل الله هو دين الله حيث إنه يوصل إلى الله تعالى، فمن سلك هذا الدين أوصله إلى سبيل الله سبحانه وتعالى؛ ولأن هذا الدين وضعه الله عز وجل وشرعه لعباده؛ ولهذا أضيف إليه فقال: في سبيل الله.

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي بثلاثة أمور:

أولاً - وذلك بأن تنزل الأمور منازلها، في الوقت المناسب، والكلام المناسب، والقول المناسب؛ لأن بعض الأماكن لا تنبغي فيها الموعظة، وبعض الأزمنة لا تنبغي فيها الموعظة، وكذلك بعض الأشخاص لا ينبغي أن تعظهم في حال من الأحوال، بل تنتظر حتى يكون مهيئًا لقبول الموعظة؛ ولهذا قال: ﴿ بِالْحِكْمَةِ ﴾ قال العلماء: الحكمة وضع الأشياء في مواضعها.

ثانيًا - الموعظة الحسنة: يعني اجعل دعوتك مقرونة بموعظة حسنة موعظة تُلَيِّن القلب وتُرَقِّقُهُ وتوجهه إلى الله، بشرط أن تكون حسنة، إن كان الترغيب فيها أولى فبالترغيب، وإن كان الترهيب والتخويف فيها أولى فبالترهيب والتخويف.

وكذلك تكون حسنة من حيث الأسلوب والصياغة، وكذلك تكون حسنة من حيث الإقناع، بحيث تأتي بموعظة تكون فيها أدلة مقنعة، أدلة شرعية وأدلة عقلية تُساند الشرعية؛ لأن بعض الناس يقنع بالأدلة الشرعية كالمؤمنين الخلص، فإن الله يقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ومن الناس من لا يكتفي بالأدلة الشرعية، بل يحتاج أن تسند الأدلة الشرعية عنده بأدلة عقلية، ولهذا يستدل الله سبحانه في آيات كثيرة بالأدلة العقلية على ما أوحاه إلى نبيه من الأدلة الشرعية.

انظر مثلاً إلى البعث بعد الموت؛ فالبعث بعد الموت أنكره الكفار، وقالوا: من يحيي العظام وهي رميم؟ كيف يموت الإنسان وتأكل الأرض عظامه ولحمه وجلده، ثم يُبعث؟ فأجاب الله ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس: ٧٩]، من الذي خلق هذه العظام أول مرة؟ هو الله، وإعادة الخلق أهون من ابتدائه ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ ﴾ [يس: ٨١].

هذه أدلة عقلية، الاستدلال بالمبدأ على المعاد، وكذلك يستدل الله سبحانه وتعالى على إمكان البعث بإحياء الأرض بعد موتها؛ فإن الله تعالى ينزل المطر على الأرض الهامدة القاحلة، ليس فيها حياة ولا نبات، فتُصبح الأرض مخضرة بهذا المطر، من الذي أحيا هذا النبات هو الله، فالذي أحيا هذا النبات بعد يبسه وموته قادر على إحياء الموتى.

ولابد من حياة أخرى؛ لأنه ليس من الحكمة أن الله يُنشئ هذا الخلق ويمدهم بالنعم والرزق، ويُنزل عليهم الكتب، ويُرسل إليهم الرسل، ويُشرع الجهاد ضد أعدائه، ثم تكون المسألة مجرد دنيا تروح، فهذا لا يمكن، وهذا خلاف الحكمة، بل لابد من حياة أخرى هي الحياة الحقيقية كما قال تعالى: ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ

لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفجر: ٢٤]، الحياة الحقيقية هي حياة الآخرة ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠١]، ثم قال: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، يعني: إذا وعظت موعظة حسنة، وإذا صار الإنسان يجادل ولم يقبل فجادله، ولا تنسحب، لكن جادل بالتي هي أحسن من حيث الأسلوب، ومن حيث العرض، ومن حيث الإقناع، إذا استدلّ عليك بدليل فحاول إبطال دليله، فإذا كان إبطال دليله يطول، فانتقل إلى دليل آخر، ولا تأخذ في الجدال معه، بل انتقل إلى دليل آخر لا يستطيع مجادلتك فيه.

انظر إلى إبراهيم عليه السلام لما حاجّه الرجل في الله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، يعني: وأنت لا تستطيع أن تُحيي وتُميت ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ كيف يحيي ويُميت هذا المجادل المعاند؟! كان يأتي بالرجل المستحق للقتل فيقول: لا تقتلوه ويأتي بالرجل الذي لا يستحق القتل، فيقول: اقتلوه، فجعل هذا التمويه إحياء وإماتة.

فقال إبراهيم: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ولم يجادله على قوله: أنا أحيي وأميت، وإلاّ لو جادله، لقال: أنت لم تحيي ولم تميت حقيقة، وإنما تفعل سبب الموت فيموت، وهو القتل، وتدفع موجب القتل فلا يُقتَل، لكنه عدل عن هذا إلى شيء لا يستطيع الخصم أن يتحرك معه أو أن ينطق، قال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ ، فلم يستطع ردًا، ولهذا قال: ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فالحاصل أن الله يقول: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] وفهم الآية أن من لا يستطيع المجادلة بالتي هي أحسن فلا يجادل؛ لأنه قد يأتي إنسان مؤمن حقًا وليس عنده إشكال لما معه من الإيمان، لكن يجادل الخصم فيعجز عن مقاومته، ففي هذه الحال لا تجادل؛ لأنك إن جادلت لن تجادل بالتي هي أحسن، اتركه إلى وقت آخر أو إلى أن يأتي أحدٌ أقوى منك في المجادلة فيجادله.

عن أبي نجيح العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً وجلتْ منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: «**أوصيكم بتقوى الله عز وجل، والسمع والطاعة، وإن تأمّر عليكم عبدٌ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيراً؛ فعليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين عضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة**»(١) .

قوله: «**فوعظنا**» الوعظ: هو التذكير المقرون بالترغيب أو الترهيب، وكان النّبيّ ﷺ يَتَخَوّل أصحابه بالموعظة ولا يُكثِر عليهم مخافة السّآمة، وقوله: «**وجلت منها القلوب**»: أي خافت.

«**وزرفت منها العيون**» أي بكتْ حتى زرفت دموعها.

فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودّع فأوصنا» لأن موعظة المودع تكون موعظة بالغة قوية. فأوصنا، قال: «**أوصيكم بتقوى الله عز وجل**»: وهذا من فقه الصحابة ﷺ أنهم استغلوا هذه الفرصة ليوصيهم النّبيّ ﷺ بما فيه الخير، قال: «**أوصيكم بتقوى الله عز وجل**» وتقوى الله اتخاذ وقاية من عقابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وهذا حق الله عز وجل.

«**والسمع والطاعة**» يعني لولاة الأمور أي اسمعوا ما يقولون وما به يأمرون واجتنبوا ما عنه ينهون. «**وإن تأمّر عليكم عبد**»، يعني وإن كان الأمير عبداً، فاسمعوا له وأطيعوه، و هذا هو مقتضى عموم الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩].

وقوله ﷺ: «**فإنه من يعش منكم**» أي: من تطول حياته فسيرى اختلافًا كثيراً ووقع ذلك كما أخبر النّبيّ ﷺ فقد حصل الإختلاف الكثير من زمن بقية

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢) وابن حبان (١٠٢) وصححه الألباني في الإرواء (٢٤٥٥).

الصحابة ﷺ ثم أمر النّبيّ ﷺ بأن نلتزم بسنّته أي بطريقته وطريقة الخلفاء الراشدين المهديين والخلفاء الذين خلفوا النّبيّ ﷺ في أمته وعلى رأسهم الخلفاء الراشدين الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ ﷺ .

«المهديّين» وصف كاشف؛ لأن كل راشد فهو مهدي، ومعنى المهديين الذين هدوا أي هداهم الله عز وجل لطريق الحق.

«عضوا عليها بالنواجذ» وهي أقصى الأضراس وهو كناية عن شدة التمسك بها، ثم حذّر النّبيّ ﷺ من محدثات الأمور، فقال: «إياكم» أي أحذّركم من محدثات الأمور وهي ما أُحدث في الدين بلا دليل شرعيّ، وذلك أنه لما أمر بلزوم السُّنّة حذّر من البدعة، وقال: «فإن كل بدعة ضلالة»[1] .

حرص النّبيّ ﷺ على موعظة أصحابه، حيث يأتي بالمواعظ المؤثرة التي توجل منها القلوب وتذوب منها العيون.

ومنها: أن الإنسان المودِّع الذي يريد أن يغادر إخوانه ينبغي له أن يعظهم موعظة تكون ذكرى لهم، موعظة مؤثرة بليغة؛ لأن المواعظ عند الوداع لا تُنْسَى.

ومنها: الوصية بتقوى الله عز وجل، فهذه الوصية هي وصية الله في الأولين والآخرين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١].

ومنها: الوصية بالسمع والطاعة لولاة الأمور قد أمر الله بذلك في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾

[النساء: ٥٩].

وهذا الأمر مشروط بأن لا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بمعصية فلا سمع لهم ولا طاعة في معصية الله؛ لقول النبيّ ﷺ: «إنما الطاعة في المعروف».

(١) رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

ومن هنا نتبين الفائدة في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ حيث أنه لم يَعُد الفعل عند ذِكْر طاعة أولياء الأمور بل جعلها تابعة لطاعة الله ورسوله.

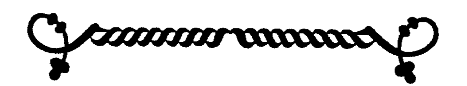
ومن فوائد هذا الحديث:

- حرص النّبيّ ﷺ على موعظة أصحابه كما أنه حريص على أن يعظهم أحيانًا بتبليغهم الشرع فهو أيضًا يعظهم مواعظ ترقق القلوب وتؤثر عليها.
- أنه ينبغي للواعظ أن يأتي بموعظة مؤثرة في الأسلوب وكيفية الإلقاء، ولكن بشرط ألاّ يأتي بأحاديث ضعيفة أو موضوعة؛ لأن بعض الوعّاظ يأتي بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، بزعم أنها تفيد في تحريك القلوب، ولكنها وإن أفادت في هذا تضر، فقد ثبت عن النّبيّ ﷺ أنه قال: «**من حَدَّث عنّي بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين**»[1].
- أن العادة إذا أراد أن يفارق أصحابه وإخوته، فإنه يعظهم موعظة بليغة؛ لقوله: «كأنها موعظة مودع».
- طلب الوصية من أصحاب العلم.
- أنه لا وصية أفضل ولا أكمل من الوصية بتقوى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١] وتقوى الله سبق شرحها.
- الوصية بالسمع والطاعة لولاة الأمور، وإن كانوا عبيدًا لقوله ﷺ: «**وإن تأمّر عليكم عبد**». لأن السمع والطاعة لهم تنتفي بها شرور كثيرة وفوضى عظيمة.
- ظهور آية من آيات الرسول ﷺ حيث قال: «**من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا**»، والذين عاشوا من الصحابة رأوا اختلافًا كثيرًا، كما يعلم ذلك من التاريخ.

---

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٩٩).

- لزوم التمسك بسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا سيما عند الإختلاف والتفرق، ولهذا قال: «فعليكم بسنّتي».
- أنه ينبغي التمسك الشديد حتى يعض عليها بالنواجذ لئلاّ تفلت من الإنسان.
- التحذير من محدثات الأمور، والمراد بها المحدثات في الدين وأما ما يُحدَث في الدنيا فينظر فيه، إذا كان فيه مصلحة فلا تحذير منه، أما ما يحصل في الدين فإنه يجب الحذر منه لما فيه من التفرق في دين الله والتشتت وتضييع الأمة بعضها بعضاً.
- أن كل بدعة ضلالة وأنه ليس في البدع ما هو مستحسن لما زعمه بعض العلماء، بل كل البدع ضلالة فمن ظنّ أن بدعة من البدع حسنة، فإنها لا تخلو من أحد أمرين: إما أنها ليست بدعة وظنها هو أنها بدعة، وإما أنها ليست حسنة وظنّ أنها حسنة، وإما أن تكون بدعة وحسنة فهذا مستحيل؛ لقول النّبيّ ﷺ: «فإن كل بدعة ضلالة».



صفة كلام رسول الله ﷺ

عن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبيّ ﷺ إذا تكلّم بكلمة أعادها ثلاثًا؛ حتى تُفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلّم عليهم سلّم عليهم ثلاث» [١] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان كلام رسول الله ﷺ كلامًا فصلاً يفهمه كل من يسمعه» [٢].

والمعنى: أنه ينبغي للإنسان إذا تكلم وخاطب الناس أن يكلمهم بكلام بيّن، لا يستعجل في إلقاء الكلمات، ولا يدغم شيئًا في شيء، ويكون عنده الإظهار، بل يكون كلامه فصلاً بيّنًا واضحًا، حتى يفهم المخاطب بدون مشقة وبدون كلفة. فبعض الناس تجده يُسرع في الكلام ويأكل الكلام، بينما يجب أن يكون الكلام واضحًا يفهمه المخاطَب، وليس من الواجب أن يكون خطابك باللغة الفصحى.

فعليك أن تخاطب الناس بلسانهم، وليكن كلامك بينًا واضحًا كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاثًا؛ حتى تُفْهم عنه».

فقوله: «حتى تُفهم عنه» يدل على أنها إذا فهمت بدون تكرار فإنه لا يكررها، وهذا هو الواقع، فإن الرسول ﷺ نسمع عنه أحاديث كثيرة يقولها في خطبه وفي المجتمعات ولا يكرر ذلك.

لكن إذا لم يفهم الإنسان، بأن كان لا يعرف المعنى جيداً فكرر عليه حتى يفهم، أو كان سمعه ثقيلاً لا يسمع، أو كان هناك ضجة حوله لا يسمع، فهنا يستحب أن تكرر حتى يَفْهَم عنك.

---

(١) رواه البخاري (٩٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٩) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٠٥١).

و« كان ﷺ إذا سلّم على قوم سلّم عليهم ثلاثًا » معناه انه كان لا يكرر أكثر من ثلاثة، يُسلم مرة فإذا كان لا يُجَب، سلّم الثانية، فإذا كان لا يُجب سلّم الثالثة، فإذا لم يُجَبْ تركه.

وكذلك في الإستئذان كان ﷺ يستأذن ثلاثًا، يعني إذا جاء إلى إنسان استئذن الدخول على بيته، يدق عليه الباب ثلاث مرات، فإذا لم يُجبْ انصرفَ، فهذه سُنّته ﷺ أن يُكرر الأمور ثلاثًا ثم ينتهي.

وهل مثل ذلك إذا دقّ جرس الهاتف ثلاثًا؟ يُحتمل أن يكون من هذا الباب وأنك إذا اتصلت بإنسان ودق الجرس ثلاث مرات وأنت تسمع، وهو لم يجب، فأنت في حل إذا وضعت سماعة الهاتف، ويُحتمل أن يُقال أن الهاتف له حكم آخر وأنك تبقى حتى تيأس من أهل البيت؛ لأنهم ربما لا يكونون حول الهاتف عند اتصالك، فربما يكونوا في طرف ويحتاجون إلى خطوات كثيرة حتى يصلوا إلى الهاتف؛ فلذلك قلنا: لاحتمال الأمرين.

وحديث عائشة رضي الله عنها: « أن النّبيّ ﷺ كان كلامه فصلاً » يعني مفصلاً لا يدخل الحروف بعضها على بعض، ولا الكلمات بعضها على بعض، حتى لو شاء العَادُّ أن يحصيه لأحصاه من شدة تأنّيه ﷺ في الكلام.

وهكذا ينبغي للإنسان الا يكون متداخلاً بحيث يخفى على السامع؛ لأن المقصود من الكلام هو إفهام المخاطب وكلما كان أقرب إلى الإفهام كان أولى وأحسن.

ثم إنه ينبغي للإنسان إذا استعمل هذه الطريقة يعني إذا جعل كلامه فصلاً بيّنًا واضحًا، وكرر ثلاث مرات لمن يفهم، ينبغي أن يستشعر في هذا أنه متبع لرسول الله ﷺ حتى يحصل له بذلك الأمر وإفهام أخيه المسلم.

وهكذا جميع السنن اجعل على بالك أنك متبع فيها لرسول الله ﷺ حتى يتحقق لك الاتباع.

صفة بكاءه ﷺ

البكاء له أسباب: تارة يكون الخوف، وتارة يكون الألم، وتارة يكون الشوق، وغير ذلك من الأسباب التي يعرفها الناس.

ولكن البكاء من خشية الله إما خوفًا منه وإما شوقًا إليه تبارك وتعالى، فإذا كان البكاء من معصية فعلها الإنسان، فهذا البكاء سببه الخوف من الله عز وجل، وإذا كان بعد طاعة فعلها كان هذا البكاء شوقًا إلى الله سبحانه وتعالى.

رحمة الله آيتين: آية فيها الثناء على الذين يبكون من خشية الله وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ [الإسراء: ١٠٧].

أي: أتوا العلم من قبل القرآن وهم أهل الكتاب: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]، يعني: إن وعد ربنا واقع لا محالة، فإن هنا للتوكيد.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٩]، و﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ يعني عليها، والمراد المبالغة في السجود، حتى تكاد أذقانهم تضرب بالأرض من شدة المبالغة في سجودهم، ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ خشوعًا في القلب يظهر أثره وعلامته على الجوارح.

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠]، وهذا ذمٌّ لهم، أن يضحك الإنسان من القرآن، ويعجب منه عجب استنكار وسخرية ولا يبكي منه، والقرآن أعظم، وأعظم واعظ يعظ الله به القلوب، لكنه إذا ورد عليه قلوب كالحجارة والعياذ بالله فإنها لا تلين، ولكنها تزداد صلابة، نسأل الله العافية.

وحديث ابن مسعود رضي الله عنه «أن النَّبيَّ ﷺ طلب منه أن يقرأ عليه القرآن،

فقال: يا رسول الله، كيف أقرؤه عليك وعليك أنزل؟ يعني فأنت أعلم به مني، فكيف أقرؤه عليك؟ قال: «إني أُحبُّ أن أسمعه من غيري»، هكذا قال النّبيّ ﷺ.

وفيه: دليل على أن الإنسان قد يكون إنصاته لقراءة غيره أخشع لقلبه مما لو قرأ هو، وهو كذلك أحيانًا، فأحيانًا إذا سمعت القرآن من غيرك خشعت وبكيت، لكن لو قرأته أنت ما حصلت لك هذه الحال.

فقرأ عليه سورة النساء، فلما بلغ هذه الآية العظيمة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

يعني: ماذا تكون حالك؟ وماذا تكون حالهم؟ كيف هنا للاستفهام، والإستفهام يشد النفس ويُنبه القلب ﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يوم القيامة

والشهداء: طائفتان من الناس، الطائفة الأولى: الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. والثانية: أهل العلم الذين ورثوا الأنبياء، فإنهم شهداء بعد أن يموت الأنبياء، فالشهداء على الخلف هم العلماء بعد الرسل، يشهدون بأن الرسل بلّغوا ويشهدون على الأمة بأن الرسالة قد بلغتهم ويا لها من ميزة عظيمة لأهل العلم أن يكونوا هم شهداء الله في أرضه.

يقول: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ﴾ يعني: يا محمد ﴿عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ الأمة ﴿شَهِيدًا﴾ ماذا تكون الحال، فقال النّبيّ ﷺ له: «حسبك الآن».

قال ابن مسعود: فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان يبكي ﷺ خوفًا من هذه الحال الرهيبة العظيمة. ففي هذا: دليل على البكاء من سماع القرآن أو عند قراءته.

وقول الرسول ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» يعني لو تعلمون ما أعلم من حقائق الأمور التي أخفاها الله عنكم وعلمها الرسول ﷺ لكنه أخفاها عن الخلق رحمة بهم، وعلمها النّبيّ ﷺ، ولكنه لم يُؤمر بإبلاغها للناس.

ولما قال ﷺ: «لو أنكم تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» غطى الصحابة وجوههم ولهم خنين، يعني أصوات بكاء، يبكون؛ لأن المراد بقوله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم» التحذير مما علمه عليه الصلاة والسلام، فجعلوا يبكون ﷺ وهذا يدل على كمال إيمانهم، وكمال تصديقهم بما أخبره الرسول ﷺ.

وحديث أبي هريرة المشهور، وقد سبق أيضًا: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله»[1] وذكر منهم «رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» ذكر الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، وأحكامه وآياته، ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، إما شوقًا إليه، وإما خوفًا منه، فهذا من الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلاّ ظله.

والمراد بالظل هنا: ظل يخلقه الله عز وجل يوم القيامة، يُظلّل فيه من يشاء من عباده، وليس المراد ظل نفسه جلّ وعلا؛ لأن الله نور السماوات والأرض، ولا يمكن أن يكون الله ظلاً من الشمس، فتكون الشمس فوقه وهو بينهما وبين الخلق، ومن فهم هذا الفهم فهو بليد أبلد من الحمار؛ لأنه لا يمكن أن يكون الله عز وجل تحت شيء من مخلوقاته، فهو العليّ الأعلى، ثم هو نور السماوات والأرض.

قال النّبيّ ﷺ: «حجابه»، يعني حجاب الله «النور، لو كشفه لأحرقت سُبحَات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» يعني لو كُشف هذا الحجاب والحجب أيضًا من نور، لكنها نور دون نور الباري عز وجل، لو كشف الله هذا النور «لأحرقت سبحات وجهه» يعني بهاؤه وعظمته ونوره، «ما انتهى إليه بصره من خلقه» وبصره ينتهي إلى كل شيء.

والمعنى: لو كشفه الله لأحرق هذا النور كل شيء، فكيف يكون المراد بظل الرب عز وجل؟! لكن كما قلت: فبعض الناس أجهل من الحمار، لا يدري ما يترتب على قوله الذي يقوله في تفسير كلام الله وكلام رسول الله ﷺ، ولا يمكن أن يريد الرسول ﷺ هذا.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

حتى الرواية التي وردت في ظل عرشه فيها نظر؛ لأن المعروف أن العرش أكبر من السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم، والسماوات السبع والأراضين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة، فكيف يكون العرش تحت الشمس يظل الناس!.

ثم قال: «يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه» لأننا في الدنيا نستظل بالبناء الذي نبنيه، ونستظل بالأشجار التي تغرس ونستظل بسفوح الجبال، وبالجدران، وبغير ذلك، نستظل بأشياء نحن نضعها بأيدينا وبأشياء خلقها الله عز وجل.

لكن في الآخرة ليس هناك ظل، قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) ﴾ [طه: ١٠٥]، كل الجبال تُنسف مهما عظمت، أكبر الجبال وأعظمها تُنسف، تكون رملاً، هباءً منثوراً، تطير في الجو ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨] تطير في الهواء وإن كنت تظنها جامدة لا تتحرك.

وقد سمعت عن بعض الناس المتأخرين يقول: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ يعني في الدنيا، وأن هذا دليل على أن الأرض تدور، وعلل ذلك بأن يوم القيامة يقين ليس فيه شيء من الحسبان، وهذا من جهله وعدم معرفته؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج: ١، ٢]. هذا من يراهم على خلاف الواقع، فالأمر إذا ذهل الإنسان ولو كان أمامه شيء متيقن فإنه تضيع حواسه وإدراكاته.

المهم أن قوله ﷺ: «يوم لا ظلّ إلاّ ظله» أي إلا الظل الذي يخلقه الله عز وجل، يُظل به من شاء من عباده، وهذا هو الشاهد.

قوله: «ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» فأنت - يا أخي - إذا ذكرت الله

فاذكر ربك خالي القلب، لا تُفكر في شيء، إن فكّرت في شيء لم يحصل لك البكاء من خشية الله أو الشوق إليه؛ لأنه لا يمكن أن يبكي الإنسان وقلبه مشغول بشيء آخر، كيف تُكنُّ شوقًا إلى الله وخوفًا منه، وقلبك مشغول بغيره، ولهذا قال: «ذكر الله خاليًا» يعني خال القلب مما سوى الله عز وجل، خال الجسم أيضا ليس عنده أحد حتى لا يكون بكاؤه رياء وسمعة، فهو مخلص حاضر القلب، فهذا أيضًا ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله، أسأل الله أن يظلني والمسلمين في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله.

وعن عبد الله بن الشخير ﷺ قال: «أتيتُ رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجَل من البكاء»[1] .

حديث عبد الله بن الشخير ﷺ أنه أتى النّبيّ ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء.

المرجل: القِدْر يغلي على النار وله صوت معروف، وأزيز صدر النّبيّ ﷺ كان من خشية الله بلا شك، فهذا بكاء من خشية الله.



(١) حديث صحيح رواه أبو داود (٩٠٤) والترمذي في الشمائل بإسناد صحيح، وصححه الالباني في الشمائل (٢٦٧).

صفة سواك رسول الله ﷺ

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من النوم يشوص فاه بالسواك»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كنّا نعد لرسول الله ﷺ سواكه وطهوره فيبعثه الله ما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك، ويتوضّأ، ويُصلي»[٢].

وعن شريح بن هانئ قال: قلتُ لعائشة رضي الله عنها: بأي شيء كان يبدأ النّبيّ ﷺ إذا دخل بيته، قالت: «بالسواك»[٣].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «دخلتُ على النّبيّ ﷺ، وطرف السواك على لسانه»[٤].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النّبيّ ﷺ قال: **«السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»**[٥].

السواك هو: التسوُّك وهو دلك الأسنان، واللِّثة واللسان بعود الأراك، وهذا السواك المعروف هو عود الأراك، ويحصل الفضل بعود الأراك أو بغيره من كل عود يشابهه، والصحيح أنه يحصل أيضًا بالخرقة أو بالإصبع، لكن العود أفضل، وقد ذكر النّبيّ ﷺ أن في السواك فائدتين عظيمتين كما في حديث عائشة رضي الله عنها أنّ النّبيّ ﷺ قال: **«السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»**.

الفائدة الأولى: مطهرة للفم، يعني: يطهر الفم من الأوساخ والأنتان، وغير ذلك مما يضر، وقوله: للفم يشمل كل الفم، الأسنان واللثة واللسان، كما في حديث أبي موسى أنه دخل على النّبيّ ﷺ وطرف السواك على لسانه.

(١) رواه البخاري (٢٤٥) ومسلم (٢٥٥). والشوص: الدلك.
(٢) رواه مسلم (٧٤٦).
(٣) رواه مسلم (٢٥٣).
(٤) رواه البخاري (٢٤٤) ومسلم (٢٥٤) وهذا لفظ مسلم.
(٥) رواه النسائي وابن خزيمة في صحيحه بأسانيد صحيحة. الإرواء (٦٦).

الفائدة الثانية: مرضاة للرب أي أنه من أسباب رضا الله عن العبد أنه يتسوك.

وللسواك مواضع يتأكد فيها، وإلاّ فهو مسنون كل وقت، لكن يتأكد في مواضع معينة منها:

أولاً - إذا قام من النوم، فإنه يُسنُّ له أن يستاك لحديث حذيفة ﷺ أن النّبيّ ﷺ كان إذا قام من الليل يشوص فاه بالسّواك، يعني: يتسوك، وكذا يؤيده حديث عائشة ﷺ أنهم كانوا يعدون له سواكه ووضوءه، فإذا قام تسوّك وتوضّأ وصلّى ما شاء الله، ويسنّ عند القيام من النوم بالليل أو بالنهار؛ لأن الفم يتغيّر؛ فيُسنّ أن يتسوّك.

ثانياً - كذلك يُسنّ إذا دخل الإنسان بيته أول ما يدخل يتسوّك؛ لأن عائشة سُئلت: أي شيء يبدأ به الرسول ﷺ إذا دخل بيته قالت: السواك.

ثالثاً - يتسوّك عند الصلاة، ذهب ليصلي فريضة أو نافلة، صلاة ذات ركوع وسجود، أو صلاة جنازة فإنه يُسنُّ أن يتسوّك؛ لأن النّبيّ ﷺ قال: «لولا أن أشقّ على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» (١).

رابعاً - يُسنُّ السواك أيضاً بتأكد عند الوضوء، ومحله عند المضمضة أو قبل، أو بعد، لكنه عند الوضوء كما جاء ذلك عن النّبيّ ﷺ (٢).

وألحق العلماء - رحمهم الله - ما إذا تغيّر فمه بأكل أو شرب لبن أو نحوه مما له دسم، فإنه يسن أن يتسوّك؛ لأنه يُطهر الفم، وعلى كل حال فالسواك سُنّة ويتأكد في مواضع، ولكنه من حيث السُّنيَّة مشروع في كل وقت حتى للصائم بعد الزوال، فإنه كغيره يُسنُّ له أن يتسوّك، وأما من كره ذلك من أهل العلم فقوله لا دليل عليه، والصحيح أن الصائم يتسوّك أول النهار وآخر النهار، والله الموفق.

---

(١) رواه البخاري (٨٧٧)، ومسلم (٤٥٢).
(٢) رواه مسلم (٧٤٦).

صفة عبادة الرسول ﷺ

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النّبيّ ﷺ يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه، فقلت له: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» (١).

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩ ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقد سبق الكلام على هذه الآية، ثم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ ﴾ [السجدة: ١٦]، هذا في سياق قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥ ﴾

[السجدة: ١٥].

وصفهم الله عز وجل بهذه الأوصاف الجليلة: إذا ذكروا بآيات الله خروا سجّداً، أي: خروا سجداً فيما يتطلب السجود فلا يستكبرون على وضع جباههم وأنوفهم على الأرض، بل يتذللون لله، فإذا أُمروا بالسجود سجدوا، ويحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أن المراد بذلك كمال التذلل لله بالعبادة، سواء كان سجدة أو غيرها.

﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: سبحوا الله سبحانه وتعالى، وتسبيح الله يعني: تنزيهه عن كل نقص وعيب، هذا هو التسبيح، سبحت الله يعني نزهته وبرأته من كل نقص وعيب، يعني أنه جلّ وعلا كامل الصفات، إذ ينتفي عنه جميع النقائص.

وقوله: ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ الباء للمصاحبة ، أي سبحوا الله تسبيحًا مقرونًا بالحمد مصاحبًا له، والحمد هو: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، هذا

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧) ومسلم (٢٨٢٠).

معنى الحمد، حمدت الله يعني: اعتقدت له أوصافًا كاملة، وذكرت ذلك بلساني، فإن كرر المدح صار ثناء.

كما يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «قال الله عز وجل: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فإذا قال: الحمد لله رب العالمين، قال: حمدني عبدي، وإذا قال الرحمن الرحيم، قال: أثنى عليّ عبدي» (١) .

﴿ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يعني لا يستكبرون من عبادة الله، إذا أمرهم الله امتثلوا الأمر بذل وخضوع، وشعور بالعبودية، وشعور بكمال الألوهية والربوبية لله عز وجل، ﴿ تَتَجَافَى ﴾ أي: تتباعد جنوبهم، عن المضاجع، أي: عن المراقد، فهم يحيون الليل بالصلاة وذكر الله عز وجل، وإذا أتموا صلاتهم، ختموا ذلك بالإستغفار كما قال تعالى: ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات: ١٨].

قال بعض السلف: هذا يدل على كمال معرفتهم بأنفسهم، يقومون الليل ثم يستغفرون في آخر الليل خوفًا من أن يكونوا قصروا مع الله عز وجل.

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ يدعون الله دعاء المسألة، ودعاء العبادة، دعاء المسألة أن يقولوا: يا ربنا اغفر لنا، يا ربنا اغْنِنَا، يا ربنا يسر أمورنا، يا ربنا اشرح صدورنا، هذا دعاء المسألة أما دعاء العبادة أن يُقيموا الصلاة ويُؤتوا الزكاة ويصوموا رمضان ويحجوا البيت، ويبروا الوالدين، ويصلوا الأرحام، إلى غير ذلك من العبادات.

وكانت العبادة دعاء؛ لأنك لو سألت العبد: لأي شيء تعبد الله؟ لقال: لنيل رضوان الله عز وجل والجنة، فهو داعٍ بلسان الحال، وقد يصحبه دعاء بلسان المقال، فالصلاة مثلاً فيها دعاء، يدعو الإنسان فيها دعاء ركن في الصلاة، إذا لم تدع في الصلاة بهذا الدعاء بطلت صلاتك، في أي موضع؟!، في الفاتحة ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة: ٦]، هذا دعاء ركن في العبادة، لو تركته ما

(١) رواه مسلم (٣٩٥) وأبو داود (٩٩٩).

صحّت صلاتك؛ فالصلاة دعاء بلسان الحال ودعاء بلسان المقال؛ ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يعبدونه ويسألونه ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفًا من عقابه وطمعًا في ثوابه؛ لأنهم إن فعلوا المحرم عوقبوا، وإن تركوا المحرم وقاموا بالواجب أثيبوا، فهم خائفون طامعون، وقيل: خوفًا من ذنوبهم وطمعًا في فضل الله، فالإنسان إذا نظر إلى نفسه وإلى ذنوبه خاف؛ لأنها ذنوب أثقل من الجبال، وأكثر من الرمال، نسأل الله تعالى أن يعاملنا بعفوه، وإن نظر إلى رحمة الله وسِعَة عفوه، وأن العفو أحب إليه من العقوبة وأنه يفرح بتوبة عبده المؤمن، أشد من أي فرح في الدنيا كلها، قال النبيّ ﷺ: «لله أشد فرحًا»(١)، اللام هذه للابتداء، وهي للتوكيد «بتوبة عبده من أحدكم كان معه راحلته عليها طعامه وشرابه فأضلت» ضاعت منه «في أرض فلاة» ما حوله أحد، «فضاعت، طلبها فلم يجدها، فيئس من الحياة، فاضطجع تحت شجرة ينتظر الموت» ما بقي إلا أن يموت «فإذا بخطام الناقة متعلقًا بالشجرة» خطام يعني: زمام «فقام وأخذه وقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك» هو يريد أن يقول اللهم أنت ربي وأنا عبدك، لكن من شدة الفرح قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، «فالله جلّ وعلا أشد فرحًا بتوبة عبده من هذا الرجل براحلته».

إذًا نحن نطمع في فضل الله، ذنوبنا كثيرة عظيمة لكن فضل الله أوسع، ورحمته أوسع، إذا كانت الصلوات الخمس تكفر ما بينها إذا لم ترتكب الكبائر، فهذا فضل عظيم، فعلى كل حال، هم يدعون الله خوفًا وطمعًا، خوفًا من عذابه، وطمعًا في ثوابه، خوفًا من ذنوبهم، وطمعًا في فضله، كل الأوجه صحيحة.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ من: للتبعيض، يعني يُنفقون بعض ما رزقناهم؛ لأنه لا ينبغي للإنسان أن يتصدق بكل ماله؛ ولهذا لما قال أبو لبابة: يا رسول الله، إني أتصدق بكل مالي، قال: «يكفيك الثلث، تصدق بالثلث» حتّى إن العلماء قالوا:

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٩) ومسلم (٢١٠٤).

إذا نذر الصدقة بماله كله أجزأه ثلثه؛ لأن هذا هو المذكور فعلى هذا تكون «من» للتبعيض، يعني: ينفقون شيئًا مما رزقناهم، وقيل: إنّ «من» للبيان، لبيان الجنس، فيُنفقون حسب الحال، قد يُنفقون قليلاً أو كثيراً، الثلث، أو النصف، أو الكل، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه عندما حثَّ النبيّ ﷺ على الصدقة، فتصدّق أبو بكر بكل ماله، وتصدّق عمر بشَطْر ماله (بالنصف) قال: الآن أسبق أبا بكر؛ لأن الصحابة يتسابقون، ليس حسداً، ولكن تسابق في الخيرات، فلما جاء بنصف ماله، وإذا أبو بكر قد تصدق بكل ماله، قال النّبيّ ﷺ لأبي بكر: «**ماذا تركت لأهلك؟**» قال: تركتُ لهم الله ورسوله، قال لعمر: ماذا تركت؟! قال: تركت النصف. ثم قال عمر: والله لا أسابقه على شيء أبداً بعد اليوم؛ لأن أبا بكر رضي الله عنه له سوابق، وفضائل لا يلحقه فيها عمر، ولا عثمان، ولا عليّ، ولا من دونهم، المهم أنهم يُنفقون مما رزقهم الله، فما هو الجزاء وما هي الثمرة؟!.

﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧] اللهم اجعلنا منهم يا رب.

لا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين، وذلك في جنات النّعيم، فيها ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أتظنون أن قول الله تعالى: ﴿ **فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ** ﴿٦٨﴾ ﴾ [الرحمن: ٦٨] أتظنون أن النخل والرمان والفاكهة كالذي في الدنيا لا والله، ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلاّ الأسماء، اسم الرمان، لكن لا يمكن أن يخطر على بالك، اسم النخل لكن لا يخطر على بالك، اسم الفاكهة لكن لم يخطر على بالك، ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾.

وذكر آيات ثلاثٌ تكلمنا عن اثنتين منها، وهذه هي الثالثة، وهي قوله تعالى: ﴿ **كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** ﴿١٧﴾ **وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨] هذه من أوصاف المتقين الذين أعدّ الله لهم الجنات والعيون، من

أوصافهم أنهم كانوا لا يهجعون من الليل إلا قليلاً؛ وذلك أنهم يشتغلون بالقيام والتهجد وقراءة القرآن وغير ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل: ٢٠] فكانوا يقومون من الليل، ثم إذا فرغوا من القيام رأوا أنهم مقصرون، فجعلوا يستغفرون الله عز وجل ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾، وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧] أي في آخر الليل.

ثم ذكر الأحاديث في ذلك، ومنها حديث عائشة رضي الله عنها أن النَّبيَّ ﷺ كان يقوم من الليل ويُطيل القيام حتى تنفطر قدماه؛ لأن الدم ينزل فيها، فتتفطر، فقيل له في ذلك: كيف تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً».

فجعل النَّبيّ ﷺ هذه الأعمال من شكر نعمة الله سبحانه وتعالى. فدلَّ ذلك؛ على أن الشكر هو القيام بطاعة المنعم وليس الإنسان إذا قال: أشكر الله، هذا شكر باللسان ولكن لا يكفي، ولابد من الشكر بالجوارح والقيام بطاعة الله عز وجل. وفي هذا دليل على تحمل النَّبيّ ﷺ للعبادة ومحبته لها؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يفعل ذلك إلا لمحبة شديدة، ولهذا قال: **«جُعِلَت قُرَّةُ عيني في الصلاة»**(١).

فالصلاة أحب الأعمال إلى الرسول ﷺ، وقد قام معه من الليل من أصحابه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قام معه ذات ليلة فأطال النَّبيّ ﷺ، قال عبد الله: حتى هممت بأمر سوء، قالوا: بم هممت يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه، وهو شاب أقل سناً من الرسول ﷺ، ومع ذلك عجز أن يكون كالنَّبيّ ﷺ(٢).

---

(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).
(٢) رواه البخاري (١١٣٥) ومسلم (٧٧٣).

ولكن لو قال قائل: هل الأفضل في صلاة الليل أن أطيل القيام، أو أن أطيل السجود والركوع؟

قلنا: انظر ما هو أصلح لقلبك، قد يكون الإنسان في حال السجود أخشع وأحضر قلبًا،و قد يكون في حال القيام يقرأ ويتدبر القرآن، ويحصل له لطائف من كتاب الله عز وجل ما لا يحصل له في حال السجود، ولكن الأفضل أن يجعل صلاته متناسبة، إذا أطال القيام أطال الركوع أو السجود، وإذا قصر القيام قصر الركوع والسجود، حتى تكون متناسبة كصلاة النبيّ ﷺ، والله أعلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما كان النّبيّ ﷺ يُصلي من الليل مثنى مثنى، ويوتر بركعة» [1] .

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يُفطر الشهر حتى نظن أنه لا يصوم منه، ويصوم حتى نظن أنه لا يفطر منه شيئًا، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليًا إلا رأيته، ولا نائمًا إلا رأيته» [2] .

ففيه دليل على أن صلاة الليل تكون مثنى مثنى لا يمكن أن تُصلى أربعًا، بل لابد من اثنين ويُسلم، اثنين ويُسلم، اثنين ويُسلم، قال الإمام أحمد - رحمه الله - ، فإن قام إلى الثالثة ناسيًا فهو كما لو قام إلى ثالثة في الفجر، يعني: فيجب عليه أن يرجع، فإن لم يفعل بطلت صلاته، يعني: لو كنت تصلي بالليل على ركعتين ركعتين، فقمت إلى الثالثة ناسيًا، وجب عليك أن ترجع حتى لو بدأت في قراءة الفاتحة، يجب أن ترجع فإن لم تفعل بطلت صلاتك؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الليل مثنى مثنى» يعني على ثنتين ثنتين، إلا أنه استثنى من ذلك الوتر.

إذا أوتر بثلاث أو بخمس أو سبع أو تسع، فإذا أوتر بثلاث فإن شاء سلّم من

---

(١) رواه البخاري (١١٣٧) ومسلم (٧٤٩).

(٢) رواه البخاري (١١٤١) .

الركعتين الأولين وأتى بالثالثة وحدها، وإن شاء جمع الثلاثة جميعًا بسلام واحد، وإن أوتر بخمس سردها كلها بسلام واحد وتشهد واحد، وإن أوتر بسبع كذلك، كلها بسلام واحد، وإن أوتر بتسع كذلك يسردها بسلام واحد، إلا أنه في الثامنة يجلس ويتشهد ولا يُسلم، ثم يأتي بالتاسعة ويسلم، وإن أوتر بإحدى عشرة، سلم من كل ركعتين، كما فعل النبيّ ﷺ.

وفي حديث ابن عمر الأول والثاني دليل على أن الوتر لا يكون بعد طلوع الفجر، إذا طلع الفجر انتهى وقت الوتر، فإن غلبه النوم ولم يوتر قبل طلوع الفجر صلى من النهار، ولكن يصلي شفعًا، فإن كان من عادته أن يوتر بثلاث صلّى أربعًا، وإن كان عادته أن يصلي بخمسًا صلى ستًا.. وهلم جرا.

فهذه الأحاديث في فضل صلاة الليل وفي كيفية صلاة الليل، وأنها مثنى مثنى.

أما حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ففيه دليل على أن رسول الله ﷺ كان أحيانًا يديم العمل الصالح، حتى لا تراه إلا على هذا العمل، فكان لا تشاء تراه قائمًا إلا رأيته، ولا نائمًا إلا رأيته، وكذلك في الصوم، لا تشاء تراه صائمًا إلا رأيته، ولا مُفطرًا إلا رأيته، يعني أنه عليه الصلاة والسلام يتبع ما هو أصلح وأنفع ، فأحيانًا يديم الصوم، وأحيانًا يُديم الفطر، وأحيانًا القيام، وأحيانًا يُديم النوم؛ لأنه عليه الصلاة والسلام يتبع ما هو الأفضل والأرضى لله ما هو الأريح لبدنه؛ لأن الإنسان له حق على نفسه كما قال ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص: «إن لنفسك عليك حقًا».

وعن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان يصلي إحدى عشرة ركعة – تعني في الليل – يسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه، ويركع ركعتين قبل صلاة الفجر، ثم يضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المنادي للصلاة» [1] .

---

(١) رواه البخاري (٩٩٤).

وعنها رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة: يُصلي أربعًا فلا تسال عن حُسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعة فلا تسال عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا، فقلت: يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟ فقال: «يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي» (١) .

وعنها رضي الله عنها : «أن النّبيّ ﷺ كان ينام أول الليل، ويقوم آخره فيصلي» (٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: صَلّيْتُ مع النبيّ ﷺ ليلة، فلم يزل قائمًا حتى هممتُ بأمر سوء، قيل: ما هممت؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه (٣) .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: صَلّيتُ مع النّبيّ ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى فقلت: يُصلي بها في ركعة، فمضى فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوّذ، ثم ركع، فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد، ثم قام طويلاً قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريبًا من قيامه. (٤) .

وهذه الأحاديث في بيان صلاة النّبي ﷺ في الليل، منها:

حديث عائشة الأول أن النّبيّ ﷺ : «كان يصلي من الليل إحدى عشرة ركعة».

وقد بيّن ذلك في أحاديث أخرى، أنه يُسلم من ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعة.

يعني: يصلي إحدى عشرة ركعة، يُسلم من كل اثنتين ويوتر بواحدة، ثم

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري (١١٤٧) مسلم (٧٣٨).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه مسلم (٧٧٢).

كان ﷺ يُصلي ركعتين قبل الغداة، يعني: إذا أذن الفجر صلى ركعتين، وكان يُخفف هاتين الركعتين حتى تقول عائشة أقرأ بأم القرآن؟! لشدة تخفيفه لهما ثم يضطجع على جنبه الأيمن، حتى يأتيه المؤذن يؤذنه بالصلاة ﷺ ففي هذا دليل على أن قيام الليل إحدى عشرة ركعة يوتر بواحدة، ودليل على أنه ينبغي أن يُصلي الإنسان الراتبة في بيته أفضل من المسجد، وفيها أيضًا أن الإمام لا يخرج من بيته إلا عند الإقامة، يبقى في بيته حتى يأتي وقت الإقامة، فيخرج إلى المسجد ويصلي، هذا هو الأفضل من أن يتقدم الإمام ويُصلي بالمسجد أما غير الإمام فينتظر الإمام، والإمام ينتظره غيره؛ فلذلك كان الأفضل في حقه أن يتأخر إلى قرب إمامة الصلاة، إن لم يكن لهذا سبب أو في تقدمه مصلحة مثل أن يكون تقدمه يشجع المصلين فيتقدمون، ولو تأخر لكسلوا، فهذا أيضًا للمصلحة.

وفي حديثها الثاني: أن النّبيّ ﷺ كان لا يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة. لأنها سُئلت: كيف كانت صلاة النّبيّ ﷺ في رمضان؟ قالت: «كان لا يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يُصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعة فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا».

هذه أربع وأربع وثلاث، إحدى عشرة، هذا هو السُّنَّة وهو الأفضل ألا يزيد في صلاة الليل على إحدى عشرة ركعة كما صح به الحديث، وقولها ﷺ: «يُصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي..» يكون فيه دليل على أنه إذا صلى الأربع بسلامين استراح قليلاً لقولها: «ثم يصلي»، وهذا للترتيب في المهلة، ثم يصلي الأربع على ركعتين، ثم يسلم.

وأنا أُشير في هذه المسألة إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يتعجل في فهم النصوص، بل يجمع شواردها حتى يضم بعضها إلى بعض؛ ليتبين له الأمر،

فبعض الإخوان الذين بدأوا يتعلمون ولا سيما علم الحديث، صاروا يصلون بالناس في رمضان أربع ركعات جميعًا، وهذا غلط على السُّنة، وفهم خاطئ؛ لأن النّبيّ ﷺ سُئل عن صلاة الليل، فقال: «مثنى مثنى» ولا يمكن أن يصلي أربعًا في الليل، ممكن أن يصلي خمسًا جميعًا وسبعًا جميعًا، وتسعًا جميعًا، إلا أنه يتشهد في الثامنة كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

أما حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه صلّى مع النّبيّ ﷺ ذات ليلة - لأن النّبيّ ﷺ بابه مفتوح، بيته بيت للأمة، للصحابة، يأتي الواحد منهم يحب أن يصلي مع النّبيّ ﷺ، فلا يقول له لا تصلي معي، صلي في بيتك، لا بل يشرح له صدره، ويدخل البيت ويصلي معه - وكان ابن مسعود ﷺ من الذين يخدمون الرسول ﷺ، صاحب السواك، ينظف سواك الرسول ﷺ،وصاحب الوساد - وسادة - وصاحب النعل ﷺ فكان يدخل على الرسول ﷺ ويُصلي معه، فدخل فصلّى معه ذات ليلة، فلما دخل في الصلاة أطال النّبيّ ﷺ القيام، يقول: «حتى هممت بأمر سوء» قيل: بما هممت يا أبا عبد الرحمن؟ قال: «هممت أن أجلس وأدعه، وهو شاب والرسول ﷺ أسن منه.

ومع ذلك كان ﷺ يقف ويطيل حتى يعجز الشاب عن قيامه عليه الصلاة والسلام، وقد غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، لكنه يصلي ﷺ شكرًا لله عز وجل، كما قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا».

والمرة الثانية صلّى معه حذيفة بن اليمان ﷺ ذات ليلة فبدأ بسورة البقرة، فقلت: يركع عند المئة.. لكنه مضى، فقلت: يركع بها، لكنه أتمها، ثم بدأ بسورة النساء فأتمها، ثم بدأ بسورة آل عمران فأتمها، يُرتل عليه الصلاة والسلام، يُرتل القرآن وهذه السور الثلاثة تمثل خمسة أجزاء وربع، بالترتيل كم تستغرق من وقت؟!، والنّبيّ ﷺ واقف ولايمر بآية رحمة إلا سأل ولا آية تسبيح إلا سبح، ولا آية وعيد إلا تعوذ، يجمع بين القراءة والذكر والدعاء ﷺ، ثم ركع، فكيف كان ركوعه؟!.

كان ركوعه ﷺ نحواً من قيامه، أطال الركوع، ثم رفع قائلاً: «سمع الله لمن حمده» ثم كان قيامه نحواً من ركوعه، ثم سجد، فكان سجوده نحواً من قيامه، وهكذا صلاته كانت متناسبة وإذا أطال في القراءة أطال في السجود والركوع، يقول في الركوع: «سبحان ربي العظيم»، ويقول في السجود: «سبحان ربي الأعلى»، ويقول أيضاً إضافة إلى ذلك: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» (١) ، ويقول أيضاً: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح» (٢).

فالصلاة روضة من رياض العبادات، فيها من كل زوج بهيج، قرآن وذكر ودعاء وتسبيح وتكبير وتعوذ، إلى هذا كانت هي أفضل العبادات البدنية أفضل من الصيام، وأفضل من الزكاة وأفضل من الحج، وأفضل من كل العبادات إلاّ التوحيد، أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله؛ لأن هذا هو مفتاح الإسلام، فالحاصل أن هذه صفة صلاة النّبيّ ﷺ من الليل؛ فاحرص عليها أخي المسلم، نسأل الله أن يعينني وإياك على اتباعه ظاهراً وباطناً وأن يتوفانا على ملته وأن يحشرنا في زمرته، ويُدخلنا معه جنات النعيم.

وعنها ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة (٣) .

ويدل ذلك على أمور:

الأمر الأول: أن الإنسان إذا فاته قيام الليل فإنه يقضيه من النهار، ولكنه لا يوتر؛ لأن الوتر تختم به صلاة الليل وقد انتهت، كما دلّ على ذلك حديث عائشة ﵂ أن النّبيّ ﷺ إذا غلبه وجع أو غيره - يعني كالنوم - فلم يُصلّ في الليل، صلى في النهار ثنتى عشرة ركعة؛ لأنه عليه الصلاة والسلام، كان يواظب في أكثر حياته على إحدى عشرة ركعة.

(١) رواه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).
(٢) رواه مسلم (٤٨٧).
(٣) رواه مسلم (٧٤٦).

فكان يقضي ما هو الأكمل والأكثر، يقضي ثنتى عشرة ركعة، وعلى هذا فإذا كان من عادة الإنسان أن يوتر بثلاث، ولم يقم، فإنه يقضي بالنهار أربعًا، ولا يقضي ثلاثًا، وإذا كان من عادته أن يوتر بخمس يقضي ستًا وهلم جرا.

ولكن متى يقضي؟ يقضي فيما بين طلوع الشمس وارتفاعها إلى زوال الشمس، كما يدل على ذلك حديث عمر رضي الله عنه فيمن فاته ورده أو حزبه في الليل، أو شيء منه أن يقضيه في النهار بالضحى، فيقضي ذلك بالضحى، فإن نسيَ ولم يتذكر إلا بعد الظهر قضاه بعد الظهر؛ لعموم قول النبيّ ﷺ : **«من نام عن صلاة أو نسيها فليُصلّها إذا ذكرها»** (١).

(١) سبق تخريجه.

ما جاء في صلاة التطوع

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن النّبيّ ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر»(١).

وعن أبي عبد الله بلال بن رباح رضي الله عنه مؤذن رسول الله ﷺ أنه أتى رسول الله ﷺ ليؤذنه بصلاة الغداة، فشغلت عائشة بلالاً بأمر سألته عنه حتى أصبح جداً، فقام بلال فآذنه بالصلاة، وتابع آذانه، فلم يخرج رسول الله ﷺ فلما خرج صلى بالناس، فأخبره أن عائشة شغلته بأمر سألته عنه حتى أصبح جداً، وأنه أبطأ عليه بالخروج، فقال - يعني النّبي ﷺ - : «إني كنت ركعت ركعتي الفجر» فقال: يا رسول الله إنك أصبحت جداً؟ فقال: «لو أصبحت أكثر مما أصبحت لركعتها، وأحسنتها، وأجملتها»(٢).

تمتاز سنة الفجر وهي ركعتان قبل الصلاة بأمور:

[١] أنه يُسن تخفيفهما، فلو أطالهما الإنسان لكان مخالفًا للسُّنّة، بل يخفف حتى كانت عائشة تقول: «إنه يخفف فيهما حتى أقول أقرأ بأم القرآن؟!» من شدة التخفيف.

[٢] أنه يسن فيهما قراءة معينة: إما ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون] في الركعة الأولى، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] في الثانية، وإما: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] يعني مرة هذا، ومرة هذا.

[٣] ومنها أن النّبيّ ﷺ لم يكن على شيء من النوافل - يعني: رواتب الصلوات - أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر، يتعاهدهما ﷺ.

---

(١) البخاري (١١٦٩) ومسلم (٧٢٤).

(٢) رواه أبو داود بإسناد حسن (١٢٥٧) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١١٢٠).

[٤] أن النّبي ﷺ أخبر «أنهما خير من الدنيا وما فيها» و«أحب إليه من الدنيا وما فيها».

[٥] أن النّبيّ ﷺ لم يكن يدعهما حضراً ولا سفراً.

كل هذا تتميز به سنة الفجر؛ فينبغي للإنسان أن يحافظ عليها وأن يحرص عليها حضراً وسفراً، فإذا فاتته قبل الصلاة فليصلها بعدها إما في نفس الوقت وإما بعد ارتفاع الشمس قيد رمح.

ذكرت عائشة رضي الله عنها أن النّبيّ ﷺ كان لا يدع أربعًا قبل الظهر، لكنها بتسليمتين؛ لأن الظهر راتبتها ست ركعات: أربع قبلها واثنتان بعدها؛ فينبغي لنا أن نحرص على ما كان النّبيّ ﷺ يحرص عليه، وأن نقتدي بسنّته ﷺ ما استطعنا، فإن الله يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ١].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النّبيّ ﷺ إذا صلّى ركعتي الفجر، اضطجع على شقه الأيمن» [١].

وعنها قالت: «كان النّبيّ ﷺ يُصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة يسلم بين كل ركعتين، ويوتر بواحدة، فإذا سكت المؤذن من صلاة الفجر، وتبين له الفجر، وجاء المؤذن، قام فركع ركعتين خفيفتين، ثم اضطجع على شقه الأيمن، هكذا حتى يؤتيه المؤذن للإقامة» [٢].

قولها: «يُسلم بين كل ركعتين» هكذا هو في مسلم ومعناه: بعد كل ركعتين.

سبق لنا أن النبيّ ﷺ كان يُصلي ركعتي الفجر، وسبق أن هاتين الركعتين تتميزان عن بقية الرواتب بمميزات سبق ذكرها.

---

(١) رواه البخاري (١١٦٠).
(٢) رواه مسلم (٧٣٦).

ومن مميزاتها: أنه إذا صلّى هاتين الركعتين اضطجع على شقه الأيمن كما كان النبيّ ﷺ يفعل، ثبت ذلك عن عائشة ﵂ في الصحيحين: «أنه كان إذا صلّى سُنّة الفجر اضطجع بعدها على الجنب الأيمن»، وفي حديث عائشة الذي رواه مسلم: «أنه كان ﷺ يصلي إحدى عشرة ركعة يُسلم بين كل ركعتين».

وفي هذا دليل على وَهْم من تَوَهَّم أنه إذا صلّى إحدى عشرة ركعة يُصلي أربعًا أربعًا ثم ثلاثًا بناء على حديثها ﵂ أنها قالت: «كان النّبيّ ﷺ لا يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة، يُصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم ثلاثًا»[1] ، فظن بعض الناس أنه يصلي أربعاً جميعاً، ثم أربعًا جميعًا، ثم ثلاثًا، وهذا وهم؛ فقد أخذوا بظاهر الحديث، فيحمل هذا على أنه يُصلي أربعًا على ركعتين ركعتين، ثم يستريح، ثم يصلي أربعًا على ركعتين ركعتين، ثم يستريح، ثم يصلي ثلاثًا، هكذا يجب أن يُحمَل؛ لأن الراوي عن النّبيّ ﷺ في ذلك واحد وهي عائشة، والفعل واحد، فيجب حمل بعضها على بعض لتتفق السُّنّة، لا يقال: إنه يفعل هذا مرة وهذا مرة؛ لأن كلمة «كان» تدل على دوام الفعل غالبًا.

وعنها قالت: «كان النّبيّ ﷺ يُصلي في بيتي قبل الظهر أربعًا، ثم يخرج فيُصلي بالناس، ثم يدخل فيُصلي ركعتين، وكان يُصلي بالناس المغرب، ثم يدخل بيتي فيُصلي ركعتين، ويُصلي بالناس العشاء، ويدخل بيتي فيُصلي ركعتين»[2].

وعن عبد الله بن السائب ﵁ أن رسول الله ﷺ كان يصلي أربعًا بعد أن تزول الشمس قبل الظهر، وقال: «**إنها ساعة تُفتح فيها أبواب السماء، فأُحب أن يصعد لي فيها عمل صالح**»[3].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه مسلم (٧٣٠).
(٣) رواه الترمذي (٤٧٨) وقال: حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٩٦).

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن النَّبيّ ﷺ كان إذا لم يصل أربعًا قبل الظهر، صلاهن بعدها» (١).

أحاديث متعددة كلها تدل على أن الظهر له ست ركعات: أربع قبلها بسلامين، وركعتان بعدها، وأنه إذا نسي الإنسان أو فاته الأربع القبلية فإنه يصليها بعد الظهر؛ لأن الرواتب تُقْضَى كما تُقضى الفرائض، ولكن قد ورد في حديث أخرجه ابن ماجه أنه يبدأ أولاً بالسُّنة البعدية، ثم بالسُّنة القبلية، فمثلاً جئتَ لصلاة الظهر والإمام يُصلي ولم تتمكن من صلاة السُّنَّة القبلية، نقول: صلِّ وبعد الإنتهاء من الصلاة، صلي الركعتين اللتين بعد الصلاة، ثم صلِّ ركعتين وركعتين التي قبل الصلاة، هذه هي السُّنّة.

وفي هذه الأحاديث دليل على أن الإنسان ينبغي له أن يُحافظ على الرواتب لقول عائشة رضي الله عنها: «كان النّبيّ ﷺ لا يدع أربعًا قبل الظهر - يعني لا يتركها - إلا أنه في السفر لا يُصلي سنة الظهر القبلية ولا البعدية؛ لأن النّبيّ ﷺ لم يكن يصلي راتبة الظهر إذا كان مسافراً.

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن النّبيّ ﷺ كان لا يدع أربعًا قبل الظهر» (٢).

فأما العصر: فمن السنن قبلها أن يصلي الإنسان أربع ركعات استئناسًا بهذا الحديث: «رحم الله امرأ صلى قبل العصر أربعًا»، وهذه الجملة دعائية، يعني: أن النّبيّ ﷺ دعا لمن صلى قبل العصر أربعًا، وهذا الحديث وإن كان فيه مقال عند أهل العلم، لكنه يرجى أن ينال الإنسان الأجر إذا صلّى هذه الأربع.

وأما المغرب: فلها سُنَّة قبلها وبعدها، لكن السُّنَّة التي قبلها ليست راتبة، والتي بعدها راتبة، السُّنّة التي قبلها فيها الحديث أن النّبيّ ﷺ قال: «صلوا قبل المغرب» ثلاثًا، وقال في الثالثة: «لمن شاء» لئلا تُتَّخَذ سُنّة راتبة، فإذا أذن المغرب فصلِّ ركعتين سنّة، لكن ليست كالتي بعدها راتبة مؤكدة، بل هي سُنّة إن تركها

(١) رواه الترمذي (٤٢٦) وقال: حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٥٠).
(٢) رواه البخاري (١١٨٢).

الإنسان فلا حرج، وإن فعلها فلا حرج؛ ولهذا قال أنس: «كان النّبيّ ﷺ يرانا نُصلي فلم يأمرنا ولم ينهنا»[١].

وأما العشاء: فلها سنة قبلها وبعدها، لكن السُّنّة قبلها ليست راتبة، بل هي داخلة في عموم قول النّبيّ ﷺ: «بين كل أذانين صلاة»[٢] أما بعدها فيسن ركعتان.

فتبين بهذا أن الصلوات الخمس: الفجر له سُنّة قبله، وليس له سُنّة بعدها، والظهر لها سُنّة قبلها وبعدها، والعصر ليس له سُنة لا قبلها ولا بعدها - يعني راتبة - لكن لها سُنة غير راتبة قبلها، وأما بعدها فهو وقت نهي، والمغرب لها سُنة بعدها - أي راتبة - وقبلها غير راتبة والعشاء لها سنة بعدها - يعني راتبة - وقبلها ليست براتبة، هذه هي السنن التابعة للمكتوبات.

ومن فوائدها: أنه إذا حصل نقص بالفرائض فإن هذه النوافل تكملها.

وعن ابن عمر ﷺ: «أن النّبيّ ﷺ كان لا يُصلي بعد الجمعة حتى ينصرف فيصلي ركعتين في بيته»[٣].

الجمعة: صلاة مستقلة ليست هي الظهر؛ ولهذا لا يُجمَع العصر إليها، يعني إذا كان الإنسان مسافراً وهو ببلد وصلى معهم الجمعة فلا يجمع العصر إليها؛ لأنها مستقلة، والسُّنّة إنما جاءت بالجمع بين الظهر والعصر، لا بين الجمعة والعصر؛ ولأنها - أي الجمعة - تختلف عن سائر الصلوات بما يشرع قبلها وبعدها في يومها - سنة قبلها - يعني ليس لها راتبة - إذا جاء الإنسان إلى المسجد يصلي ما شاء إلى أن يحضر الإمام - من غير عدد معين، يصلي، يقرأ، حتى يأتي الإمام، سواء صلى ركعتين، أم أربعًا أم ستًا على حسب نشاطه، وأما بعدها فلها سُنّة راتبة، والسُّنّة الراتبة التي بعدها: ركعتان بالبيت؛ لقول ابن عمر

---

(١) رواه مسلم (٨٣٦).
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم (٨٨٢).

ﷺ: «كان النّبيّ ﷺ إذا صلّى الجمعة لا يصلي بعدها شيئًا حتى ينصرف إلى بيته فيُصلي ركعتين»، وفي حديث أبي هريرة أن النّبيّ ﷺ قال: **«إذا صلّى أحدكم الجمعة فليصلِّ بعدها أربعًا»** (١).

اختلف العلماء - رحمهم الله - هل سنة الجمعة أربع ركعات بسلامين أم ركعتان؟ فمنهم من قال: إنها أربع ركعات؛ لأن هذا هو الذي أمر به النّبيّ ﷺ وأما الركعتان فهما فعله، وأمره مقدم على فعله، فتكون أربع ركعات.

ومنهم من قال: هي ركعتان فقط؛ لأن هذا هو الذي ذكره ابن عمر ﷺ، وأما الأربع فليست براتبة.

ومنهم من فَصَّل فقال: «إن صلى في المسجد سُنَّة الجمعة صلى أربعًا، وإن صلّى بالبيت صلّى ركعتين» وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -.

ومنهم من قال: يجمع بين هذا وهذا، فيُصلي أربعًا بأمر النّبيّ ﷺ ويُصلي ركعتين بفعله، فتكون السُّنَّة بعد الجمعة ست ركعات.

---

(١) رواه مسلم (٨٨١).

ما جاء في صلاة الضحى

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يُصلي الضحى أربعًا، ويزيد ما شاء الله»[(١)] .

وعن أم هانئ فاختة بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت: «ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل، فلما فرغ من غسله صلّى ثماني ركعات، وذلك ضحى»[(٢)] .

صلاة الضحى هي: ركعتان أو أكثر وقتهما من ارتفاع الشمس قدر رمح إلى قبيل الزوال، وارتفاع الشمس قدر رمح يكون بمقدار ربع ساعة أو نحوها بعد طلوع الشمس فمن ثمّ يبدأ وقت صلاة الضحى إلى أن يبقى على الزوال عشر دقائق أو قريب منها. كل هذا وقت لها لكن أداؤها في آخر الوقت أفضل لقول النّبيّ ﷺ: «صلاة الأوابين حين ترمض الفصال»[(٣)] ، والفصال: أولاد النوق، وترمض يعني: تشتد عليها الرمضة، وهذا في آخر الوقت.

وهذه من الصلوات التي يُسنُّ تأخيرها، ونظيرها في الفرائض صلاة العشاء، فإن صلاة العشاء الأفضل أن تُؤخر إلى آخر وقتها إلا إذا شقّ ذلك على الناس.

وصلاة الضحى مما عهد النّبي ﷺ إلى بعض أصحابه، عهد بها إلى أبي هريرة وأبي ذر، وأبي الدرداء رضي الله عنه قال النّبيّ ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه حين أوصاه: قال: أوصاني خليلي بثلاث: «صيام ثلاثة أيام من كل شهر..»[(٤)]، ولم يعيّن وقتها من الشهر، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النّبيّ ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر لا يبالي أصامها من أول الشهر أم من أوسطه أو آخره، ولا فرق بين أن تكون

---

(١) رواه مسلم (٧٢٠).

(٢) رواه البخاري (٣٥٧) ومسلم (٣٣٦).

(٣) رواه مسلم (٧٤٨).

(٤) رواه البخاري (١١٧٨) ومسلم (٧٢١).

متوالية يعني متتابعة، أو متفرقة، كلها يحصل بها الأجر، ولكن الأفضل هذه الأيام الثلاثة أيام البيض: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر.

وأوصاه ﷺ بركعتي الضحى، ركعتان يركعهما ما بين ارتفاع الشمس قدر رمح إلى قبيل الزوال.

وأوصاه بأن يُوتِر قبل أن ينام، وإنما أوصاه بالوتر قبل أن ينام؛ لأن أبا هريرة ﷺ كان يدرس في أول الليل أحاديث رسول الله ﷺ، فلا ينام إلا متأخرًا ويخشى ألا يقوم من آخر الليل، فلهذا أوصاه أن يوتر قبل أن ينام، الشاهد من هذا «**وركعتي الضحى**».

ثم ذكر حديث أبي ذر أنه: «**يُصبح على كل سُلامَى من الناس صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس**» والسلامَى: هي الأعضاء أو العظام والمفاصل، وقد ذكر العلماء السابقون - رحمهم الله - أنه في كل إنسان ثلاثمائة وستين مفصلاً، كل مفصل يطالبك كل يوم بصدقة؛ لأن الذي أحياه عز وجل وأمده وعافاه له عليك منة وفضل، كل يوم كل عضو يُطالبك بصدقة، لكنها ليست بصدقة مال، بل هي كل ما يُقرب إلى الله من قول أو عمل أو بذل مال أو غير ذلك، فكل تسبيحة صدقة وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، فكل ما يقرب إلى الله فهو صدقة، ومثل هذا ييسّر على المرء أن يؤدي ثلاثمائة وستين صدقة كل يوم، قال: ويجزئ من ذلك يعني بدلاً عن ذلك، يجزئ ركعتان يركعهما في الضحى، هذه نعمة كبيرة لابد أن تطالب عن كل عضو من أعضائك بصدقة يكفيك أن تصلي ركعتين من الضحى.

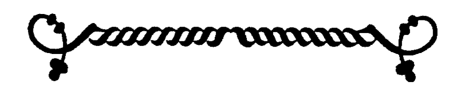
وهذا يدل على أنه ينبغي للإنسان أن يواظب عليهما أي على ركعتي الضحى حضرًا وسفرًا، ولكن هل لها عدد معين؟ نقول: إن أقلها ركعتان وأما أكثرها فما شاء الله، لو تبقى تصلي كل الضحى، فأنت على خير؛ ولهذا تقول

عائشة رضي الله عنها: كان النبيّ ﷺ يصلي من الضحى أربع ركعات ويزيد ما شاء الله، ولم تحدد أما قول من قال: إن أكثرها ثمان، ففيه نظر؛ لأن حديث أم هانئ في فتح مكة: أن رسول الله ﷺ صلّى ثماني ركعات، لا يدل على أن هذا هو أعلاه، فقد وقع اتفاقًا وما يقع اتفاقًا ليس فيه دليل على الحصر.

وعلى هذا نقول: أقلها ركعتان، ولا حدّ لأكثرها، صلِّ ما شئت، لكن كان النبيّ ﷺ يصلي أربعًا، وربما صلى ثمانية؛ فينبغي على الإنسان أن يغتنم عمره بصالح الأعمال؛ لأنه سوف يندم إذا جاءه الموت أنه أمضى ساعة من دهره لا يتقرب بها إلى الله عز وجل، كل ساعة تمر عليك وأنت لا تتقرب إلى الله بها فهي خسارة؛ لأنك لم تنتفع بها.

فانتهز الفرصة بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والتعلق بالله عز وجل، اجعل قلبك دائمًا مع الله سبحانه وتعالى ربك في السماء وأنت في الأرض، لا تغفل عن ذكر الله بلسانك وفي فعالك وبجنانك، وبقلبك؛ فإن الدنيا زائلة، لن تبقى لأحد، انظر إلى الأولين، انظر إلى من سبقك من الأمم السابقة والماضية البعيدة المدى، وانظر من سبقك من أصحابك بالأمس كانوا معك يتمتعون، ويأكلون كما تأكلون، ويشربون كما تشربون، والآن هم في أعمالهم مرتهنون، وأنت سيأتي عليك هذا، طالت الدنيا أم قصرت، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ [الإنشقاق: ٦].

فانتهز الفرصة يا أخي، انتهز الفرصة، لا ينفعك يوم القيامة لا مال ولا بنون ولا أهل، لا ينفعك إلا أن تأتي الله بقلب سليم.

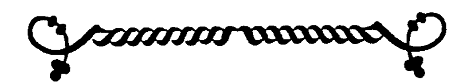


صفة قراءة رسول الله ﷺ

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «سَمِعتُ النَّبيَّ ﷺ قرأ في العشاء بالتِّين والزيتون، فما سَمِعتُ أحدًا أحسن صوتًا منه» [١].

فحديث البراء بن عازب رضي الله عنه أنه صلى مع النبيِّ ﷺ صلاة العشاء فقرأ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين]، قال: فما سمعت قراءة أحسن من قراءته، أو قال: صوتًا أحسن من صوته، وكلاهما صحيح، فالنبيِّ ﷺ أحسن الناس صوتًا بالقرآن وهو أول وأولى من يدخل في قوله فيما سبق من حديث: «ما أذن الله لشيء إذنه لنبيٍّ حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به» [٢]، فرسول الله ﷺ أحسن الناس صوتًا بالقرآن، وأحسن الناس أداءً في القراءة؛ لأن القرآن عليه نزل، والقرآن هو خُلُقه ﷺ.

وفي هذا الحديث دليل على أن صلاة العشاء لا بأس أن يقرأ فيها بقصار المفصل؛ لأن سورة التين من قصار المفصل، ولكن الأكثر أن يقرأ فيها من أوساطه؛ لأن النَّبيَّ ﷺ أمر معاذ بن جبل أن يقرأ فيها بـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى]، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل]، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس]، وما أشبه ذلك، لكن لا حرج أن يقرأ بقصار المفصل كالتين وإذا زلزلت وما أشبه ذلك.



(١) رواه البخاري (٧٥٤٦) ومسلم (٤٦٤).
(٢) رواه البخاري (٧٥٤٤) ومسلم (٧٩٢).

صفة بكاء رسول الله ﷺ

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «قال لي النَّبيّ ﷺ: «اقرأ عليّ القرآن» فقلت: يا رسول الله، أقرأُ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «إني أُحبُّ أن أسْمَعَه من غيري» فقرأتُ عليه سورة النساء، حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] قال: «حسبك الآن» فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان» (١) .

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ طلب منه أن يقرأ عليه، فقال عبد الله بن مسعود: أقرأُ عليك وعليك أُنزلَ؟! فقال ﷺ: «إني أُحبُّ أن أسمعه من غيري» لأن الإنسان الذي يستمع قد يكون أقرب إلى تدبر القرآن من القارئ؛ فالقارئ تجده يركز على أن لا يُخطئ في القراءة، والمستمع يتدبر ويتأمل؛ ولهذا قيل: «القارئ حالب، والمستمع شارب» يعني: القارئ يحلب الناقة أو الشاة، والمستمع شارب، فهو الذي يستفيد.

المهم أن النَّبيّ ﷺ طلب من عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه فقال: أأقرأ القرآن وعليك أُنزل؟! قال: «إني أُحب أن أسمعه من غيري» فقرأ بسورة النساء حتى إذا جاء إلى قول الله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، يعني: كيف تكون الحال؟ فقال ﷺ: «حسبك الآن» يقول: فالتفت فإذا عيناه تذرفان، يبكي ﷺ أن يؤتى به يوم القيامة شهيداً على أمته؛ لأنه يُؤتى يوم القيامة من كل أمة بشهيد، الأنبياء شهداء، العلماء شهداء؛ لأن العلماء هم واسطة بين الخلق، هم الذين يحملون شريعة الرسل إلى الخلق، فهم شهداء، فالعَالِم يشهد بأمرين: أمر أعلى، وأمر أسفل:

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨٢) ومسلم (٨٠٠) .

الأمر الأعلى: يشهد بأن هذا حكم الله.

والأمر الأسفل: يشهد بأنه قد بَلَّغ الناس؛ لأن العَالِم يبلغ فمثلاً يقرأ الآية، حديثًا، ويقول للناس: معناها كذا وكذا اعملوا بها، فيشهد عليهم، فهو شاهد من طرفين: طرف أعلى وطرف أسفل، الطرف الأعلى أنه يشهد بأن هذا حكم الله بلغه للعباد.

والأسفل: أنه يشهد أنه أبلغ الناس إياه، فقامت عليهم الحجة، فيوم القيامة يُؤتى من كل أمة بشهيد، وأول من يشهد الرسل: نشهد أننا بلغنا رسالة ربنا إلى خلقه، ويُؤتَى من هذه الأمة بـ(محمد) ﷺ يستشهده الله فيشهد أنه أبلغ، مع أن النبيّ ﷺ استشهد ربه في أكبر مجمع للمسلمين في ذلك الوقت في يوم عرفة، لما خطب الناس الخطبة الطويلة العظيمة البليغة قال: «ألا هل بلّغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد» قال: «ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد» قال: «ألا هل بلغت؟» ، قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد».

لما وصل إلى هذه الآية فبكى رسول الله ﷺ؛ لأنه تصور هذه الحال، تخيلها، حالاً عظيمة، كل أمة جاثية، وكل أمة تدعى إلى كتابها، كل أمة تأتي على الركب من شدة الهول وعظمته: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٨]، ولهذا قال في الآية الكريمة التي وقف عليها عبد الله بن مسعود: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾ [النساء: ٤٢]، يعني: يودون أنهم ما بُعثوا وما قبضوا ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء: ٤٢].

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء: ٤١، ٤٢]، يودون أنهم بقوا في الأرض، أو أن يكونوا ترابًا، ولكن لا ينفعهم؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

فالمهم أنه يجوز للإنسان أن يطلب من شخص قارئ أن يقرأ عليه ولو كان هذا القارئ أقل منه علماً؛ لأن بعض الناس يعطيه الله تعالى حسن صوت وحسن أداء، وإن كان قليل العلم، فلا بأس أن تقول: يا فلان - جزاك الله خيراً - اقرأ عليّ، إما أن تُعيِّن له ما يقرأ، وإما أن تدع الأمر إليه.

وفي هذا الحديث بركة القرآن أنه ينتفع به القارئ والمستمع، ولاشك أن القرآن أعظم الكتب بركة، وأفيدها، وأصلحها للقلب، وأرضاها للرب.



ما جاء في سجود الشكر

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من مكة نريد المدينة، فلما كنّا قريبًا من عزوراء نزل ثم رفع يديه، فدعا الله ساعة، ثم خرّ ساجدًا، فمكث طويلاً، ثم قام فرفع يديه، ساعة ثم خر ساجدًا - فعله ثلاثًا - وقال: إني سألت ربي، وشفعت لأمتي، فأعطاني ثلث أمتي، فخررت ساجدًا لربي شكرًا، ثم رفعت رأسي، فسألت ربي لأمتي، فأعطاني ثلث أمتي، فخررت ساجدًا شكرًا لربي، ثم رفعت رأسي فسألتُ ربي لأمتي، فأعطاني الثلث الآخر، فخررت ساجدًا لربي» [١] .

ومن المعلوم أن نعمة الله سبحانه وتعالى لا تحصى، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل: ١٨].

واضرب مثلاً بالنَّفَس الذي يتكرر في الدقيقة الواحدة إلى ستين مرة، هذه النَّفَس لو حُبس لهلك الإنسان، فهو نعمة كبرى ولا يمكن عدّها، وكذلك الصحة والعافية، الأكل والشرب، البراز والبول، كلها نِعَمٌ عظيمة، لكنها نعمة مستمرة، ولو كلف الإنسان أن يسجد عند كل نعمة منها لبقي ساجدًا مدى الدهر، لكن هناك نعم تتجدد للإنسان، كإنسان ولد له، أو سهل له الزواج، أو قُدِمَ له غائب ميئوس منه، أو حصل على مال أو ما أشبه ذلك من النعم التي تتجدد أو بُشّر بنصر المسلمين، أو ما أشبه ذلك، فهذا يُستحب للإنسان أن يسجد لله تبارك وتعالى شكرًا لله.

فمثلاً إذا بُشّر بولدٍ قيل له: ابشر بولد هذه نعمة متجددة، فيسجد لله كما يسجد في الصلاة ويقول: سبحان ربي الأعلى، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك،

---

(١) رواه أبو داود (٢٧٧٥) وضعفه الألباني في المشكاة (١٤٩٦) .

اللهم اغفر لي، ثم يشكر الله على النعمة المعينة التي حصلت، فيقول: أشكرك يا ربي على هذه النعمة ويثني على الله تعالى في ذلك.

هكذا أيضًا في اندفاع النقم، الإنسان في سلامة دائمة، ودائمًا هو معرّض للآفات والنقم، لكن أحيانًا تنعقد أسباب النقمة ويشاهدها، فيرفعها الله عنه.

ولنضرب لذلك مثلاً بحادث إنسان مثلاً يمشي في الطريق، فانقلبت السيارة فنجا، هذه اندفاع نقمة، فيسجد لله تعالى شكرًا على اندفاع هذه النقمة، أو إنسان مثلاً يمشي وبينما هو كذلك انخسفت به حفرة في الأرض فنجا، فهذه اندفاع نقمة، يحمد الله سبحانه وتعالى على ذلك.

واندفاع النقم كثير، فإذا دفع الله عنك نقمة فاسجد لله تعالى شكرًا على اندفاع هذه النقمة، وقل مثلاً في السجود: سبحان ربي الأعلى ثلاث مرات، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، اللهم إني أشكرك على أن نجيتني من هذه المصيبة ويذكرها، هذا سجود الشكر.

واختلف العلماء - رحمهم الله - هل تشترط الطهارة أو لا تشترط؟

والصحيح: أنها لا تشترط؛ وذلك لأن هذا يأتي بغتة والإنسان غير متأهب، فلو ذهب يتوضأ لطال الفصل بين السبب ومسببه، فإذا كان على غير طهارة فليسجد. والله الموفق.



صفة صوم رسول الله ﷺ

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن النّبيّ ﷺ يصوم من شهر أكثر من شعبان، فإنه كان يصوم شعبان كله»[١]، وفي رواية: «كان يصوم شعبان إلاّ قليلاً»[٢].

■ صوم شعبان، فقد كان النّبيّ ﷺ يصومه كله أو كله إلاّ قليلاً كما روت عنه ذلك عائشة رضي الله عنها؛ ولهذا ينبغي للإنسان أن يُكثر من الصيام في شهر شعبان أكثر من غيره؛ لأن النّبيّ ﷺ كان يصومه.

قال أهل العلم: والحكمة من ذلك أنه يكون بين يدي رمضان كالرواتب بين يدي الفريضة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ صام يوم عاشوراء، وأمر بصيامه»[٣]. وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع»**[٤].

وسُئل عن صوم يوم عاشوراء، قال: **«يُكفرُ السَّنة الماضية»** فهو أقل أجرًا من صوم يوم عرفة، ومع ذلك ينبغي أن يصوم مع عاشوراء تاسوعاء؛ لأن النّبيّ ﷺ قال: **«لئن بقيت إلى قادم لأصومن التاسع»** يعني: مع العاشر.

ولأنه أمر أن يُصام يومًا قبله أو يومًا بعده، مخالفةً لليهود؛ لأن يوم عاشوراء العاشر من المحرم هو اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فكان اليهود يصومونه شكرًا لله على هذه النعمة العظيمة، أن الله أنجى جنده، وهزم جند الشيطان، أنجى موسى وقومه، وأهلك فرعون وقومه فنصومه شكرًا لله،

---

(١) رواه البخاري (١٩٧٠) ومسلم (١١٥٦).
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخاري (٢٠٠٤) ومسلم (١١٣٠).
(٤) رواه مسلم (١١٣٤).

فقال: «نحن أولى بموسى منكم»، لماذا؟ لأن النّبيّ ﷺ والذين معه أولى الناس بالأنبياء السابقين: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٨].

فرسول الله ﷺ أحق بموسى عليه السلام من اليهود؛ لأن اليهود كفروا به، وكفروا بعيسى، وكفروا بمحمد؛ فصامه وأمر الناس بصيامه، إلا أنه أمر أن يخالف اليهود الذين لا يصومون إلا يوم العاشر، كان نصوم التاسع، أو الحادي عشر مع العاشر، أو الثلاثة؛ ولهذا ذكر بعض أهل العلم كابن القيم وغيره أن صيام عاشوراء ثلاثة أقسام:

١ - أن نصوم عاشوراء والتاسع، وهذا أفضل الأنواع.

٢ - أن نصوم عاشوراء والحادي عشر، وهذا دون الأول.

٣ - أن نصوم عاشوراء وحده فكرهه بعض العلماء؛ لأن النّبي ﷺ أمر بمخالفة اليهود، ورخص فيه بعض العلماء.

عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئل عن صوم يوم الإثنين، فقال: «ذلك يوم وُلدتُ فيه، ويوم بُعثتُ فيه أو أُنزل عليّ فيه» [(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «تُعرض الأعمال يوم الإثنين ويوم الخميس، فأُحب أن يُعرض عملي وأنا صائم» [(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يتحرى صوم الإثنين والخميس» [(٣)].

أما صوم يوم الإثنين: فإن النّبيّ ﷺ سُئل عن صومه، فقال: «ذاك يوم ولدت فيه، وبُعثت فيه، أو أُنزل عليّ فيه» وكذلك مات فيه عليه الصلاة والسلام؛ فيوم

---

(١) رواه مسلم (١١٦٢).

(٢) رواه الترمذي (٧٤٥) وقال: حديث حسن. ورواه مسلم بغير ذكر الصوم. وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٥٩٦).

(٣) رواه الترمذي (٧٤٥) وقال: حديث حسن. وصححه الألباني.

الإثنين ولد فيه النّبيّ ﷺ، لكن في أي شهر؟ لم يتبين، هل في شهر ربيع الأول، أو في غيره؟ وهل هو اليوم الثاني عشر منه أو في غيره؟ وإنما المؤكد أنه ولد في يوم الإثنين، كذلك أيضًا نزل على الرسول ﷺ فيه، يعني: أول ما نزل عليه القرآن في يوم الإثنين.

والراوي شكّ، هل قال: «أنزل» أو «بعث»؟ وبينهما فرق؛ لأنه أُنزل عليه القرآن قبل أن يبعث، أنزلت عليه سورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وبهذا صار نبيًا وأنزل عليه، وأما البعث وهو الإرسال، فإنه كان بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر]، وهذا بعد الأول.

وعلى كل حال هذا اليوم فيه مناسبات شريفة عظيمة، ولادة الرسول ﷺ وإنزال الوحي عليه، أو إرساله إلى الناس.

وعن معاذة العدوية أنها سألت عائشة ﵂: «أكان رسول الله ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام؟ قالت: نعم، فقلت: من أي شهر كان يصوم؟ قالت: لم يكن يُبالي من أي الشهر يصوم» [1].

ثم إن الأيام الثلاثة يجوز أن تصومها في العشر الأول، أو في العشر الأوسط أو في العشر الأخير، أو كل عشرة أيام يومًا، أو كل أسبوع يومًا، كل هذا جائز، والأمر واسع؛ ولهذا قالت عائشة ﵂: «أن النّبيّ ﷺ لا يبالي من أي الشهر صامها، من أوله أو من وسطه أو من آخره، لكن اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، أحسن وأفضل؛ لأنها أيام البيض.

أما صوم يوم الخميس فهو أيضًا سُنّة، لكنه دون صوم يوم الإثنين، صوم يوم الإثنين أفضل، وكلاهما فاضل، وإنما كان صيامهما فاضلاً؛ لأنه يُروى عن النّبيّ ﷺ أن: «الأعمال تُعرض فيهما على الله، قال: فأحب أن يُعرض عملي وأنا صائم».

---

(١) رواه مسلم (١١٦٠).

وأفضل الصيام، صيام داود، أن يصوم الإنسان يومًا ويُفطر يومًا، هذا لمن قدر ولم يكن عليه مشقة، ولم يضيع بسببه الأعمال المشروعة الأخرى، ولم يمنعه عن تعلم العلم؛ لأن هناك عبادات أخرى، إذا كان كثرة الصيام تُعجزك عنها فلا تُكثر الصيام.

وعن أبي عطية قال: دخلتُ أنا ومسروق على عائشة رضي الله عنها فقال لها مسروق: رجلان من أصحاب محمد ﷺ كلاهما لا يألو عن الخير: أحدهما يعجل المغرب والإفطار، والآخر يُؤخر المغرب والإفطار؟ فقالت: «من يعجل المغرب والإفطار؟» قال: عبد الله - يعني ابن مسعود -. فقالت: «هكذا كان رسول الله ﷺ يصنع»[1].

قوله: «لا يألو»: أي لا يقصر في الخير.

وعن أبي إبراهيم عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: «سرنا مع رسول الله ﷺ وهو صائم، فلما غربت الشمس، قال لبعض القوم: «يا فلان، انزل فاجدح لنا» فقال: يا رسول الله، لو أمسيت؟ قال: «انزل فاجدح لنا» قال: إن عليك نهاراً. قال: «انزل فاجدح لنا» قال: فنزل فجدح لهم فشرب رسول الله ﷺ، ثم قال: «إذا رأيتم الليل قد أقبل من ههنا، فقد أفطر الصائم» وأشار بيده قِبَل المشرق»[2].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يُفطر قبل أن يُصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات فتميرات، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء»[3].

هذه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: تعجيل الفطر، لكن بشرط أن يتحقق غروب الشمس؛ لقول النبيّ ﷺ في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي ساقه: «إذا أقبل الليل من

---

(١) رواه البخاري (١٩٥٧) ومسلم (١٠٩٨).
(٢) رواه البخاري (١٩٥٥)، ومسلم (١١٠١).
(٣) رواه أبو داود، والترمذي (٦٩٦) وقال: حديث حسن. وحسّنه الألباني في الإرواء (٩٢٢).

هاهنا – يعني من المشرق – وأدبر النهار من هاهنا – يعني من المغرب – وغربت الشمس فقد أفطر الصائم»[١].

فإذا بادر الإنسان بالفطر من حين أن يغرب قرص الشمس ولو كان البياض ظاهرًا، والشعاع في الأفق، مادام قرص الشمس قد غاب، فأفطر وبادر، وهذه هي السُّنَّة القولية والفعلية من الرسول ﷺ، أما الفعلية فدليلها حديث عائشة رضي الله عنها حين سألها عطية ومسروق عن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، أحدهما يؤخر الفطر ويؤخر صلاة المغرب، والثاني يُعجل الفطر ويعجل صلاة المغرب، أيهما أصوب؟ فقالت عائشة: «من هذا؟!» أي الذي يعجل، قالوا: ابن مسعود رضي الله عنه فقالت: «هكذا كان النّبيّ ﷺ يفعل» يعني: يعجل الفطر، ويُعجل صلاة المغرب، هذه سنة فعلية، تدل على أن الأفضل تقديم الإفطار، أما القولية: فحديث سهل بن سعد أن النّبيّ ﷺ قال: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»[٢].

فمادام الناس يُبادرون إلى السنة ويتسابقون إلى الخير، فهم بخير، لا يزالون بخير، أما إذا تباطأوا ولم يُفطروا مبادرين، فإن ذلك هو الشر، ولهذا كان الرافضة المخالفون لسنة رسول الله ﷺ وهديه كانوا يؤخرون الفطور، لا يُفطرون إلا إذا اشتبكت النجوم، فيحرمون من الأجر والثواب، ويحرمون من تعجيل إعطاء النفوس حظوظها من الأكل والشرب، يُعذبون في الدنيا قبل الآخرة؛ لأن الإنسان إذا تأخر وهو عطشان أو جائع يتألم أكثر، فهم يؤلمون أنفسهم بتأخير الفطور، ويُخالفون السُّنّة ويفوتهم الأجر.

وذُكر أن الأفضل أن يُفطر على رطب، فإن لم يجد فتمر، فإن لم يجد فماء؛ لأن النّبيّ ﷺ كان يُفطر على رطيبات قليلة لا يُكثر؛ لأنه لا ينبغي الإكثار عند الفطور، وليس من الطب أن الإنسان إذا أفطر يتعش مباشرة كما يفعل بعض

(١) رواه البخاري (١٩٥٤) ومسلم (١١٠٠).
(٢) رواه البخاري (١٩٥٧) ومسلم (١٠٩٨).

الناس، بل الطب يقتضي أن تعطى المعدة الشيء القليل؛ لأنها خالية، فكان عليه الصلاة والسلام يُفطر على رطيبات، فإن لم تكن فعلى تميرات، فإن لم تكن حسا حسوات أو حسيات من ماء، هكذا ينبغي أن تفطر على الرطب، ثم التمر، ثم الماء.

والرطب الآن – والحمد لله – موجود حتى في غير أيام الصيف، فالناس يدخرون الرطب الآن في الثلاجات، ويبقى مدة، فالأفضل أن تُفطر على الرطب، فإن لم يكن عندك شيء فالتمر، فإن لم يكن عندك تمر فالماء، فإن قال قائل: ليس عندي رطب ولا تمر، ولكن عند خبز وماء، أيهما أُفطر عليه؟ أفطر على الماء؛ لأن النبيّ ﷺ أرشد إلى ذلك، وقال: «إنه طهور» يطهر المعدة والكبد؛ فلذلك أمرنا عليه الصلاة والسلام أن نفطر على الماء، وإنما قدم الرطب والتمر؛ لأنه أنفع للبدن من الماء؛ لأنه حلوى وغذاء وقوة.

وقد قال أهل الطب: «إن الحلاوة التي في التمر هي أسرع شيء يتقبله الجسم من أنواع الحلوى، وأنها تسري إلى العروق فوراً».

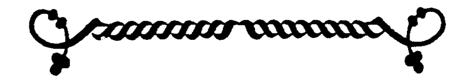
وهذا من حكمة الله عز وجل، فهذا الذي ينبغي أن تُفطر عليه، رطب، فإن لم تجد فتمر، فإن لم تجد فماء، فإن لم تجد ماء، فما تيسر من مأكول أو مشروب، فإن لم تجد كما لو كنت في البر وليس عندك شيء، فقال بعض العوام: «امصص إصبعك» وهذا غلط، إذا لم تجد فتكفي النية في القلب، وإذا عثرت على مطعوم أو مشروب بعد ذلك فافعل، أما مصّ الإصبع، فليس له أصل، وتحذلق عامي وقال: «اتفل في ثوبك ثم امصص ريقك!» أي: كأنه يجعل مثل الماء، وهذا أيضاً غلط، كل هذا ليس بمشروع، ولكن إن تيسر لك ما تفطر عليه فهذا هو المطلوب، وإلا فانتظر حتى ييسّر الله، وانوِ بقلبك.

وفي قول الرسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم»[1].

---

(١) سبق تخريجه.

قال بعض أهل العلم: «فقد أفطر» يعني: وإن لم ينوِ الفطر، يعني فقد انتهى صيامه، وأفطر حكمًا، وقال بعضهم: «فقد أفطر» أي: فقد حل له الفطر، لكن لاشك أنك إذا نويت الفطر – إذا لم يكن عندك ما تأكله وتشربه – فهو أحسن وأفضل، حتى تكون مبادراً إلى الإفطار بالنيّة؛ لعدم القدرة على الأكل والشرب.



اعتكاف رسول الله ﷺ

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: « كان رسول الله ﷺ يعكتف العشر الأواخر من رمضان » (١) .

وعن عائشة رضي الله عنها: « أن النبيّ ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى توفاه الله تعالى، ثم اعتكف أزواجه من بعده » (٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « كان النبيّ ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قُبض فيه اعتكف عشرين يومًا » (٣) .

والإعتكاف: لزوم المسجد لطاعة الله عز وجل، وهو مشروع في العشر الأواخر من رمضان؛ لأن النبيّ ﷺ كان يعتكف العشر الأول، ثم اعتكف العشر الأوسط، يتحرى ليلة القدر، ثم قيل له: « إنها في العشر الأواخر » فصار يعتكف العشر الأواخر من رمضان.

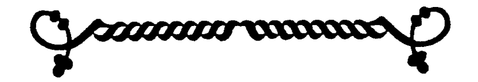
وبهذا عرفنا أنه لا يشرع الإعتكاف في غير رمضان، وأن ما ذكره بعض العلماء من أنه ينبغي للإنسان إذا قصد المسجد أن ينوي الإعتكاف مدة مكثه فيه، قول لا دليل عليه؛ فإن النبيّ ﷺ لم يشرعه لأمته، لا بقوله، ولا بفعله، يعني: لم يقل للناس إذا دخلتم المسجد فانووا الإعتكاف فيه في أي وقت ولم يكن يفعل ذلك هو بنفسه، وإنما كان يعتكف العشر الأواخر تحريًا لليلة القدر؛ ولهذا ينبغي للمعتكف ألا يشتغل إلا بالطاعة، من صلاة وقراءة قرآن وذكر، حتى تعليم العلم، قال العلماء: لا ينبغي للمعتكف أن يشتغل بتعلم العلم، بل يُقْبِل على العبادات الخاصة.

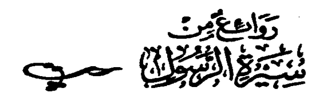
---

(١) رواه البخاري (٢٠٢٥) ومسلم (١١٧١).
(٢) رواه البخاري (٢٠٢٦) ومسلم (١١٧٢).
(٣) رواه البخاري (٢٠٤٤) .

ولا يجوز للمعتكف أن يخرج من المسجد إلاَّ لما لابد منه، كأن يكون ليس عنده من يأتيه بالطعام والشراب، فيخرج ليأكل ويشرب، أو يخرج لقضاء الحاجة، أو يحتاج إلى الخروج من أجل غُسل الجنابة، وما أشبه ذلك، أو يحتاج للخروج لكونه في مسجد غير جامع فيذهب إلى الجمعة، المهم أن المعتكف لا يخرج من المسجد إلا لشيء لابد منه شرعًا أو طبعًا.

ثم إنه ينبغي للمعتكف إذا جاءه أحد يريد أن يشغله بالكلام اللغو الذي لا فائدة منه أن يقول له: يا أخي أنا معتكف، إما أن تعينني على الطاعة، وإما إن تبتعد عني، والله تعالى لا يستحي من الحق، وأما الجلوس اليسير عند المعتكف والتحدث اليسير إليه فهذا لا بأس به؛ لأن النّبيّ ﷺ كان يستقبل نساؤه وهو معتكف فيتحدث إليهن، ويتحدثن إليه، والله الموفق.





صفة بيعه وشرائه ﷺ

البيع والشراء: أمران ضروريان لا تقوم حياة بني آدم إلاّ بهما غالبًا؛ وذلك لأن الإنسان قد يحتاج إلى شيء عند غيره، فكيف يتوصل إليه؟

إن استجداه وقال: هبه لي، أذلّ نفسه، وإن استعاره بقي في قلق، وإن أخذه غصبًا ظلمه، فكان من حكمة الله عز وجل أن شرع البيع والشراء؛ لأنني قد أحتاج دراهم فأبيع ما عندي، وأنت محتاج هذا الشيء المعين عندي، فتشتريه بالدراهم، فكان البيع أمرًا ضروريًا لحاجة بني آدم.

ولكن من الناس من يبيع بالعدل، ومن الناس من يبيع بالظلم، ومن الناس من يبيع بالإحسان، فالناس ثلاثة أقسام: قسم يبيع بالعدل، لا يظلم ولا يُظلم، كما قال تعالى في الذين يتعاملون بالربا: ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

وقسم يبيع بالجور والظلم، كالغشاش والكذاب، وما أشبه ذلك.

وقسم يبيع بالفضل والإحسان، فيكون سمحًا في البيع وفي الشراء، إن باع لم يطالب حقه وافيًا، بل ينزل من الثمن، ويُمهل في القضاء، وإن اشترى لا يهمه أن يزيد عليه الثمن، ويُبادر بالوفاء؛ فيكون محسنًا.

وآيات فضل السماحة منها قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٥]. كلمة ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم جميع الخيرات، من أي جهة، وهي مؤكد عمومها بـ«من».

﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ يعني: أي خير تفعلونه فإن الله به عليم، يعني لا يخفى عليه ولا يفوته عز وجل، وسوف يجازيكم على هذا أفضل مما عملتم؛ لأن الله يجازي بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، أضعاف كثيرة.

والمراد بالآية الكريمة:

الحث على فعل الخير، وأن يعلم الفاعل أنه لن يضيع عليه شيء من فعله؛ فإن الله به عليم وسيجازيه عليه عز وجل أفضل الجزاء، ومن الخير السماحة في البيع والشراء، وقد دعا النبيّ ﷺ للمتسامحين في البيع والشراء، فقال: «رحم الله امرأ سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا اقتضى».

فالإنسان كلما كان سمحًا في بيعه وشرائه، وتأجيره واستئجاره، ورهنه وارتهانه، وغير ذلك، فإنه أفضل، قال تعالى عن شعيب، أنه قال لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: ٨٥]، أوفوا المكيال: أي ما تبيعونه كيلاً، والميزان: ما تبيعونه وزنًا، أوفوه ولا تُنقصوا منه شيء.

وهذا دليل على: أن الوفاء في العقود مما جاءت به الشرائع السماوية السابقة واللاحقة، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾﴾ [المطففين: ١، ٢]. ويل: كلمة وعيد، يتوعد الله عز وجل المطففين الذين هذه صفاتهم إذا اكتالوا على الناس يستوفون، يعني إذا كان الحق لهم، واكتالوا فإنهم يستوفون حقهم كاملاً، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون يعني: إذا كان الحق عليهم وكالوا لهم أو وزنوا لهم، يُخسرون، أي: يبخسون الكيل والميزان، فيظلمون من الوجهين، أو يطلبون العدل فيما يتعاملون به، ويبخسون فيما يعاملون الناس به، وهذا هو المطفف.

وهذه الآية الكريمة وإن كانت قد وردت في المكيال والميزان إلاَّ أن العامل حتى الموظف إذا كان يُريد أن يُعطى راتبه كاملاً لكنه يتأخر في الحضور أويتقدم في الخروج، فإنه من المطففين الذين يتوعدهم الله بالويل؛ لأنه لا فرق بين إنسان يكيل للناس أو يزن لهم وبين إنسان موظف عليه أن يحضر في الساعة الفلانية، ولا يخرج إلا في الساعة الفلانية، ثم يتأخر في الحضور، ويتقدم في الخروج، هذا

مُطفف، وهذا المطفف في الوظيفة لو نقص من راتبه ريال واحد من عشرة آلاف لقال: لماذا تنقص؟ هذا مطفف يدخل في هذا الوعيد: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ ﴾

[المطففين: ١ – ٣].

ثم قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ ﴾ [المطففين: ٤] يعني: هل هؤلاء نسوا يوم الحساب، نسوا يوم القيامة الذي ليس هناك أقرب منه؛ فالإنسان في هذه الدنيا ليس معه ضمان أن يعيش ولو لحظة واحدة، يموت الإنسان وهو يتغذى أو يتعشى، يموت وهو نائم ، يموت وهو على مكتبه، يموت وهو ذاهب لحاجته أو راجع منها، ثم يأتي اليوم العظيم: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [المطففين: ٤، ٥]، استعظمه الله عز وجل، بيّن أنه عظيم، فيدل على عظمته،وقد وصف الله هذا اليوم في آيات كثيرة كلها تزعج وتُروّع وتُخوّف، هؤلاء سوف يتعرضون لعقوبة الله في ذلك اليوم.

هؤلاء المطففون سيتعرضون لعقوبة الله في ذلك اليوم ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ [المطففين: ٦]، يقوم الناس كلهم لرب العالمين من في مشارق الأرض ومغاربها يبعثون على صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، الداعي يسمعهم كلهم؛ لأن الأرض مبسوطة غير كروية، يغيب بعض الناس فيها عن بعض، بل هي سطح واحد، إذا تكلم أحد في أولهم سمعه في آخرهم، وينفذهم البصر، يراهم الرائي بخلاف الدنيا الأرض منعطفة كروية لكن في الآخرة الأرض سطح واحد، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ ﴾ [الإنشقاق: ٣، ٤]. تُمد كما يمد الجلد الأديم، هذا اليوم العظيم يقوم الناس فيه لله عز وجل للحساب والمعاقبة، ومقدار هذا اليوم خمسون ألف سنة والشمس من فوقهم بقدر ميل، ولا شجر يستظلون به ولا بناء، ولا شيء إلا من يظله الله في ظله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه، أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.

في هذا اليوم العظيم سيجد هؤلاء المطففون عقوبتهم، ليس هناك ولد ينفع ولا أب ولا أم ولا زوجة، ولا أحد، ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس: ٣٧]، فليحذر هؤلاء المطففون وليتقوا الله عز وجل ويؤدوا الحق كاملاً وإن زادوا الفضل فهو أفضل، ولهم أن يأخذوا حقهم كاملاً وإن تسامحوا فهو أفضل.

وعن أبي هريرة ﷺ: «أن رجلاً أتى النبيّ ﷺ يتقاضاه، فأغلظ له، فهمّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: **«دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً»** ثم قال: **«أعطوه سنًا مثل سنة»** قالوا: يا رسول الله، لا نجد إلا أمثل من سنه، قال: **«أعطوه فإن خيركم أحسنكم قضاء»** (١).

حديث أبي هريرة ﷺ أنّ أعرابيًا جاء يتقاضى الرسول ﷺ حقه، يتقاضاه يعني يطلب أن يقضيه النبيّ ﷺ حقه، وذلك أن الرسول ﷺ استقرض بكرًا - يعني ناقة صغيرة - فجاء صاحبها يطلبها، يقول: أعطني بكري، والأعراب كما نعلم عندهم جفاء، فأغلظ للرسول ﷺ القول؛ فهمّ به الصحابة، يعني هموا به أن يضربوه أو يُسكتوه وما أشبه ذلك، فقال: **«دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً»** صلوات الله وسلامه عليه، ما ظنكم لو تكلّم مثل هذا الأعرابي على جندي من الجنود، ماذا يفعل به؟! يبطش به، أو على أمير من الأمراء، أو على قاضٍ من القضاة، أو على وزير من الوزراء، لو جاء يطلب حقه ولو بسهولة ربما يفتك به، إلا من شاء الله، هذا يُغلظ القول لمحمد رسول الله ﷺ ويقول: **«دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً»**.

ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان عليه حق لشخص، وجاء الشخص يطلبه فلصاحب الحق أن يغلظ القول؛ لأنه صاحب حق، والرسول ﷺ سيوفيه حقه لاشك، لكن قد لا يكون عنده تلك الساعة شيء، ولذلك أمرهم بقضاء بكره،

(١) رواه البخاري (٢٣٠٦) ومسلم (١٦٠١).

فقالوا: إنا لا نجد إلاّ سنًا خيرًا من سنه، وفي رواية قالوا: لا نجد إلا رباعيًا خيارًا، والرباعي أحسن بكثير من البكر، والبكر صغير والرباعية كبيرة تتحمل الحمل والأثقال وغير ذلك، فأمرهم النبيّ ﷺ أن يعطوه إياها، وقال: «إن خيركم أحسنكم قضاء» أحسنكم قضاء في صفة القضاء وفي معاملة المستقضي الذي يطلب حقه.

فينبغي للإنسان أن يقتدي برسول الله ﷺ في حسن القضاء، لكن معاملة المستقضي الذي يطلب حقه أن لا يعامله بالجفاء والسب والشتم، بل باللين؛ لأن له حقًا ومقالة، ولا في المقضي يعني يقضي أحسن مما عليه سواء كان أحسن مما عليه كيفية، أو أكثر مما يطلب، فمثلاً إذا استقرضت من شخص مئة ريال وعند الوفاء أعطيته مئة وعشرون بدون شرط، فإن هذا لا بأس به، وهو من خير القضاء وكذلك لو استقرضت منه صاعًا من الطعام وسطًا، ليس بالطيب ولا بالرديء، فاعطيته صاعًا طيبًا فهذا أيضًا من حسن القضاء، وخير الناس أحسنهم قضاء.

وعن أبي صفوان سويد بن قيس رضي الله عنه قال: جلبت أنا ومخرمة العبدي بزامن هجر، فجاءنا النّبيّ ﷺ فساومنا بسراويل، وعندي وزان يزن بالأجر، فقال النبيّ ﷺ للوزان: «زن وأرجح»[1].

حديث جابر رضي الله عنه أن النّبيّ ﷺ اشترى منه فوزان وأرجح يعني أرجح الوزن؛ لأنهم كانوا فيما سبق يتعاملون بالنقود وزنًا لا عددًا، وإن كانوا يتعاملون أيضًا بها عددًا، لكن الكثرة وزنًا كما جاء في الحديث: «ليس فيما دون خمسة أواق صدقة»[2] فوزن له النّبيّ ﷺ وأرجح يعني زاده أكثر مما يستحق، وهكذا ينبغي للإنسان عند الوفاء أن يتوفى كاملاً بدون نقص، وإذا زاد فهو أفضل.

---

(١) رواه أبو داود (٣٣٣٦) والترمذي (١٣٠٥) وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الالباني في صحيح ابن ماجه (١٨٠٥).

(٢) رواه البخاري (١٣١٧) ومسلم (١٦٢٥).

إنفاق رسول الله ﷺ

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ حين يلقى جبريل، أجود بالخيرمن الريح المرسلة» [١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله، وشد المئزر» [٢].

الجود: هو بذل المحبوب من مال أو عمل، والإنسان يجود بماله فيُعطي الفقير ويُهدي بماله فيعطي الفقير ويهدي إلى الغنى، ويواس المحتاج، ويجود كذلك بعمله، فيُعين الإنسان في أموره: في سيارته، في دكانه، في بيته، فالجود هو بذل المال، أو العمل، وربما يدخل في ذلك أيضًا، بذل الجاه، بأن يشفع لأحد أو يتوسط له في جلب منفعة أو دفع مضرة، أو ما أشبه ذلك.

وكان النّبيّ ﷺ كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «أجود الناس» بماله وبدنه وعلمه ودعوته، ونصيحته، وكل ما ينفع الخلق، وكان أجود ما يكون في رمضان؛ لأن رمضان شهر الجود، يجود الله فيه على العباد، والعباد الموفقون يجودون على إخوانهم، والله تعالى جواد يُحب الجود، وكان النّبيّ ﷺ ينزل عليه جبريل في رمضان كل ليلة يُدارسه القرآن من أجل أن يثبته في قلبه، وأن يحصل الثواب بينه وبين جبريل، وجبريل عليه السلام ينزل لكن على كيفية لا نعلمها؛ لأنه ملك من الملائكة، والملائكة لا يرون إلا إذا شاء الله عز وجل، كان رسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل فيدارسه القران، أجود بالخير من الريح المرسلة، أي: أنه يسارع

---

(١) رواه البخاري (١/٦) ومسلم (٢٣٠٨).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤) ومسلم (٢٥٤).

إلى الخير عليه الصلاة والسلام، ويجود به، حتى إنه أسرع من الريح المرسلة، يعني: التي أرسلها الله عز وجل فهي سريعة عاصفة، ومع ذلك فالرسول ﷺ أجود بالخير من هذه الريح في رمضان.

وحديث عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ كان إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل، أي أحياه بالذكر، والقراءة، والصلاة والعبادة، وأيقظ أهله، وشد مئزره، أيقظهم ليصلوا، وشد المئزر أي: تأهب تأهبًا كاملاً للعمل؛ لأن شد المئزر معناه: أن الإنسان يتأهب للعمل، ويتقوى عليه، وقيل: معنى شد المئزر أنه يتجنب النساء عليه الصلاة والسلام؛ لأنه يتفرغ للعبادة، وكلاهما صحيح، النبيّ ﷺ يتفرغ للعبادة في العشر الأواخر من رمضان، ويُحيي الليل كله بطاعة الله، فهذا من الجود بالنفس، لكن جود في حق الله عز وجل، والله هو الذي يمنّ على من يشاء من عباده، إذا منّ عليك بالعمل فله المنة، يمن عليك بالعمل أولاً، ثم يمنّ عليك بقوله ثانيًا، وفقنا الله وإياكم لما يحب.

وعن أبي سعيد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه: أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: «**ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبَّر يصبره الله، وما أُعطِيَ أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر**»[1].

قوله: «إن ناسًا من الأنصار» إلى قوله: «حتى نفد ما عنده» كان من خلقه الكريم أنه لا يُسْأَل شيئًا يجده إلا أعطاه وما عهد عنه أنه منع سائلاً بل كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ويعيش في بيته عيش الفقراء، وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع، فهو عليه الصلاة والسلام على الاستعفاف والاستغناء والصبر، فقال: «**ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يُغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله**».

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٠) ومسلم (١٠٥٣).

هذه ثلاثة أمور:

أولاً - «من يستعفف يعفه الله» فمن يستعفف عما حرّم الله عليه من النساء يعفه الله عز وجل، والإنسان الذي يتبع نفسه هواها فيما يتعلق بالعفة فإنه يهلك والعياذ بالله؛ لأنه إذا أتبع نفسه هواها صار يتبع النساء فإنه يهلك، تزني العين وتزني الأذن، وتزني اليد وتزني الرجل، ثم يزني الفرج وهو الفاحشة والعياذ بالله، فإذا استعفّ الإنسان عن هذا المحرم أعفه الله عز وجل، وحماه وحمى أهله أيضًا.

ثانيًا - «من يستغنِ يُغنه الله» أي: من يستغن بما عند الله عمّا في أيدي الناس يُغنه الله عز وجل، وأما من يسأل الناس ويحتاج لما عندهم فإنه يبقى قلبه فقيراً والعياذ بالله ولا يستغني، والغنى غنى القلب، فإذا استغنى الإنسان بما عند الله عما في أيدي الناس أغناه الله عن الناس، وجعله عزيز النفس بعيداً عن السؤال.

ثالثاً - «من يتصبر يصبره الله» أي يعطه الله الصبر، فإذا حبست نفسك عمّا حرم الله عليك وصبرت على ما عندك من الحاجة والفقر ولم تُلح على الناس بالسؤال فإن الله تعالى يصبرك ويُعينك على الصبر، وهذا هو الشاهد من الحديث؛ لأنه في باب الصبر.

ثم قال رسول الله ﷺ: **«وما أعطي أحد عطاء خير وأوسع من الصبر»** أي: ما منّ الله على أحد بعطاء من رزق أو غيره خيراً وأوسع من الصبر؛ لأن الإنسان إذا كان صبوراً تحمّل كل شيء، إن أصابته الضراء صبر، وإن عرض له الشيطان بفعل المحرم صبر، وإن خذله الشيطان على ما أمر الله صبر.

فإذا كان الإنسان قد منّ الله عليه بالصبر فهذا خير ما يُعطاه الإنسان وأوسع ما يُعطاه؛ ولذلك نجد الإنسان الصبور لو أذي من قبل الناس، لو سمع منهم ما يكره لو حصل منهم اعتداء عليه نجده هادئ البال، لا يتصلب ولا يغضب؛ لأنه صابر على ما ابتلاه الله به؛ فلذلك تجد قلبه دائمًا مطمئنًا ونفسه مستريحة.

ولهذا قال الرسول ﷺ: **«ما أعطي أحد عطاءاً خيراً وأوسع من الصبر»** والله الموفق.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، ولقد جاء رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين فرجع إلى قوم، فقال: يا قوم، أسلموا فإن محمد يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليُسلم ما يُريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيرًا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ ما سُئل شيئًا على الإسلام إلا أعطاه» لأنه ﷺ كان أكرم الناس، وكان يبذل ماله فيما يقرب إلى الله سبحانه وتعالى، ومن ذلك أنه ﷺ إذا سأله شخص على الإسلام - يعني على التأليف على الإسلام والرغبة فيه - إلا أعطاه، مهما كان هذا الشيء، حتى أنه سأله أعرابي فأعطاه غنمًا بين جبلين، أي أنها غنم كثيرة، فأعطاه إياها الرسولُ ﷺ لما يرجو من الخير لهذا الرجل ولمن وراءه.

ولذلك ذهب هذا الرجل إلى قومه فقال: «يا قوم أسلموا؛ فإن محمداً يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر» ﷺ يعني عطاءً جزيلاً، عطاء من لا يخشى الفقر، فانظر لهذا العطاء كيف أثر في هذا الرجل هذا التأثير العظيم، حتى أصبح داعية إلى الإسلام.

وهو إنما سأل كغيره من الأعراب، فالأعراب أهل طمع، يحبون المال ويسألونه، ولكنه لما أعطاه الرسول عليه الصلاة والسلام هذا العطاء الجزيل صار داعية إلى الإسلام، فقال: «يا قوم أسلموا» ولم يقلْ: أسلموا تدخلوا الجنة وتنجوا من النار، بل قال: «أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر» يعني سيعطيكم ويُكثر.

ولكنهم إذا أسلموا من أجل المال، فإنهم لا يلبثون إلا يسيراً ويصير الإسلام أحب شيء إليهم، أحب من الدنيا وما فيها؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يعطي للرجل تأليفًا له على الإسلام حتى يُسلم، وإن كانت نيته للمال، إلا أنه إذا دخل في الإسلام وتعلم محاسن الإسلام وقر الإيمان في قلبه.

---

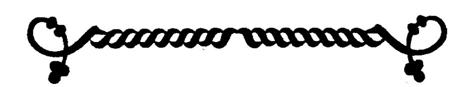
(١) رواه مسلم (٢٣١٢).

ويُؤخذ من هذا الحديث وأمثاله: أنه لا ينبغي لنا أن نبتعد عن أهل الكفر وعن أهل الفسوق، وأن ندعهم للشياطين تلعب بهم، بل نؤلفهم، ونجذبهم إلينا بالمال واللين وحسن الخلق حتى يألفوا الإسلام، فهاهو الرسول عليه الصلاة والسلام يعطي للكفار يعطيهم حتى من الفيء.

بل إنه جعل لهم حظًا من الزكاة، نعطيهم لنؤلفهم على الإسلام، حتى يدخلوا في دين الله، والإنسان قد يُسلم للدنيا، ولكن إذا ذاق طعم الإسلام رغب فيه، حتى يكون أحب شيء إليه.

قال بعض أهل العلم: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلاّ لله، فالأعمال الصالحة لابد أن تربي صاحبها على الإخلاص لله عز وجل، والمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام، وإذا كان هذا دأب الإسلام فيمن يعطى على الإسلام ويؤلف، فإنه ينبغي لنا أن ننظر إلي هذه نظرة جدية، فنعطي من كان كافرًا إذا وجدنا فيه قربًا من الإسلام، ونهاديه ونُحسن له الخلق، فإذا اهتدى فلئن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمُر النعم.

وهكذا أيضًا الفساق هادهم، انصحهم باللين وبالتي هي أحسن، ولا تقل: أنا أُبغضهم لله، أُبغضهم لله وأدعهم إلى الله، بغضك إياهم لله لا يمنعك أن تدعوهم إلى الله عز وجل، وإن كنت تكرههم، فلعلهم يكونوا من أحبابك في الله يومًا من الأيام.

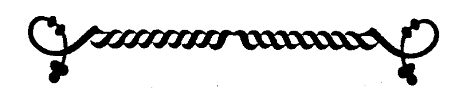


صفة إيثاره ﷺ

عن سهل بن سعد ﷺ: «أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ببردة منسوجة، فقالت: نسجتها بيدي لأكسوكها، فأخذها النّبيّ ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره، فقال فلان: اكسينها ما أحسنها، فقال: «نعم» فجلس النّبيّ ﷺ في المجلس، ثم رجعها فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال القوم: ما أحسنت، لبسها النّبيّ ﷺ محتاجًا إليها، ثم سالته، وعلمت أنه لا يرد سائلاً، فقال: إني والله ما سالته لألبسها، إنما سالته لتكون كفني، قال سهل: فكانت كفنه»[١] .

حديث سهل بن سعد، فإن امرأة جاءت وأهدت النبيّ ﷺ بردةً، وكان ﷺ لا يرد الهدية، بل يقبل الهدية، ويثيب عليها صلوات الله وسلامه عليه، وهذاكرمه وحسن خلقه، فتقدم رجل إليه، فقال: ما أحسن هذه، وطلبها من النبيّ ﷺ، ففعل الرسول عليه الصلاة والسلام، خلعها وطواها، و أعطاه إياها، فقيل للرجل: كيف تطلبها من النّبيّ ﷺ وأنت تعلم أنه لا يرد سائلاً؟ فقال: والله ما طلبتها لألبسها، ولكن لتكون كفني، فابقاها عنده فصارت كفنه.

ففي هذا: إيثار النبيّ ﷺ على نفسه؛ لأنه آثر هذا الرجل بهذه البردة التي كان محتاجًا إليها؛ لأنه لبسها بالفعل، مما يدل على شدة احتياجه إليها.



---

(١) رواه البخاري (١٢٧٧) .

صفة عيش النبي ﷺ

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قُبض» [١] .

وفي رواية: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعًا حتى قُبض» .

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها انها كانت تقول: «والله يا ابن أختي، إن كُنَّا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار. قلتُ: يا خالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، وكانوا يُرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا»[٢] .

وعن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه مرّ بقوم بين أيديهم شاة مصلية، فدعوه فأبى أن يأكل، وقال: «خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير» [٣] .

فعلى الإنسان ألاّ يُكثر من الشهوات في أمور الدنيا، وأن يقتصر على قدر الحاجة فقط، كما كان النّبيّ ﷺ يفعل ذلك، وذكر آيات فيها بيان عاقبة الذين يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات، فذكر قول الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أي: من بعد الأنبياء الذين ذكروا

---

(١) رواه البخاري (٥٤١٦) ومسلم (٢٩٧٠) .
(٢) رواه البخاري (٢٥٦٧) ومسلم (٢٩٧٢) .
(٣) رواه البخاري (٥٤١٤) .

قبل هذه الآية، خلف من بعدهم خلفٌ لم يتبعوا طريقهم، وإنما ﴿ أَضَاعُوا الصَّلاةَ ﴾.

وإضاعة الصلاة يعني: التفريط فيها، وفي شروطها كالطهارة، وستر العورة، واستقبال القبلة.

وفي أركانها: كالطمأنينة في الركوع، وفي السجود، والقيام، والقعود.

وفي واجباتها: كسؤال المغفرة بين السجدتين والتسبيح في السجود، والتشهد الأول، وما أشبه ذلك.

وأشدُّ من هذا الذين يؤخرونها عن وقتها، فلا يصلون إلا بعد خروج الوقت، فإن هؤلاء إما أن يكون لهم عذر من نوم أو نسيان، فصلاتهم مقبولة ولو بعد الوقت، وإما ألا يكون لهم عذر فصلاتهم مردودة لا تُقبل منهم، ولو صلوا ألف مرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ يعني: ليس لهم همّ إلاّ الشهوات، ما تشتهيه بطونهم وفروجهم، فهم ينعمون أبدانهم، ويتبعون ما تنعم به الأبدان، ويضيعون الصلاة والعياذ بالله.

ثم قال سبحانه مبينًا جزاءهم: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ وهذا وعيد لهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) ﴾.

وحديث عائشة ﵂ في بيان عيش النّبيّ ﷺ، أنه ما شبع من خبز ليلتين تباعًا؛ لقلة ذات يده عليه الصلاة والسلام، وأنه كان يمضي عليه الشهران في ثلاثة أهلة ما يوقد في بيته نار، وإنما هو الأسودان التمر والماء، مع أنه ﷺ لو شاء لصارت الجبال معه ذهبًا، واقتصر من الدنيا على الضرورة منها فقط، وادّخر حظه في الآخرة.

صفة خلق رسول الله ﷺ

حسن الخلق يكون مع الله ويكون مع عباد الله.

أما حسن الخلق مع الله فهو: الرضا بحكمه شرعًا وقدرًا، وتلقى ذلك بالإنشراح وعدم التضجّر، وعدم الأسى والحزن، فإذا قدر الله على المسلم شيئًا يكرهه رضي ذلك واستسلم وصبر، وقال بلسانه وقلبه: رضيت بالله ربًا، وإذا حكم الله عليه بحكم شرعي رضي واستسلم، ونفّذ شريعة الله عز وجل بصدر منشرح ونفس مطمئنة، فهذا حسن الخلق مع الله عز وجل.

أما مع الخلق: فيحسن الخلق معهم بما قاله بعض العلماء من: كف الأذى، وبذل الندى وطلاقة الوجه.

كف الأذى: بألا يؤذي الناس لا بلسانه، ولا بجوارحه، وبذل الندى: يعني العطاء، فيبذل العطاء من مال، وعلم وجاه، وغير ذلك، وطلاقة الوجه: بأن يُلاقي الناس بوجه منطلق، ليس بعبوس ولا مصعر خده ، وهذا هو حسن الخلق.

ولا شك أن الذي يفعل هذا، فيكف الأذى ويبذل الندى، ويجعل وجهه منطلقًا، لا شك أنه سيصبر على أذى الناس، فإن الصبر على أذى الناس لاشك أنه من حسن الخلق، فإن من الناس من يؤذي أخاه، وربما يعتدي عليه بما يضره، يأكل ماله أو يجحد حق له أو ما أشبه ذلك، فيصبر ويحتسب الأجر من الله سبحانه وتعالى، والعاقبة للمتقين، وهذا كله من حسن الخلق مع الناس.

ويقول تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④﴾ [القلم: ٤]، وهذا معطوف على جواب القسم: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④﴾ [القلم: ١ - ٤]، ﴿وَإِنَّكَ﴾ يعني: يا محمد، ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ لم يتخلق أحد بمثله، في

كل شيء، خُلق مع الله، خُلق مع عباد الله، في الشجاعة، والكرم، وحسن الخلق، وحسن المعاملة، وفي كل شيء.

وكان ﷺ خلقه القرآن، يتأدب بآدابه، ويمتثل لأوامره، ويجتنب نواهيه.

ومن آية آل عمران في قوله: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وهذه من صفات المتقين الذي أعد الله لهم الجنة، كما قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ يعني: الذين يكتمون غضبهم، فإذا غضب ملك نفسه وكظم غيظه، ولم يتعدَّ على أحد بموجب هذا الغضب.

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ إذا أساءوا إليهم، ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فإن من الإحسان أن تعفو عن من ظلمك، ولكن العفو له محل، إن كان المعتدي أهلاً للعفو، فالعفو محمود، وإن لم يكن أهلاً للعفو فإن العفو ليس بمحمود؛ لأن الله تعالى قال في كتابه: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠].

فلو أن رجلاً اعتدى عليك بضربك أو أخذ مالك أو إهانتك أو ما أشبه ذلك، فهل الأفضل أن تعفو عنه أم لا؟

نقول في هذا التفصيل: إن كان الرجل شريراً سيئًا إذا عفوت عنه ازداد في الإعتداء عليك وعلى غيرك، فلا تعفُ عنه، خذْ حقك منه بيدك، إلا أن تكون تحت ولاية شرعية فترفع الأمر إلى من له الولاية الشرعية، وإلا فتأخذه بيدك ما لم يترتب على ذلك ضرر أكبر.

والمهم أنه إذا كان الرجل المعتدي سيئًا شريراً فهذا ليس أهلاً للعفو فلا تعفُ عنه، بل الأفضل أن تأخذ بحقك؛ لأن الله يقول: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ والعفو في مثل هذه الحال ليس بإصلاح.

أما إذا كان الرجل حسن الخلق، لكن بدرت منه هذه الإساءة، فالأفضل العفو عنه ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، والنفس ربما تأمرك أن تأخذ بحقك، ولكن كما قلت: إذا كان الإنسان أهلاً للعفو فالأفضل أن تعفو عنه وإلا فلا.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «ما مسست ديباجًا ولا حريرًا ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا» (١).

ما نقله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من يدي رسول الله ﷺ. وكان أنس بن مالك رضي الله عنه قد خدم النبيّ ﷺ عشر سنين، جاءت به أمه حين قدم النبيّ ﷺ المدينة، فقالت: يا رسول الله هذا أنس بن مالك يخدمك، فقبل ﷺ أن يخدمه، ودعا له أن يبارك الله له في ماله وولده، فبارك الله في ماله وفي ولده، حتى قيل: إنه كان له بستان يُثمر في السنة مرتين، من بركة المال الذي دعا له رسول الله ﷺ به، أما أولاده من صلبه فبلغوا مئة وعشرين ولدًا، كان هذا ببركة دعوة النّبيّ ﷺ.

يقول: إنه ما مسّ ديباجًا ولا حريرًا ألين من يد رسول الله ﷺ فكانت يده ﷺ لينة إذا مسها الإنسان فإذا هي لينة، وكما ألان الله يده فقد ألان الله سبحانه وتعالى قلبه، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ يعني صرت لينًا لهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكذلك أيضًا رائحته ﷺ ما شم طيب أحسن من رائحة النّبيّ ﷺ، وكان عليه الصلاة والسلام طيب الريح كثير استعمال الطيب، قال: «حُبّبَ إليّ من دنياكم النساء والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة» (٢)، وهو نفسه ﷺ،

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦١) ومسلم (٢٣٣٠).

(٢) رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

طيب حتى كان الناس قد يتبادرون إلى أخذ عرقه وريقه وثيابه، أما غير الرسول فلا يتبرك بعرقه، ولا ثيابه ولا ريقه.

يقول: لقد خدمت النبيّ ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف قط - يعني ما تضجر منه أبداً - عشر سنوات يخدمه ما تضجر منه، والواحد منّا إذا خدمه أحد، أو صَاحَبَهُ أحدٌ لمدة أسبوع، أو نحوه لابد أن يجد منه تضجراً، لكن الرسول ﷺ عشر سنوات وهذا الرجل يخدمه ومع ذلك ما قال له أف قط.

أتدرون ما العفو؟ ما عفا من أخلاق الناس وما تيسّر، يعني: خذ من الناس ما تيسّر،ولا تزيد أن يكون الناس لك ما تريد في كل شيء، من أراد أن يكون الناس له على ما يريد في كل شيء فاته كل شيء، ولكن خذ ما تيسّر، عامل الناس بما إن جاءك قبلت، وإن فاتك لم تغضب، ولهذا قال: «ما قال لشيء لم أفعله: لم تفعل كذا وكذا؟» وهذا من حسن خلقه عليه الصلاة والسلام.

ومن حسن خلقه ﷺ أنه كان لا يُداهن الناس في دين الله، ولا يفوته أن يطيب قلوبهم، فالصعب بن جثامة رضي الله عنه مرّ به النّبيّ ﷺ، والنّبيّ ﷺ محرم، وكان الصعب بن جثامة عداء راميًا، عداء: يعني سبوقًا، راميًا: يعني يُجيد الرمي.

فلما نزل به النّبيّ ﷺ ضيفًا رأى أنه لا أحد أكرم ضيفًا منه فذهب يصيد للرسول ﷺ صيدًا، فصاد له حمارًا وحشيًا، وكان في الجزيرة العربية في ذلك الوقت كثير من الصيد، لكنها قلت، صاد له حمارًا وحشيًا وجاء به إليه، فردّه النّبيّ ﷺ فصعب ذلك على الصعب، كيف يرد النبيّ ﷺ هديته؟ فتغيّر وجهه، فلما رأى ما في وجهه طيب قلبه، وقال: «إنّا لم نرده عليك إلاّ أنا حرم» يعني: محرمون، والمُحرم لا يأكل من الصيد الذي صيد من أجله.

ولهذا أكل النّبيّ ﷺ من الصيد الذي صاده أبو قتادة رضي الله عنه لأن أبا قتادة لم يصده من أجل الرسول ﷺ، وهذا أحسن ما قيل في هذه المسألة، إنه إذا صيد

الصيد من أجل المحرم كان حرام عليه، وإن صاده الإنسان لنفسه وأطعم منه المحرم فلا بأس، على أن بعض العلماء قال: إن المحرم لا يأكل من الصيد مطلقًا، صيد من أجله أم لا، قالوا: لأن حديث الصعب بن جثامة متأخر عن حديث أبي قتادة، فإن حديث أبي قتادة كان في غزوة الحديبية في السنة السادسة،وحديث الصعب بن جثامة في حجة الوداع في السنة العاشرة، ويُؤخذ بالآخر فالآخر.

ولكن القاعدة الأصولية الحديثية تابى هذا القول؛ لأنه لا يحال إلى النسخ إلاّ إذا تعذر الجمع، فإذا أمكن الجمع فلا نسخ، والجمع هنا ممكن، وهو أن يقال: إن صيد لأجل المحرم فحرام، وإن صاده الإنسان لنفسه وأطعم منه المحرم فلا بأس.

ويُؤيد هذا حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النّبيّ ﷺ قال: **«صيد البر حلال لكم ما لم تصيدوه أو يصد لكم»**، وهذا تفصيل واضح، ما لم تصيدوه أو يصد لكم.

الحاصل أن هذا الحديث حديث الصعب بن جثامة ﷺ فيه فائدتان عظيمتان:

الأولى - أن النّبيّ ﷺ لا يداهن أحدًا في دين الله، وإلا لكان قَبِلَ الهدية من الصعب، وسكت إرضاء له ومداهنة له، لكنه عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يفعل هذا.

الثانية - أنه ينبغي للإنسان أن يجبر خاطر أخيه إذا فعل معه ما لا يحب، ويُبين السبب؛ لأجل أن تطيب نفسه، ويطمئن قلبه، فإن هذا من هدي النّبيّ ﷺ.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: **«إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا»** (١).

وفي هذه الأحاديث بيان صفة الرسول ﷺ وأنه: **«لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا»** يعني أنه ﷺ بعيد عن الفحش طبعًا وكسبًا، فلم يكن فاحشًا في

(١) رواه البخاري (٦٥٥٩) ومسلم (٢٣٢١).

نفسه ولا في غريزته، بل هو لين سهل، ولم يكن متفحشًا أي: لم يكن متطبعًا بالفحشاء. بل كان ﷺ أبعد الناس عن الفحش في مقاله وفي فعله ﷺ.

وفيه أيضًا: الحث على حسن الخلق، وأنه من أثقل ما يكون من الميزان يوم القيامة، وهذا من باب الترغيب فيه، فعليك يا أخي المسلم أن تُحسن خلقك مع الله عز وجل، في تلقّي أحكامه الكونية والشرعية بصدر منشرح منقاد راضٍ مستسلم، وكذلك مع عباد الله، فإن الله تعالى يحب المحسنين.

وعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: «بينما أنا أُصلي مع رسول الله ﷺ إذْ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أماه، ما شأنكم تنظرون إليَّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكنّي سكتُّ، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت مُعلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لايصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير، وقراءة القرآن» أو كما قال رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإنّ منّا رجالاً يأتون الكهان؟ قال: «فلا تأتهم» قلت: ومنّا رجال يتطيرون؟ قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنهم»[(١)].

حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه أنه بينما كان مع النّبيّ ﷺ يُصلي إذْ عطس رجل من القوم، فقال: الحمد لله، فقال له معاوية: يرحمك الله؛ لأنك إذا سمعت العاطس يحمد الله بعد عطاسه، وجب عليك أن تُشمته، فتقول: يرحمك الله، حتى ولو كنت تقرأ أو تطالع أو تراجع، أما في الصلاة فلا يجوز؛ لأن الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، ولهذا أنكر الناس بأعينهم على معاوية، فرموه بأبصارهم، فقال: واثكل أماه، ماذا صنعت؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على

---

(١) رواه مسلم. والثكل – بضم الثاء المثلثة –: المصيبة والفجيعة. «ما كهرني» أي ما نهرني.

أفخاذهم يسكتونه، فسكت ومضى في صلاته، فلما انصرف من الصلاة دعاه النبيّ ﷺ فقال: بأبي وأمي، ما رأيت مُعلمًا أحسن تعليمًا منه لا قبله ولا بعده، والله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، وإنما خاطبه بلطف، وقال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فهذه موعظة قصيرة مفيدة، انتفع بها معاوية، ونقلها إلى من بعده.

وفي هذا الحديث دليل: على أنه لا بأس أن يلتفت المصلي أو ينظر إذا كان ذلك لمصلحة أو حاجة وإلاّ فالأفضل أن يكون نظره إلى موضع سجوده، وفي حال الجلوس يكون نظره إلى موضع إشارته؛ لأن الجالس في التشهد أو بين السجدتين يرفع إصبعه قليلاً ويشير بها عند الدعاء، فيكون نظره إلى موضع إشارته، وأما في حال القيام والركوع فينظر إلى موضع سجوده.

وقال بعض العلماء: ينظر تلقاء وجهه، والأمر في هذا واسع، إن شاء نظر إلى موضع سجوده، وإن شاء نظر تلقاء وجهه، لكن إذا حصل شيء والتفت فإن ذلك لا بأس به.

وفيه أيضًا: أن العمل اليسير في الصلاة لا يضر؛ لأن الصحابة جعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، ولم يُنكر النبيّ ﷺ عليهم ذلك، إلاّ أنه ﷺ قال في حديث آخر: «**إذا نابكم شيء فليسبح الرجال ولتصفق النساء**».

وفيه دليل: على أن الكلام في الصلاة لا يجوز، وأنه مبطل لها إلا إذا كان الإنسان جاهلاً أو ناسيًا أو غافلاً، فمثلاً لو أن أحدًا سلّم عليك وأنت تُصلي أو دقّ الباب وأنت تصلي فقلت غافلاً: ادخل، أو قلت: وعليكم السلام ناسيًا أو غافلاً، فصلاتك صحيحة؛ لأن الله لا يؤاخذ الإنسان بالجهل أو بالنسيان أو بالغفلة: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

ومن فوائد الحديث: حسن تعليم النّبيّ ﷺ وأنه يعلم بالرفق واللين، وهذا هديه ﷺ وهو أسوة أمته، فالذي ينبغي للإنسان أن يُنزِلَ الناس منازلهم، فالمعاند المكابر يُخاطب بخطاب يليق به، والجاهل الملتمس للعلم يُخاطب بخطاب يليق به.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الآدميين، وإنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن، أو كما قال عليه الصلاة والسلام، والصلاة كما تعلم فيها قراءة قرآن، وفيها تكبير وفيها تسبيح، وفيها دعاء وفيها تشهد.

وفي الحديث: الثناء على الواعظ إذا كانت عظته جيدة، وليس عنده عنف، وهذا يُشجع أهل الوعظ على أن يلتزموا بهذه الطريقة التي التزم بها رسول الله ﷺ، وفي سياق حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية، وإن الله تعالى قد جاء بالإسلام، قال هذا الكلام ليبين حاله من قبل وحاله من بعد، وليتحدث بنعمة الله عليه، حيث كانوا في جاهلية لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرا إلا ما جرت به العادات بينهم.

وجاءنا الله بهذا الإسلام، بالنور المبين، والفرقان العظيم، فبيّن الحق من الباطل، وبين النافع من الضار، وبين الإيمان من الكفر، والتوحيد من الشرك إلى غير ذلك مما منّ الله به على هذه الأمة بالإسلام، ثم قال للرسول ﷺ: وإنّ منّا رجالاً يأتون الكهان. قال: «فلا تأتهم»، والكهان كانوا رجالاً تنزل عليهم شياطين الجن بما يسمعون من خبر السماء، ثم يحدثون الناس بما أخبرت به الشياطين، ويُضيفون إلى الخبر الحق أشياء كثيرة من الكذب، فإذا صدقوا في واحد من مئة، اتخذهم الناس حكامًا، ولهذا يأتون إليهم ويتحاكمون إليهم.

فالكاهن عبارة عن رجل يأتيه الشيطان يُخبره بما سمع من خبر السماء، ويضيف إلى هذا الخبر أشياء كثيرة من الكذب، يأتيهم الناس فيسألونهم: ما حالنا؟ ما مستقبلنا؟ يسالونهم عن أمور مستقبلية عامة أو خاصة، فيخبرونهم بما سمعوا من أخبار الشياطين.

قال النّبيّ ﷺ : «فلا تأتهم» كلمة واحدة لا تات الكهان، وهل تظن معاوية أو غيره من الصحابة إذا قال لهم رسول الله ﷺ : لا تفعلوا. ان يفعلوا؟ لا، لا نظن ذلك؛ فإنهم ليسوا كحال كثير من الناس اليوم، يكرر عليه النهي ولكنه لا ينتهي، أو يتأول ويقول: النهي للكراهة،أو النهي للأدب أو لخلاف الأولى، وما أشبه ذلك، ثم اعلم أن الكاهن هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل.

وإذا أتاه الإنسان فله ثلاث حالات:

الحال الأول - أن يأتيه يسأله ولا يصدقه، فثبت في «صحيح مسلم» أن من فعل هذا لا تُقبل له صلاة أربعين يومًا.

الحال الثانية - أن يأتيه يسأله ويصدقه فهذا كافر لقوله ﷺ : **«من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد»** ووجه كفره أن تصديقه إياه يتضمن تكذيب قول الله جل وعلا: **﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾** [النمل: ٦٥]؛ لأن الكاهن يُخبر عن الغيب في المستقبل، فإن صدقته فمضمونه أنك تكذب هذه الآية فيكون ذلك كفرًا.

الحال الثالثة - أن يسأل الكاهن ليكذبه، وإنما يسأله اختبارًا، فهذا لا بأس به، وقد سأل النّبيّ ﷺ ابن صَيَّاد عما أضمر له، فقال له: «الدخ» يعني: الدخان، فقال له النّبيّ ﷺ : **«إخسأ فلن تعدو قدرك»**، فإذا سأله ليفضحه ويكشف ستره، وكذبه وحاله للناس؛ فإن هذا لا بأس به،بل إن هذا يكن محمودًا مطلوبًا لما في ذلك من إبطال الباطل.

ثم سأل معاوية رضي الله عنه رسول الله ﷺ سؤالاً آخر، قال: ومنّا رجال يتطيرون؟ قال: **«ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم»** .

والتطير: هو التشاؤم بالأشياء، وكان العرب يتشاءمون أكثر ما يتشاءمون في الطيور، فإذا طار يمينًا فله حال، وإن طار يسارًا فله حال، وإن اتجه أمامًا فله حال، أو رجع فله حال حسب اصطلاحات العرب وخرافاتهم، فكانوا يتطيرون،

فيجعلون الطيور هي التي تمضيهم أو تردهم إذا طار الطير مثلاً عن اليسار، قال: هذا نذير سوء فلا أسافر، إذا طار يمينًا قال: هذا سفر مبارك حيث اليمين من اليُمن والبركة، وهكذا اصطلاحات عندهم.

فكانوا يتشاءمون أكثر ما يتشاءمون في الطيور، وربما تشاءموا من الأيام،وربما تشاءموا من الشهور، وربما تشاءموا فيما يصنعون من الأصوات، وربما تشاءموا حتى من الأشخاص، حتى إنه يوجد الآن اناس إذا خرج أحدهم من بيته ثم لاقاه شخص قبيح المنظر قال: هذا اليوم يوم سوء وتشاءم، وإذا لقي رجلاً جميل الوجه قال: هذا اليوم خير فتفاءل. فقال النّبيّ ﷺ: «هذا شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم».

والإنسان إذا ركن إلى التطير تنَغَّصَت عليه حاله، وربما تصنع الجن ما يكره ليبقى دائمًا في غمّ وهمّ، ولكن لا تتشاءم، وكان العرب يتشاءمون من شهر شوال في النكاح، يقولون :الذي يتزوج في شهر شوال لا يوفق في زواجه، هكذا كانوا يقولون، فكانت عائشة ﵂ تقول: تزوجني النّبيّ ﷺ في شوال، عقد عليها في شوال، ودخل بها في شوال، فتقول: أيكم أحظى إليه مني؟.

لا شكّ أن عائشة أحب النساء إليه بعد أن تزوجها ومع ذلك عقد عليها في شوال، ودخل عليها في شوال والعرب لجهلهم وسخافتهم يقولون: الذي يتزوج في شوال لا يوفق، ونحن الآن نُشاهد أُناسا يتزوجون في شوال ولا يكون فيهم إلاّ الخير.

فالمهم أنه يجب عليك أن تمحو من قلبك التطير والتشاؤم، وكنْ دائمًا متفائلاً، واجعل الدنيا أمامك واسعة، واجعل الطريق أمامك دائمًا مفتوحًا، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يكره الطيرة ويعجبه الفأل الحسن.

فاجعل نفسك دائمًا في تفاؤل، والذي يريده الله سيكون، لكن كن مسرورًا فرحًا؛ فالدنيا أمامك واسعة، والطريق مفتوح، ودائمًا كن في تفاؤل، ودائمًا كنْ

واسع الصدر، فهذا هو الخير، أما التشاؤم والإنقباض، وأن يجعل الإنسان باله في كل شيء، فإن الدنيا ستضيق عليه، فمن محاسن الإسلام أنه ألغى الطيرة وأثبت الفأل؛ لأن الفأل خير والطيرة شر.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: «بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبيّ ﷺ: «دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء، أو ذنوبًا من ماء، فإنما بعثتم ميسّرين ولم تُبعثوا معسّرين»[1].

حديث أبي هريرة ﷺ أن أعرابيًا بال في المسجد، أعرابي: يعني بدوي، والبدوي في الغالب لا يعرف أحكام الشرع؛ لأنه يعيش في البادية في إبله، أو في غنمه، وليس له علم بشريعة الله، كما قال الله تعالى: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧]، يعني أقرب ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله؛ لأنهم في باديتهم بعيدون عن الناس وعن العلم والشرع.

فهذا الأعرابي دخل المسجد واحتاج إلى أن يبول، فبال في المسجد - أي تنحّى وبال في المسجد - فهمّ الناس أن يقعوا فيه وزجروه، ولكن النبيّ ﷺ قال لهم: «دعوه» أي يقضي بوله «وأريقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذنوبًا من ماء؛ فإنما بُعثم ميسّرين ولم تُبعثوا معسّرين» فتركه الناس، فلما قضى بوله صبوا عليه ذنوبًا من الماء - يعني: دلواً من الماء - فطهر المحل، وزال المحذور، ثم دعا بالأعرابي وقال له: إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى أو القذر، وإنما هي للصلاة، وقراءة القرآن والتكبير. أو كما قال ﷺ.

ففي هذا الحديث فوائد كثيرة:

منها: العذر بالجهل، وأن الإنسان الجاهل لا يُعامل كما يعامل العالم؛ لأن

---

(١) رواه البخاري، و«السجل» بفتح السين المهملة وإسكان الجيم: وهي الدلو الممتلئة ماء، كذلك الذنوب.

العالم معاند، والجاهل متطلع للعمل فيعذر بجهله، ولهذا عذره النبيّ ﷺ ورفق به.

ومنها، أن الشرع يقتضي دفع أعلى المفسدتين بأدناهم، يعني: إذا كان هناك مفسدتان لابد من ارتكاب أحدهما، فإنه يرتكب الأسهل، فهنا أمامنا مفسدتان:

الأولى - استمرار هذا الأعرابي في بوله، وهذه مفسدة.

الثانية - إقامته من بوله، وهذه مفسدة أيضًا لكن هذه أكبر؛ لأن هذه يترتب عليها:

أولاً - الضرر على هذا البائل؛ لأن البائل إذا منع البول المتهيئ للخروج ففي ذلك ضرر، فربما تتاثر مجاري البول ومسالك البول.

ثانيًا - أنه إذا قام فإما أن يقطع رافعًا ثوبه؛ لئلاّ تُصيبه قطرات البول، وحينئذ تكون القطرات منتشرة في المكان، وربما تأتي على أفخاذه ويبقى مكشوف العورة أمام الناس وفي المسجد، وإما أن يدلي ثوبه، وحينئذ يتلوث الثوب ويتلوث البدن وهذه أيضًا مفسدة.

فلهذا ترك النّبيّ ﷺ هذا الرجل يبول حتى انتهى، ثم أمر بأن يُصب عليه ذنوبًا من ماء.

وعلى هذا فيكون لدينا قاعدة: إذا اجتمعت مفسدتان لابد من ارتكاب إحداهما، فإنه يرتكب الأسهل والأخف؛ دفعًا للأعلى، كما أنه إذا اجتمعت مصالح ولا يمكن فعل جميعها فإنه يُؤخذ الأعلى فالأعلى، ففي المصالح يقدم الأعلى، وفي المفاسد يقدم الأسهل والأدنى.

ومن فوائد هذا الحديث:

وجوب تطهير المسجد وأنه فرض كفاية؛ لقول الرسول ﷺ: «**أريقوا على بوله سجلاً من الماء**» فيجب على من رأى نجاسة في المسجد أن يطهرها بنفسه، أو يبلغ من هو معنيّ بالمسجد ومسئول عنه حتى يقوم بتطهيره.

ومنها: اشتراط طهارة مكان المصلِّي، فالمصلِّي يجب عليه أن يطهر ثوبه وبدنه ومكان صلاته، لابد من ذلك سواء أرضًا كانت أو فرشًا أو غير ذلك، المهم أنه لابد من طهارة مكان المصلى.

ومنها: أن الأرض يكفي في تطهيرها أن يصبّ على النجاسة ماء مرة واحدة، فإذا غمرت بالماء طهرت، لكن إن كانت النجاسة ذات جرم كالغائط والروث وما أشبهها، فلابد من زوال هذا الجرم، وبعدها يطهر المحل بصب ماء عليه.

ومنها: أنه لابد من الماء في تطهير النجاسة لقوله ﷺ : **«أريقوا على بوله سجلاً من ماء»** وأن النجاسة لا تطهر بغير الماء، وهذا ما عليه أكثر العلماء.

والصحيح أن النجاسة تطهر بكل ما يزيلها من ماء أو بنزين أو غيره، وإنما أمر النّبيّ ﷺ بصب الماء على مكان البول؛ لأنه أسرع في تطهير المكان، وإلاّ فمن الممكن أن يبقى المكان لا يصب عليه الماء، ثم مع الرياح والشمس تزول النجاسة ويطهر، لكن هذا أسرع وأسهل.

ومن المعلوم أنه في عهد الرسول ﷺ لا توجد هذه المزيلات الكيماوية أو البترولية؛ فلذلك كانوا يعتمدون في إزالة النجاسة على الماء، ولكن متى زالت النجاسة طهر المحل بأي مزيل كان؛ لأن النجاسة عين خبيثة نجسة، عين متى زالت عاد المحل إلى طهارته بأي شيء كان؛ ولهذا يطهر البول والغائط بالأحجار، يستجمر الإنسان بالحجر ثلاث مرات مع الإنتقاء ويكفي.

وثوب المرأة الذي تجره إذا مرّ بالنجاسة، ثم مرّ بعد ذلك بأرض طاهرة طهره، وكان من عادة النساء في عهده ﷺ أن المرأة إذا خرجت واتخذت ثوبًا حاميًا يسترُ قدميها وينجر من ورائها إلى شبر أو شبرين أو ذراع، ولكن لا يزاد على ذراع، هذا في عهد الرسول ﷺ، عهد النساء الطاهرات في الزمن الطاهر، فما بالك اليوم؟! لكن مع الأسف أن المسلمين اليوم لا ينظرون إلى من سلف من هذه الأمة، ولكنهم ينظرون إلى من تأخر من هذه الأمة إلى الخلف، الذين قال الله

فيهم: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم: ٥٩].

ومن فوائد حديث الأعرابي:

حسن خلق الرسول ﷺ وتعليمه، ورفقه، وأن هذا هو الذي ينبغي لنا إذا دعونا إلى الله، أو أمرنا بمعروف أو نهينا عن منكر أن نرفق؛ لأن الرفق يحصل به الخير، والعنف يحصل به الشر، ربما إذا عنفت أن يحصل من قبيلك ما يسمونه برد الفعل، ولا يُقبل منك شيئًا، يُرد الشرع من أجلك، لكن إذا رفقت وتأنيت فهذا هو الأقرب إلى الإجابة.

ومنها: أن الرسول ﷺ جعل هذه الأمة مبعوثة فقال: «**فإنما بعثتم**» مع أن المبعوث هو، لكن أمته يجب أن تقوم مقامه في الدعوة إلى دينه ﷺ، وأن يكون الإنسان كأنه المبعوث، وكأنه الرسول في تبليغ الشرع، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**ليبلغ الشاهد منكم الغائب**» فنحن أمة محمد ﷺ علينا أن نُبلغ شرعه إلى جميع الناس، ولهذا قال: «**إنما بُعثتم ميسّرين ولن تبعثوا معسرين**».

وفي هذا الحديث: أن الرسول ﷺ لما علم الأعرابي بهذا اللطف واللين، وقال: «**إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى والقذر**» قال الأعرابي: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، انظر كيف انشرح صدره بكلام محمد ﷺ، أما الجماعة من الصحابة ﷺ لما أغضبوه وانتهروه، رأى – وهو أعرابي لا يعرف – أن الجنة والرحمة تكون له ولمحمد، وغيرهما لا يرحمون، وليته قال: اللهم ارحمني ومحمداً وسكت، بل قال: ولا ترحم معنا أحداً، فتحجر الرحمة، لكنه جاهل، والجاهل له حكمه.

فالحاصل أن الإنسان ينبغي له أن يرفق في الدعوة، وفي الأمر، وفي النهي، وجربوا وانظروا أيهما أصلح، ونحن نعلم عليم اليقين أن الأصلح هو الرفق؛ لأن هذا هو الذي قاله الرسول ﷺ وهو الذي اتبعه في هديه ﷺ.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غِرتُ على أحدٍ من نساء النّبيّ ﷺ ما غرتُ على خديجة رضي الله عنها، وما رأيتها قط، ولكن كان يُكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلتُ له: كأن لم يكن في الدنيا إلاّ خديجة، فيقول: «**إنها كانت وكانت، و كان لي منها ولد**»[1].

وفي رواية: «وإن كان ليذبح الشاة، فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن».

وفي رواية: «كان إذا ذبح الشاة يقول: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة**».

وفي رواية قالت: «استاذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك، فقال: «**اللهم هالة بنت خويلد**».

قولها: «فارتاح» هو بالحاء، وفي الجمع بين الصحيحين للحميدي: «فارتاع» بالعين، ومعناه: اهتم به.

كذلك أيضًا يبقى من البر بعد موت الوالدين ما ذكره النبيّ ﷺ حين سُئل: هل بقي من بر أبويّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال ﷺ: «**نعم، الصلاة عليهما**» يعني الدعاء لهما، وليس المراد صلاة الجنازة، بل المراد الدعاء، فالصلاة هنا بمعنى الدعاء وهي كقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] وكان النّبيّ ﷺ إذا اتته الصدقة قال: اللهم صلِّ على آل فلان، كما قال عبد الله بن أبي أوفى أنه أتى بصدقة قومه إلى النّبيّ ﷺ، فقال: «**اللهم صلِّ على آل أبي أوفى**» فدعا لهم بالصلاة عليهم.

فقول النّبيّ ﷺ هنا: «**الصلاة عليهما**» يعني الدعاء لهما بالصلاة، فيقول: اللهم صلِّ على أبويّ، أو يدعو لهم بدخول الجنة، والنجاة من النار، وما أشبه ذلك. و«**الاستغفار لهما**» وهو أن يستغفر الإنسان لوالديه، وأما «**إنفاذ عهدهما**» يعني إنفاذ وصيتهما.

هذه خمسة أشياء: الصلاة عليهما، والإستغفار لهما، وإكرام صديقهما،

(١) متفق عليه.

وإنفاذ عهدهما، وصلة الرحم التي لا صلة لك إلاّ بهما، هذه من بر الوالدين.

أما الصدقة لهما، أو قراءة القرآن لهما، أو الصلاة - بأن يصلي الإنسان ركعتين ويقول لوالدي - فهذا لم يأمر به النّبيّ ﷺ ولا أرشد إليه، بل قال: **«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»** ولم يقل: ولد صالح يتصدق له، أو يصلي له، أو يحج له، أو يعتمر له، بل قال: يدعو له؛ فالدعاء خير من العمل الصالح للوالدين، لكن لو فعل الإنسان ونوى بهذا العمل لوالديه لا بأس به؛ لأن الرسول ﷺ لم يمنع سعد بن عبادة أن يتصدق لأمه، بل أذن له، ولا الرجل الذي قال: يا رسول الله، إن أمي لو تكلمت لتصدقت، لو تكلمت لتصدقت.

فهذه خمسة أشياء من بر الوالدين بعد موتهما.

فحديث عائشة ﵂ أنها قالت: ما غرتُ على أحد من نساء النّبيّ ﷺ، ما غرتُ على خديجة ﵂، والغيرة: انفعال يكون في الإنسان، يجب أن يختص صاحبه به دون غيره؛ ولهذه سميت غيرة؛ لأنه يكره أن يكون الغير حبيبًا لحبيبه، والنساء الضرات هن أشد بني آدم غيره.

وعائشة ﵂ كانت حبيبة رسول الله ﷺ ولم يُحبْ أحداً مثلها في حياته، بعد خديجة، وكان ﷺ يحب خديجة؛ لأنها أم أولاده - إلاّ إبراهيم فمن مارية - ولأنها وازرته وساعدته في أول البعثة، وواسته في مالها، فلذلك كان لا ينساها.

فكان في المدينة إذا ذبح شاة أخذ من لحمها وأهداه إلى صديقات خديجة ﵂ ولم تصبر عائشة ﵂ على ذلك، قالت: يا رسول الله كان لم يكن في الدنيا إلاّ خديجة.

قال: **«إنها كانت وكانت»** يعني كانت تفعل كذا، وتفعل كذا، وذكر من خصالها ﵂.

«وكان لي منها ولد» حيث كل أولاده، أربع بنات وثلاثة أولاد، كلهم منها إلا ولداً واحداً هو إبراهيم ﷺ فإنه كان من مارية القبطية التي أهداها إليه ملك القبط، فأولاده كلهم من خديجة؛ فلذلك قال: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد».

ويُستفاد من هذا الحديث: أن إكرام صديق الإنسان بعد موته يعتبر إكرامًا له، وبراً به، سواء كان من الوالدين، أو من الأزواج، أو من الأصدقاء، أو من الأقارب، فإن إكرام صديق الميت يعتبر إكرامًا له.

وعن أنس ﷺ قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبزه بردائه جبزة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النّبيّ ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء» (١).

من الأحاديث قصة هذا الأعرابي، الذي لحق النّبيّ ﷺ وعليه جبة نجرانية غليظة الحاسية، فجبذه - يعني: جذبه جذبًا شديداً - حتى أثرت حاشية الجبة في عنق الرسول ﷺ من شدة الجذب، فالتفت فإذا هو أعرابي يطلب منه عطاء، فضحك النّبيّ ﷺ وأمر له بعطاء.

فانظر إلى هذا الخُلق الرفيع، لم يوبخه النّبيّ ﷺ، ولم يضربه، ولم يكفهر في وجهه، ولم يعبس، بل ضحك ﷺ، ومع هذا أمر له بعطاء، ونحن لو أن أحداً فعل بنا هذا الفعل ما أقررناه عليه بل لضربناه، وأما الرسول ﷺ الذي قال الله فيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم: ٤]، فإنه التفت إليه، وضحك إليه، وأعطاه العطاء.

وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون ذا سعة، وإذا اشتدّ الناس أن يسترخي هو.

وسُئل معاوية ﷺ بم سستَ الناس؟ وذلك لأن معاوية معروف بالسياسة

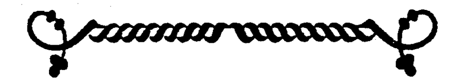
---

(١) متفق عليه.

والحكمة . فقال: أجعل بيني وبين الناس شعرة، إن جذبوها تبعتهم، وإن جذبتها تبعوني، لكن لا تنقطع.

ومعنى كلامه أنه سهل الإنقياد؛ لأن الشعرة إذا جعلتها بينك وبين صاحبك إذا جذبتها أدنى جذب انقطعت، لكن من حسن سياسته ﷺ كان يسوس الناس بهذه السياسة؟ إذا رآهم مقبلين استقبلهم، وإذا رآهم مدبرين تبعهم، حتى يتمكن منهم.

فهكذا ينبغي للإنسان أن يكون دائمًا في سياسته رفيقًا حليمًا كما كان النّبيّ ﷺ هكذا، نسأل الله تعالى أن يرزقنا حسن الآداب والأخلاق.



صفة تواضع الرسول ﷺ

وعنه قال: «إن كانت الأَمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبيّ ﷺ فتنطلق به حيث شاءت»(١).

والتواضع لله له معنيان:

المعنى الأول - أن تتواضع لدين الله، فلا تترفع عن الدين، ولا تستكبر عنه، وعن أداء أحكامه.

والثاني - أن تتواضع لعباد الله من أجل الله، لا خوفًا منهم، ولا رجاء لما عندهم، ولكن لله عز وجل.

والمعنيان صحيحان، فمن تواضع لله، رفعه الله عز وجل في الدنيا وفي الآخرة، وهذا أمر مشاهد، أن الإنسان المتواضع قد يكون مَحلّ رفعة عند الناس، وذكر حسن، ويحبه الناس، وانظر إلى تواضع الرسول ﷺ وهو أشرف الخلق، حيث كانت الأمة من إماء المدينة تأتي إليه، وتأخذ بيده، وتذهب به حيث شاءت ليعينها في حاجتها، وهذا وهو أشرف الخلق، أمة من الإماء تأتي وتأخذ بيده تذهب به حيث شاءت ليقضي حاجتها، ولا يقول: أين تذهبين بي، أو يقول: اذهبي إلى غيري، بل كان يذهب معها، ويقضي حاجتها، لكن مع هذا ما زاده الله عز وجل بذلك إلا عزًا ورفعة صلوات الله وسلامه عليه.

وعن أنس رضي الله عنه أنه مرّ على صبيان فسلّم عليهم، وقال: «كان النّبيّ ﷺ يفعله»(٢).

وعن الأسود بن يزيد قال: سُئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان النّبيّ ﷺ يصنع في

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البخاري (٦٢٤٧) ومسلم (٢١٦٨).

بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله» يعني: خدمة أهله «فإذا حضرت الصلاة، خرج إلى الصلاة» (١).

وعن أبي رفاعة تميم بن أسيد رضي الله عنه قال: «انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب: فقلتُ: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه؟ فاقبل عليَّ رسول الله ﷺ وترك خطبته، حتى انتهى إليَّ، فاتي بكرسيّ، فقعد عليه، وجعل يعلمني مما علّمه الله، ثم اتى خطبته، فاتمّ آخرها» (٢).

بيان تواضع النّبيّ ﷺ:

منها أنه كان يُسلّم على الصبيان إذا مرّ عليهم، يُسلم عليهم مع أنهم صبيان غير مكلّفين، واقتدى به أصحابه رضي الله عنهم، فعن أنس رضي الله عنه أنه كان يمر بالصبيان فيُسلّم عليهم، ويقول: «إن النّبيّ ﷺ إذا مرّ عليهم كان يسلم عليهم» وهذا من التواضع وحسن الخلق، وهذا أيضاً من التربية وحسن التعليم والإرشاد والتوجيه؛ لأن الصبيان إذا سلّم الإنسان عليهم فإنهم يعتادون ذلك، ويكون ذلك كالغريزة في نفوسهم.

إنّ الإنسان إذا مرّ على أحد سلّم عليه، وإذا كان هذا يقع من النّبيّ ﷺ على الصبيان فإننا نأسف لقوم يمرون بالكبار البالغين ولا يسلمون عليهم والعياذ بالله، قد لا يكون ذلك هجراً ولا كراهة، لكن عدم مبالاة، عدم اتباع للسُّنة، جهل، وغفلة، وهم إن كانوا غير آثمين؛ لأنهم لم يتخذوا هذا هجراً، لكنهم قد فاتهم خير كثير.

فالسُّنة: أن تُسلم على كل من لقيت، فإذا فعلت ذلك حصلت على خير كثير، منه اتباع الرسول ﷺ ومنه أنك تكون سبباً لنشر هذه السُّنة التي ماتت عند كثير من الناس، ومعلوم أن إحياء السنن يأخذ الإنسان عليه الأجر مرتين: مرة على فعل السنّة، ومرّة على إحياء السُّنة.

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦).

(٢) رواه مسلم (٨٧٦).

ومنه: أنك تكون السبب في إجابة هذا الرجل، وإجابته فرض كفاية، فتكون سببًا في إيجاد فرض الكفاية من هذا الرجل؛ ولهذا كان ابتداء السلام أفضل من الرد عليه، وإن كان الرد فرض وهذا سنة، ولكن لما كان الفرض ينبني على هذه السُّنة، كانت هذه السنة أفضل من الفرض؛ لأنه مبني عليها.

وهذه من المسائل التي ألغز بها بعض العلماء: فقال عندنا سنة أفضل من الفريضة؛ لأنه من المتفق عليه أن الفرض أفضل، مثلاً صلاة الفجر ركعتان أفضل من راتبتها ركعتين؛ لأنها فرض والراتبة سنة، لكن ابتداء السلام سنة، ومع ذلك صار أفضل من رده؛ لأن رده مبني عليه.

فالمهم أنه ينبغي لنا إحياء هذه السنة، أعني إفشاء السلا، وهو من أسباب المحبة، ومن كمال الإيمان، ومن أسباب دخول الجنة، قال النّبيّ ﷺ: **«ولا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولاأدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»**.

ومن تواضع النّبيّ ﷺ أنه كان في بيته في خدمة أهله، يحلب الشاة، يخصف النعل؛ لأن عائشة سُئلت ماذا كان النّبيّ ﷺ يصنع في بيته، قالت: «كان في مهنة أهله» يعني في خدمتهم عليه الصلاة والسلام.

ومن تواضع الرسول ﷺ أنه كان يصنع الشيء لنفسه، يطبخ ويغسل ما يحتاج غسله، وكل هذا من السنّة وأنت إذا فعلت ذلك تثاب عليه؛ لأنه من السُّنة، واقتداء من الرسول ﷺ وتواضعًا لله عز وجل؛ ولأن هذا يوجب المحبة بينك وبين أهلك؛ لأنه إذا شعر أهلك أنك تساعدهم أحبوك، وإزدادت قيمتك عندهم، ويكون هذا مصلحة كبيرة.

ومن تواضع الرسول ﷺ أنه جاءه رجل وهو يخاطب الناس، فقال: «رجل غريب جاء يسأل عن دينه» فأقبل إليه النّبيّ ﷺ وقطع خطبته، حتى انتهى إليه، ثم جيء إليه بكرسي، يُعلم هذا الرجل؛ لأن هذا الرجل جاء مشفقًا محبًا للعلم،

يريد أن يعلم دينه حتى يعمل به، فاقبل إليه النّبيّ ﷺ وقطع الخطبة، ثم بعد ذلك أكمل خطبته، وهذا من تواضع الرسول ﷺ وحسن رعايته.

فإن قال قائل: أليست المصلحة العامة أولى بالمراعاة من المصلحة الخاصة؟ وحاجة هذا الرجل خاصة، وهو ﷺ يخطب في الجماعة؟ قلنا: نعم لو كانت مصلحة العامة تفوت لكان مراعاة المصلحة العامة أولى، لكن المصلحة العامة لا تفوت، بل إنهم سيستفيدون مما يعلمه الرسول ﷺ لهذا الرجل الغريب، والمصلحة العامة لا تفوت.

وهذا الغريب الذي جاء يسأل عن دينه إذا أقبل إليه الرسول ﷺ وعلمه كان في هذا تأليف لقلبه على الإسلام ومحبة الإسلام، ومحبة الرسول ﷺ وهذا من حكمة رسول الله ﷺ، وفّق الله الجميع لما يحبه ويرضى.

وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا أكل طعامًا لعق أصابعه الثلاث، وقال: **«إذا سقطت لقمة من أحدكم، فلميط عنها الأذى، وليأكلها، ولا يدعها للشيطان»** وأمر أن تسلت القصعة، وقال: **«فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة»** (١).

وعنه ﷺ عن النّبيّ ﷺ قال: **«لو دُعيتُ إلى كراع أو ذراع لقبلتُ، ولو أُهدي إليّ ذراع أو كراع لقبلت»** (٢).

وعن أنس ﷺ قال: «كانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تُسبق، أو لا تكاد تُسبق، فجاء أعرابي على قعود له، فسبقها، فشقّ ذلك على المسلمين حتى عرفه النّبيّ ﷺ فقال: حق على الله أن يرتفع شيء من الدنيا إلاّ وضعه» (٣).

حديث أنس بن مالك ﷺ أن النّبيّ ﷺ كان إذا فرغ من الأكل لعق أصابعه الثلاث.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣٤).
(٢) رواه البخاري (٢٥٦٨).
(٣) رواه البخاري (٢٨٧٢).

وفيه فائدة ذكرها بعض الأطباء أن الأنامل تفرز عند الأكل شيئًا يعين على هضم الطعام، فيكون في لعق الأصابع بعد الطعام فائدتين: فائدة شرعية: وهي الاقتداء بالنبيّ ﷺ.

وفائدة صحية وطبية: وهي هذا الإفراز الذي يكون بعد الطعام يعين على الهضم.

والمؤمن لا يجعل همه فيما يتعلق بالصحة البدنية، أهم شيء عند المؤمن هو اتباع الرسول ﷺ، والإقتداء به؛ لأن فيه صحة القلب، وكلما كان الإنسان للرسول ﷺ أتبع كان إيمانه قوي.

وكذلك فيه: قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا سقطت لقمة أحدكم**» يعني على الأرض أو على السفرة «**فليمط عنها الأذى وليأكلها، ولا يدعها للشيطان**» فإذا سقطت لقمة أو تمرة أو ما أشبه ذلك فخذها وأزل ما فيها من الأذى إن كان فيها أذى من تراب، أو عيدان وكلها، تواضعًا لله عز وجل، وأزل ما فيها من الأذى إن كان فيها أذى من تراب، وامتثال لأمر النّبيّ ﷺ.

والشيطان ربما يشارك الإنسان في أكله في مثل هذه المسألة، وفيما إذا أكل ولم يسمّ، فإن الشيطان يشاركه أكله.

والثالث – أمره بإسلات الصحن أو القصعة، وهو الإناء الذي فيه الطعام، فإذا انتهيت فاسلته، بمعنى أن تتبع ما علق فيه من طعام بأصابعك وتلعقها.

فهذا أيضًا من السنة التي غفل عنها كثير من الناس مع الأسف حتى من طلبة العلم أيضًا، إذا فرغوا من الأكل وجدت الجهة التي تليهم مازال الأكل باقيًا فيها، لا يلعقون الصحفة، وهذا خلاف ما أمر به النّبيّ ﷺ، ثم بيّن الرسول ﷺ الحكمة من ذلك فقال: «**إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة**»: قد تكون البركة من هذا الطعام في هذا الذي سلته من القصعة.

وفي هذا الحديث: حسن تعليم الرسول ﷺ، و أنه إذا ذَكَر الحُكْم ذَكَرَ الحكمة منه؛ لأن ذِكْر الحِكْمَة مقرونًا بالحُكْم يُفيد فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: بيان سمو الشريعة، وأنها شريعة مبنية على المصالح، فما من شيء أمر الله به رسوله ﷺ إلاّ والمصلحة في وجوده، وما من شيء نهى عنه الله ورسوله ﷺ إلا والمصلحة في عدمه.

الفائدة الثانية: زيادة اطمئنان النفس؛ لأن الإنسان بشر قد يكون عنده إيمان وتسليم بما حكم الله به ورسوله، لكن إذا ذكرت الحكمة ازداد إيمانًا وازداد يقينًا، ونشط على فعل المأمور، أو ترك المحظور.

وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه في قصة الأعرابي الذي جاء بقعود له (ناقة ليست كبيرة، أو جمل ليس بكبير) وكانت ناقة النّبيّ ﷺ العضباء، وهي غير القصواء التي حجّ عليها، هذه ناقة أخرى – وكان من هديّ الرسول ﷺ أنه يسمي دوابه وسلاحه، و ما أشبه ذلك.

فالعضباء هذه كان الصحابة رضي الله عنهم يرون أنها لا تُسبق أو لا تكاد تُسبق، فجاء هذا الأعرابي بقعوده فسبق العضباء، فكان ذلك شق على الصحابة رضي الله عنهم فقال النّبيّ ﷺ لما عرف ما في نفوسهم: **«حقّ على الله ألاّ يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه».**

فكل ارتفاع يكون في الدنيا فإنه لابد أن يعول إلى انخفاض، فإن صحب الإرتفاع ارتفاعٌ في النفوس، وعلوٌ في النفوس؛ فإن الوضع إليه أسرع؛ لأن الوضع يكون عقوبة، أما إذا لم يصحبه شيء فإنه لابد أن يرجع ويوضع، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾ [يونس: ٢٤]، أي ظهر فيه من كل نوع، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ [يونس: ٢٤]، ذهبت كلها، كل هذه الزينة، وكل هذا النبات الذي اختلط من كل صنف، كله يزول كأن لم يكن، وهكذا الدنيا كلها تزول كأن لم تكن، حتى الإنسان نفسه

يبدو صغيراً ضعيفاً، ثم يقوى، فإذا انتهت قوته عاد إلى الضعف والهرم، ثم إلى الفناء، وإلى العدم، فما من شيء ارتفع من الدنيا إلاّ وضعه الله عز وجل.

وفي قوله ﷺ: «من الدنيا» دليل على أن ما ارتفع من أمور الآخرة لا يضيعه الله أبداً.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن امرأة سوداء كانت تقمّ المسجد، أو شابًا، ففقدها، أو فقده رسول الله ﷺ، فسأل عنها أو عنه، فقالوا: مات. قال: **«أفلا كنتم آذنتموني»** فكأنهم صغروا أمرها، أو أمره، فقال: **«دلوني على قبره»** فدلوه فصلى عليه، ثم قال: **«إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله تعالى ينورها لهم بصلاتي عليهم»** (١).

فيما نقل عن أبي هريرة رضي الله عنه أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد أو شابًّا، وأكثر الروايات على أنها امرأة سوداء، كانت تقم المسجد، يعني تنظفه وتُزيل القمامة، فماتت في الليل، فصغر الصحابة رضي الله عنهم شأنها، وقالوا: لا حاجة إلى أن نخبر النّبيّ ﷺ في هذا الليل، فدفنوها، ففقدها النّبيّ ﷺ فقالوا: إنها ماتت، فقال: **«أفلا كنتم آذنتموني»** يعني أعلمتموني حين ماتت، ثم قال: **«دلوني على قبرها»** فدلوه، فصلى عليها، ثم قال ﷺ: **«إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله يُنورها لهم بصلاتي عليهم»**.

ففي هذا الحديث عدة فوائد منها: أن النّبيّ ﷺ إنما يعظم الناس بحسب أعمالهم، وما قاموا به من طاعة الله وعبادته.

ومن الفوائد: جواز تولي المرأة لتنظيف المسجد، وأنه لا يحجر ذلك على الرجال فقط، بل كل من احتسب ونظف المسجد فله أجره، سواء باشرته امرأة، أو استأجرت من يقمّ المسجد على حسابها.

---

(١) متفق عليه. وقوله: «تقم» وهو بفتح التاء وضم القاف: أي تكنس. «والقمامة» أي الكناسة، و«آذنتموني» بمد الهمزة: أي أعلمتموني.

ومن فوائد هذا الحديث: مشروعية تنظيف المساجد، وإزالة القمامة عنها، وقد قال النبيّ ﷺ: «عُرضت عليّ أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد»، والقذاة: الشيء الصغير، يُخرجه الرجل من المسجد، فإنه يؤجر عليه.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ أمر ببناء المساجد في الدور، وأن تُنظف وتطيب، فالمساجد بيوت الله، ينبغي العناية بها وتنظيفها، ولكن لا ينبغي زخرفتها وتنقيشها بما يوجب أن يلهو المصلون بما فيها من الزخرفة؛ فإن النبيّ ﷺ قال: «لتزخرفنها - يعني المساجد - كما زخرفها اليهود والنصارى».

ومن فوائد هذا الحديث: أن النبيّ ﷺ لا يعلم الغيب؛ ولهذا قال: «دلوني على قبرها»، فإذا كان لا يعلم الشيء المحسوس، فالغائب من باب أولى، فهو ﷺ لا يعلم الغيب، وقد قال الله له: ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الانعام: ٥٠]، وقال له: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ومن فوائد هذا الحديث: مشروعية الصلاة على القبر لمن لم يُصَلَّى عليه قبل الدفن، ولكن هذا مشروع لمن مات في عهدك وفي عصرك، أما من مات سابقًا فلا يشرع أن تصلي عليه؛ ولهذا لا يشرع لنا أن نصلي على النبيّ ﷺ على قبره، أو على قبر أبي بكر، أو عمر، أو عثمان، أو غيرهم من الصحابة أو غيرهم من الأئمة، وإنما تشرع الصلاة لمن مات في عهدك، فمثلاً إذا مات الإنسان قبل ثلاثين سنة، وعمرك ثلاثون سنة فإنك لا تصلي عليه صلاة الميت؛ لأنه مات قبل أن تخلق، وقبل أن تكون من أهل الصلاة، وأما من مات وأنت قد كنت من أهل الصلاة، من قريب أو أحد تُحب أن تصلي عليه فلا بأس.

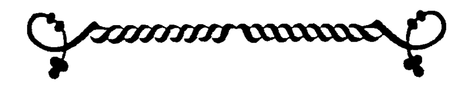
فلو فرض أن رجلاً مات قبل سنة أو سنتين، وأحببت أن تصلي على قبره وأنت لم تصلي عليه من قبل فلا بأس.

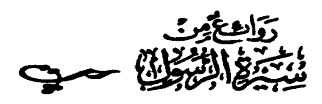
ومن فوائد هذا الحديث: حسن رعاية النّبيّ ﷺ لأمته، وأنه كان يتفقدهم ويسأل عنهم، فلا يشتغل بالكبير عن الصغير، كل ما يهم المسلمين فإنه يسأل عنه ﷺ.

ومن فوائد هذا الحديث: جواز سؤال المرء ما لا تكون به مِنَّة في الغالب؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**دلوني على قبرها**» وهذا سؤال، لكن مثل هذا السؤال ليس فيه مِنَّة، بخلاف سؤال المال فإن سؤال المال محرم، يعني لا يجوز أن تسأل شخصًا مالاً وتقول: أعطني عشرة ريالات أو مئة ريال، إلا عند الضرورة، أما سؤال غير المال مما لا يكون فيه منة في الغالب فإن هذا لا بأس به، ولعلّ هذا مخصص لما كان الرسول ﷺ يُبايع أصحابه عليه، حيث كان يبايعهم ألاّ يسألوا الناس شيئًا.

وربّما يؤخذ من هذا الحديث: جواز إعادة الصلاة على الجنازة لمن صلى عليها من قبل إذا وجد جماعة؛ لأن الظاهر أن الذين خرجوا مع النّبيّ ﷺ صلوا معه، وعلى هذا فتشرع إعادة صلاة الجماعة إذا صلى عليها جماعة آخرون مرة ثانية، وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم، وقالوا: إنه كما أن صلاة الفريضة تُعاد إذا صليتها ثم أدركتها مع جماعة أخرى، فكذلك صلاة الجنازة، وبناء على ذلك لو أن أحداً صلّى على جنازة في المسجد، ثم خرجوا بها للمقبرة، ثم قام أناس يصلون عليها جماعة، فإنه لا حرج ولا كراهة في أن تدخل مع الجماعة الآخرين فتُعيد الصلاة؛ لأن إعادة الصلاة هنا لها سبب، ليست مجرد تكرار، بل لها سبب، وهو وجود الجماعة الأخرى.

فإذا قال قائل: إذا صليت على القبر فأين أقف؟ **فالجواب:** أنك تقف وراءه وتجعله بينك وبين القبلة، كما هو الشأن فيما إذا صليت عليه قبل الدفن.





صفة نوم الرسول ﷺ

عن حذيفة وأبي ذر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «باسمك اللهم أحيا وأموت»[١].

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «ما من عبد يقول حين يمسي وحين يصبح: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم، ثلاث مرات، إلا وقاه الله تعالى شر ذلك اليوم».

وهذا الكلمات كلمات يسيرة لكن فائدتها عظيمة: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم»[٢] لأن الله سبحانه وتعالى بيده ملكوت السماوات والأرض، واسمه مبارك إذا ذُكر على الشيء؛ ولهذا يُسن ذكر الله تعالى بالتسمية على الأكل، إذا أردت أن تأكل تقول: «بسم الله»، إذا أردت أن تشرب تقول: «بسم الله» إذا أردت أن تأتي أهلك تقول: «بسم الله» فالتسمية مشروعة في أماكن كثيرة ولكنها على القول الراجح عند الأكل والشرب واجبة، يجب على الإنسان إذا أراد أن يأكل أن يقول: «بسم الله» وإذا أراد أن يشرب أن يقول: «بسم الله»، ولأمر النّبيّ ﷺ بذلك ، ولأن النّبيّ ﷺ ذكر أن من لم يُسمّ الله على أكله شاركه الشيطان فيه؛ فلا تنسى أن تقول في كل صباح وفي كل مساء: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمع شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم» ثلاث مرات.

وقوله: «وهو السميع العليم» فالسميع من أسماء الله، والعليم من أسماء الله، السميع من أسماء الله تعالى له معنيان:

الأول – السمع الذي هو إدراك كل صوت، فالله تعالى لا يخفى عليه شيء،

---

(١) رواه البخاري (١٤٥٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٨٨) وأبو داود (٥٠٨٨) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٦٩٨).

كل صوت فالله يسمعه مهما بعُدَ ومهما ضعف، لما أنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ① ﴾ [المجادلة: ١].

وهي امرأة جاءت تشتكي إلى الرسول ﷺ تقول: إن زوجها ظاهر منها، يعني قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي، وهذا القول يُعد في الجاهلية طلاقًا بائنًا، مثل الطلاق بثلاث تطليقات، وهو كذب منكر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ [المجادلة: ٢]، فجاءت تشتكي إلى الرسول ﷺ، فأنزلت هذه الآية: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ .

قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلَة إلى رسول الله ﷺ تُكلمه وإني لفي الحجرة، ويخفى عليَّ بعض حديثها، والله تعالى من فوق سبع سماوات سمع حديثها، فالله تعالى يسمع كلامك وإن خفت «ضعف» ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ⑧⓪ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

فإياك أن تُسمع الله عز وجل كلامًا لا يرضاه منك، واحرص على أن تسمع الله ما يرضاه منك.

ومن معاني السميع: أنه سميع الدعاء، أي مجيب الدعاء، كما قال إبراهيم ﷺ: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ③⑨ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، أي: مجيبه، فهو جلّ وعلا يُجيب دعاء المضطر وإن كان كافرًا؛ ولهذا يُجيب الله عز وجل دعاء المضطرين في البحر، إذا غشيهم الموج كالظلل دعوا الله مُخلصين له الدين فيُنجيهم، ويُجيب جل وعلا دعوة المظلوم، قال النبيّ ﷺ: «واتقِ دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» ويُجيب سبحانه وتعالى من تعَبّدَ له وحمده وأثنى عليه، كما يقول المصلي: «سمع الله لمن حمده».

وأما العليم: فهو من أسمائه أيضًا، وعلم الله تعالى علمٌ واسع محيط بكل

شيء، قال الله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام: ٥٩].

يعلم ما في الأرحام، ومفاتيح الغيب خمس مذكورة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾ [لقمان: ٣٤].

فالله عز وجل عنده مفاتح الغيب، ما تسقط من ورقة من شجرة إلا يعلمها، إذا سقطت ورقة من شجرة في أبعد الفيافي ولو كانت الورقة صغيرة، فالله يعلمها، وإذا كان يعلم الساقط فهو جلّ وعلا يعلم الحادث الذي يخلقه، فالله عليم بكل شيء.

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أنت الآن مثلاً في بلدك مستقر، وليست عندك نية أن تسافر يميناً ولا شمالاً، فإذا أراد الله أن تموت بأرض جعل لك حاجة فيها، تحملك تلك الحاجة إلى تلك الأرض وتموت هناك.

ولقد حدثني الثقة عن قصة غريبة، يقول: إنهم خرجوا من مكة عندما كان الناس يحجون على الإبل، خرجوا من مكة بعد الحج، وفي أثناء الطريق، مرضت أمه فجعل يمرضها، فارتحل القوم في آخر الليل، وبقي هو يمرض أمه، ويمهد لها الفراش على الراحلة، ثم ركبت الأم وسار يقودها، فذهب مع أحد الريعان، ضل الطريق، ذهب مع أحد الريعان وارتفعت الشمس وارتفعت حرارة الجو، فإذا بخباء صغير عند بادية فعرّج عليهم (اتجه إليهم) ونزل، سلّم عليهم وقال لهم: أين طريق نجد؟ قالوا: طريق نجد بعيد، أنت الآن ليس حولك طريق، ولكن انزل استرح، ثم أدلك على الطريق. يقول: فأنخت راحلتي وأنزلتُ والدتي، وحينما نزلت على الأرض قبض الله روحها، سبحان الله، يعني جاءت من بلدها إلى هذه

الريحان المجهولة فماتت في المكان الذي قدر الله عز وجل أن تموت فيه؛ لأن الله يقول: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ .

فعلم الله محيط بكل شيء حتى ما في نفسك، إذا كنت تُفكر في شيء، فالله يعلم ما يدور بنفسك، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق: ١٦]، فإياك أن تُخفي في نفسك ما الله مبديه، إياك أن تُخفي في نفسك ما لا يرضي الله.

فالمهم أن هذا الدعاء مشروع في كل صباح وفي كل مساء: «**بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم**».

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه نفث في يديه، وقرأ بالمعوذات ومسح بهما جسده» (١) .

وفي رواية: «أن النبيّ ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما قرأ فيهما: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات» (٢) .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا، وآوانا، فكم ممن لا كافي له، ولا مؤوي**» (٣) .

وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يرقد، وضع يده اليمنى تحت خده، ثم يقول: «**اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك**» (٤) .

فحديث عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ كان إذا أخذ مضجعه جمع كفيه يعني:

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٩) ومسلم (٢١٩٢) .

(٢) متفق عليه. قال أهل اللغة: «النفث» نفخ لطيف بلا ريق.

(٣) رواه مسلم (٢٧١٥) .

(٤) رواه الترمذي (٣٣٩٨) وقال: حديث حسن. ورواه أبو داود من رواية حفصة وفيه أنه كان يقول ثلاث مرات. وحسنه الألباني.

ضم بعضها إلى بعض، ونفث فيهما، والنفث هو النفخ مع ريق يسير، ثم يقرأ قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، يمسح بهما، أي بيديه ما استطاع من جسده يبدأ برأسه ومقدم جسده ثلاث مرات.

فينبغي للإنسان إذا أخذ مضجعه أن يفعل ذلك، ينفث في يديه مجموعتين ويقرأ فيهما: «قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس» ثلاث مرات، ثم يمسح رأسه ووجهه وصدره وبطنه وفخذيه وساقيه وكل ما يستطيع من جسده.

أما الحديث الثاني: فهو حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه، قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له، ولا مؤوي».

يحمد الله عز وجل الذي أطعمه وسقاه، بأنه لولا أن الله عز وجل يسّر لك هذا الطعام وهذا الشراب ما أكلت ولا شربت، كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) ﴾

[الواقعة: ٦٣- ٧٠].

فلتحمد الله الذي أطعمك وسقاك «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا»[1]، كفانا يعني: يسّر لنا الأمور وكفانا المؤونة، وآوانا أي: جعل لنا مأوى نأوي إليه، فكم من إنسان لا كافي له ولا مأوى، أو «ولا مؤوي» فينبغي لك إذا أتيت مضجعك أن تقول هذا الذكر.

ومع ذلك أيضًا: حديث حذيفة وحفصة رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ كان إذا اضطجع وضع يده اليمنى تحت خده الأيمن وقال: «اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك».

(١) رواه مسلم (٢٧١٥).

فكل هذه أذكار واردة عن النبيّ ﷺ ينبغي على الإنسان أن يحفظها ويقولها كما كان النّبيّ ﷺ يقولها.

والله الموّفق.

صفة أدبه ﷺ في السفر

استحباب الخروج يوم الخميس:

عن كعب بن مالك رضي الله عنه: «أن النبيّ ﷺ خرج في غزوة تبوك يوم الخميس وكان يُحب أن يخرج يوم الخميس»(١).

وفي رواية: «لقلما كان رسول الله ﷺ يخرج إلاّ في يوم الخميس».

السفر هو: مفارقة الوطن وهو أن يخرج الإنسان من وطنه إلى وطن آخر، وسُمّي سفراً لأنه من الإسفار وهو الخروج والظهور، كما يقال: أسفر الصبح إذا ظهر وبان.

وقيل: في المعنى سُمّي السفر سفراً؛ لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، يعني يُبين ويوضح أحوالهم، فكم من إنسان لا تعرفه ولا تعرف سيرته إلا إذا سافرت معه، وعندئذ تعرف أخلاقه وسيرته وإيثاره.. إلخ.

حتى كان عمر رضي الله عنه إذا زكّى رجل شخصاً عنده، قال له: هل سافرت معه؟ هل عاملته؟ إن قال: نعم قبل ذلك، وإن قال: لا. قال: لا علم لك به.

ثم إن السفر ينبغي للإنسان أن يتحرى فيه الأوقات التي تكون أسهل وأنسب، ومن ذلك أن يكون في آخر الأسبوع، كما كان النّبيّ ﷺ في أكثر أسفاره يخرج يوم الخميس وربما خرج في غيره، فقد خرج ﷺ في آخر سفرة سافرها – وهي حجة الوداع – يوم السبت، لكن دائما كان إذا سافر – ولا سيما إذا كان في غزو – كان ذلك يوم الخميس.

والحكمة من ذلك – والله أعلم – انه يومٌ تُرفع فيه الأعمال وتُعرض على الله عز وجل، فكان ﷺ يُحب أن يُعرض على الله عز وجل عمله في ذلك اليوم،

---

(١) رواه البخاري (٢٩٥٠).

وكان ﷺ يحب أن يخرج من أول النهار لما في ذلك من استقبال النهار؛ لأنه ربما يفاجأ الإنسان في سفره طولاً وقد تجهز قليلاً، فيصعب عليه التخلص منه، وهذا في الأسفار التي كانت في عهد الرسول ﷺ على الدواب والأرجل.

أما اليوم فكما تُشاهدون الناس لا يجدون صعوبة في أول النهار أو آخره، ثم إن السفر في الوقت الحاضر مرتبط بطائرات ومواعيد، وعلى كل حال إذا خرج في أول النهار وفي يوم الخميس فهو أفضل وإن لم يتيسر فلا بأس والحمد لله.

استحباب الخروج أول النهار:

عن صخر بن وداعة الغامدي الصحابي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«اللهم بارك لأمتي في بكورها»** وكان إذا بعث سرية أو جيشاً بعثهم من أول النهار، وكان صخر تاجراً وكان يبعث تجارته أول النهار، فأثْرَى وكثر ماله» [1].

حديث صخر رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال: **«اللهم بارك لأمتي في بكورها»** أي: في أول النهار، فدعا النَّبيّ ﷺ أن يبارك الله في أول النهار لأمته؛ لأنه مستقبل العمل، فإن النهار، كما قال الله تعالى معاش ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبأ: ١١].

فإذا استقبله الإنسان من أوله صار في ذلك بركة، وهذا شيء مشاهد، أن الإنسان إذا عمل من أول النهار وجد في عمله بركة، لكن وللأسف أكثرنا اليوم ينامون في أول النهار ولا يستيقظون إلاّ في الضحى، فيفوت عليهم أول النهار الذي فيه بركة. وقد قال العامة: أمير النهار أوله. يعني: أن أول النهار هو الذي يتركز عليه العمل.

وكان صخر رضي الله عنه يبعث تجارته أول النهار؛ فاثرى وكثر ماله من أجل دعاء النَّبي ﷺ بالبركة لهذه الأمة في بكورها.

---

(١) صحيح رواه أبو داود (٢٦٠٦) والترمذي (١٢١٢) وصححه الالباني في صحيح ابن ماجه (٢٢٣٦).

آداب السير والنزول، والمبيت، والنوم في السفر، واستحباب السرى، والرفق بالدواب، ومراعاة مصلحتها:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في الجدب فأسرعوا عليها السير وبادروا بها نقيها، وإذا عرستم فاجتنبوا الطريق؛ فإنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل»[١].

معنى: «أعطوا الإبل حظها من الأرض» أي: ارفقوا بها في السير لترعى في حال سيرها.

وقوله: «نِقْيَها» هو بكسر النون، وإسكان القاف و«الياء المثناة من تحت وهو المخ. معناه: أسرعوا بها حتى تصلوا المقصد قبل أن يذهب مخها، من ضنك السير.

و«التعريس»: النزول في الليل.

وعن أبي قتادة ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا كن في سفر فعرّس بليل اضطجع على يمينه وإذا عرّس قبيل الصبح نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه»[٢].

قال العلماء: إنما نصب ذراعه؛ لئلاً يستغرق في النوم، فتفوته صلاة الصبح عن وقتها أو عن أول وقتها.

ذكر المؤلف أن المسافر إذا سافر على راحلة - بهيمة من الإبل، أو حمر أو بغال أو خيل - فإن عليه أن يراعي مصلحتها؛ لأنه مسئول عنها، ولهذا كان النّبيّ ﷺ في حجة الوداع كان راكبًا على ناقته وقد شقّ لها زمامها، فإذا أتى مرتفعًا من المرتفعات أرخى لها قليلاً.

---

(١) رواه مسلم (١٩٢٦) والترمذي (٢٨٥٨).
(٢) رواه مسلم (٦٨٣).

ومن الآداب أن الإنسان إذا سافر في أيام الخصب فإنه ينبغي أن يتأنَّى في السير – يعني: لا يسير سيرًا حثيثًا يعطي فيه الإبل حقها من الرعي – لأنه إذا كان يمشي الهويني أمكن لها ذلك، فإذا كانت الأرض معشبة وخصبة وأنت على إبل، فلا تسرع السير، دعْها ترعى في مهل من أجل أن تنال حظها من الخصب، أما إذا كان الأمر بالعكس وكانت السَّنة جدبًا فإن المفروض أن تُسرع؛ لأنك إذا أمهلت في السير، والأرض جدب لا ترعى، طالت مدة السفر، فيذهب مخها.

وهذا من حكمة النّبيّ ﷺ وأن الله تعالى قد أعطاه مصالح الرعاية للإنسان والبهائم حيث أرشد النّبيّ ﷺ المسافرين إلى هذه الآداب: في الخصب تأنى في السير، وفي الجدب أسرع في السير.

كذلك أمر ﷺ أننا إذا عرسنا – نزلنا – ليلاً لنستريح وننام فإننا لا نام في الطريق، يعني: في الجادة؛ لأنها طرق البهائم، الناس يستطرقون هذا الطريق، فربما يأتي إنسان غافل فيقع في هذا الطريق، كذلك هي أيضًا مأوى الهوام تأتي إلى هذه الطرق حتى إذا سقط من أحد شيء من الطعام أكلته؛ ولهذا يكثر وجود الهوام في هذه الطرق؛ فلهذا أمر النّبيّ ﷺ ألاّ ننام في الطرقات، بل نرتفع عنها حتى لا يحرج السائرين على الطريق، وحتى لا تتعرض لأذى الهوام، ومثل ذلك – بل من باب أولى – طرق سيارات اليوم، فإن الإنسان يبتعد عنها؛ لأنه ربما يأتي سائق ينعس ولو للحظة، فيقتحم بسيارته هؤلاء الذين ينامون على الطريق، وتحدث كارثة فابعد عن هذه الطرق السريعة، لا تنم حولها، حتى لا تقع في الخطر، وهذا من إرشاد النّبيّ ﷺ.

وكان من هديه ﷺ أنه إذا عرّس في أول الليل اضطجع على يمينه وإذا عرّس قبيل الفجر اتّكأ على يده اليسرى؛ لأنه إذا كان أول الليل ينام على اليمين ليعطي النفس حظها من النوم؛ ولهذا كان ﷺ في بيته إذا نام ينام على الجنب الأيمن، بل أمر بذلك [١].

---

(١) انظر البخاري (٦٣١٣) ومسلم (٢٧١٠).

أما إذا كان قبيل الفجر فكان ينصب ذراعه وينام على يده؛ لئلاّ يستغرق في النوم فتفوته صلاة الفجر، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان أيضًا، يعطي نفسه حظها من الراحة، ولا ينسى عبادة ربه، ففي أول الليل يمكنه أن ينام ويشبع ثم يقوم قبل الفجر، أما في آخر الليل فإنه لا ينام نومة المطمئن، بل نومة المستيقظ الذي لا يستغرق في النوم؛ لئلاّ تفوته صلاة الفجر، وفي هذا دليل على أن الإنسان ينبغي له أن يستعمل المنبه في النوم ينبهه حتى لا تفوته الصلاة، فإن نصب الرسول ﷺ ذراعه من أجل أن ينتبه، كذلك الإنسان ينبغي أن يجعل معه منبهًا للصلاة، فهذا من آداب السفر الذي دلّ عليها خير البشر ﷺ.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالدلجة، فإن الأرض تطوى بالليل**» (١) . «الدلجة»: السير في الليل.

وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: كان الناس إذا نزلوا منزلاً تفرقوا في الشعاب والأودية، فقال رسول الله ﷺ: «**إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلك من الشيطان**» فلم ينزلوا بعد ذلك منزلاً إلاّ انضمّ بعضهم إلى بعض (٢).

وعن سهل بن عمرو – وقيل: سهل بن الربيع بن عمرو الأنصاري المعروف بابن الحنظلية وهو من أهل بيعة الرضوان رضي الله عنه – قال: مرّ رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: «**اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة**» (٣) .

وعن أبي جعفر عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: «أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه وأسرّ إليّ حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل» (٤) .

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٧١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٦٤).
(٢) رواه أبو داود (٢٦٢٨) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٨٨) .
(٣) رواه أبو داود (٢٥٤٨) بإسناد صحيح، وصححه الألباني في المشكاة (٣٣٧٠) .
(٤) رواه مسلم هكذا مختصرا برقم (٣٤٢) وأبو داود (٢٥٤٩).

وزاد فيه البرقاني بإسناد مسلم: هذا بعد قوله: حائش نخل، فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى رسول الله ﷺ جرجر وذرفت عيناه، فأتاه النّبيّ ﷺ، فمسح سراته - أي: سنامه - وذفراه فسكن، فقال: «من رب هذا الجمل، لمن هذا الجمل؟» فجاء فتىً من الأنصار، فقال: هذا لي يا رسول الله، فقال: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه يشكو إليّ أنك تُجيعه وتدئبه»(١).

وعن أنس ﷺ قال: «كنّا إذا نزلنا منزلاً، لا نسبح حتى نحل الرحال»(٢).

وقوله: «لا نسبح» أي لا نصلي النافلة، ومعناه: أنّا - مع حرصنا على الصلاة - لا نقدمها على حط الرحال وإراحة الدواب.

هذه الأحاديث في آداب السفر ساقها النووي - رحمه الله - في «رياض الصالحين»: منها أن النّبيّ ﷺ أرشد أمته إلى أن يسيروا في الليل، وأخبر أن الأرض تطوى للمسافر إذا سافر في الليل، يعني أنه يقطع في الدلجة - الليل - ما لا يقطعه في النهار؛ وذلك لأن الليل وقت بَرّاد فهو أنشط للرواحل وأسرع في سيرها، ولهذا عبّر النّبيّ ﷺ عن ذلك بأن تطوى الأرض للمسافر إذا مشى في الليل.

ومن الآداب أيضًا أنه ينبغي للجماعة ألا يتفرقوا إذا نزلوا منزلاً فإن الصحابة ﷺ كانوا إذا نزلوا منزلاً تفرقوا في الأودية والشعاب، فقال النّبيّ ﷺ: «إنما ذلكم من الشيطان».

يعني تفرقهم فما نزلوا بعد ذلك منزلاً إلا اجتمعوا جميعًا؛ لأن ذلك أقوى لهم وأحفظ، ولو تسلط عليهم عدو في هداة الليل - وكانوا جميعًا - أمكنهم

---

(١) رواه أبو داود كرواية البرقاني، وقوله: «ذفراه» هو بكسر الذال وإسكان الفاء، وهو لفظ مفرد مؤنث، قال أهل اللغة: الذفري: الموضع الذي يعرق من البعير خلف الأذن، وقوله: «تدئبه» أي تتعبه.

(٢) رواه أبو داود (٢٥٥١) وصححه الألباني في المشكاة (٣٩١٧).

المدافعة، لكن إذا تفرقوا توزعوا وفشلوا، ومن ذلك أيضاً أن النّبيّ ﷺ أمر بالرفق بالبهائم وأنه يجب على الإنسان أن يعاملها معاملة حسنة فلا يكلفها ما لا تطيق ولا يقصر عليها في أكل أو شرب.

ومن ذلك أيضاً أن الإنسان يركب الراحلة وحده، وله أن يُردف غيره، لكن بشرط أن تكون الراحلة مطيقة لذلك، فإن لم تكن مطيقة لضعفها أو نحو ذلك، فإنه لا يحل له أن يكلفها ما لا تطيق؛ لأن هذه البهائم تتعب كما يتعب الإنسان، هي مكونة مما كُوّن منه الإنسان، لحم وعظم ودم، فإذا كان الإنسان يتعب إذا حُمّل ما لا يطيق أو حمل عملا يتعبه كذلك هذه البهائم؛ ولهذا أمر النّبيّ ﷺ أن نتقي الله عز وجل فيها وألا نقصر في حقها.

ثم ذكر حديث ابن الحنظلية أن الرسول ﷺ كان قلمّا يقضي حاجته إلاّ إلى هدف أو حائل.

وهدف يعني: هدف مثل العنزة كان يركزها ويقضي حاجته ﷺ، فدخل ذات يوم حائط رجل من الأنصار فإذا بجمل، فلما رأى النّبيّ ﷺ - أي الجمل - جاء يجرجر وعيناه تذرفان، يشكو صاحبه إلى النّبيّ ﷺ فقال النّبيّ ﷺ: «من رب هذا الجمل؟» فجاء رجل من الأنصار، فقال: إنه لي يا رسول الله. فأخبره ﷺ أن الجمل يشكو إليه صاحبه بأنه يجيعه، ويحمله ما لا يطيق، وأمره أن يتقي الله تعالى فيه.

وهذا من آيات النّبيّ ﷺ أن البهائم العجم تشكو إليه إذا رأته ﷺ؛ لأن هذا من آيات الله تعالى التي يؤيد الله بها رسوله ﷺ، فإن الله تعالى ما أرسل رسولاً إلا أعطاه آيات تدل على نبوته؛ لئلاّ يكذبه الناس؛ لأن الناس إذا جاء إليهم رجل وقال: أنا رسول الله إليكم بدون آية ما صدّقوه، لكن الله تعالى يؤتي رسله آيات تدل على أنهم صادقون، وأعظم آيات أعطيها الأنبياء ما أعطيه النّبيّ ﷺ.

وقد ذكر ابن كثير - رحمه الله - في «البداية والنهاية» (١) وغيره أيضاً أنه

(١) «البداية والنهاية» (٦ / ٦٥).

ما من آية لنبي من السابقين، إلا كان لرسول الله ﷺ مثلها أو أعظم منها، إما له شخصيًا وإما لأتباعه.

وذكر على ذلك أمثلة وشواهد كثيرة، لكن لم يعطِ أحدٌ من الأنبياء مثل ما أُعطِيَ النّبيّ ﷺ من هذا الوحي – القرآن – ولهذا قال: «إنما الذي أوتيته وحي أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[1] .

لان هذا الوحي باقٍ إلى يومنا هذا، والناس كلما قرأوه ازدادوا إيمانًا بالله ورسوله لما فيه من الآيات العظيمة الدالة على ان رسول الله ﷺ هو رسول الله حقًا، والله الموفق.

ما يقول إذا ركب الدابة للسفر:

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزخرف: ١٢– ١٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر، كبّر ثلاثًا ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وإنّا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنّا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوّن علينا سفرنا هذا واطوِ عنّا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال والولد، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل والولد».

وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: «آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون»[2] .

قال المؤلف – رحمه الله تعالى – في باب آداب السفر: «باب ما يقوله إذا ركب دابته للسفر» هكذا قيد المؤلف – رحمه الله – الحكم فيما إذا ركب

---

(١) رواه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (٩٥٢).

(٢) رواه مسلم (١٣٤٢) وأبو داود (٢٥٩٩) والترمذي (٣٤٤٧).

للسفر، وظاهر الآية الكريمة أن الحكم عام، وأن الإنسان إذا ركب دابته أو سيارته أو السفينة فإنه يقول ما ذكره الله عز وجل، ثم ذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ كان إذا ركب دابته خارجًا في سفر قال كذا وكذا. وذكر قبل ذلك الآية وهي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

﴿ وَجَعَلَ لَكُم ﴾ يعني: سيركم.

﴿ مِّنَ الْفُلْكِ ﴾ يعني: السفن، وهي ثلاثة أنواع: بحرية، وبرية، وجوية.

أما البحرية: فكانت معروفة من قديم الزمان من زمن نوح ﷺ حين أوحى الله إليه: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود: ٣٧]، ثم قال: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر: ١٥].

وأما السفن البرية: فظهرت متأخرة وهي السيارات.

وأما الجوية: فهي أيضًا بعد ذلك وهي الطائرات، وكلها داخلة في قوله: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ ﴾ فإنها فلك لأنها تجمع ما شاء الله من الخلق.

وقوله تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ يعني الإبل والبغال والحمير والخيل وغيرها مما يُركَب، وقد اختلف العلماء في جواز ركوب الإنسان ما لم تجرِ العادة بركوبه، كما لو ركب البقر، فمنهم من قال: إنه جائز ما لم يشق عليه، ومنهم من قال: إنه لا يجوز لأنها لم تُخلق لهذا.

والصحيح أنه جائز، وأنه لا بأس أن يركب الإنسان ما لم تجرِ العادة بركوبه، لكن بشرط ألاّ يشق عليها فإن شقّ عليها فهو ممنوع، وقوله تعالى: ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ اللام إما للتعليل أو للعاقبة، يعني أنه لو جعل لنا ما نركب لنستقر على الظهور، فلم يجعله صعبًا نزرًا، لا يستوي الإنسان على ظهره ولا يستقره، بل هو يستقر على ظهره، وهذا مشاهد في الطائرات والسفن والسيارات والإبل الذلول،

وما أشبه ذلك ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ بعد الإستواء تذكرون نعمة الله بما يسّرَ لكم مما خلق من الأنعام ، وما علمكم من الفلك، وتقولوا: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾.

كان الذي يتبادر أن يقول الإنسان: الحمد لله الذي سخر لنا هذا، ولكنه أمر أن يقول: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا ﴾ لماذا؟ لأن (سبحانه) تدل على التنزيه: يعني تنزيه الله عز وجل عن الحاجة وعن النقص، فكأن الإنسان يشعر إذا ركب على هذه الفلك والأنعام أنه محتاج إليه يستعين به على حاجته فيسبح الله عز وجل الذي هو مستغن عن كل خلقه، فكان التسبيح في هذا المقام أنسب مع أنه جاء في السُّنة أنه يحمد الله.

لكننا نتكلم عن هذه الآية ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ يعني: ما كنّامطيقين له لولا أن الله سخره أي ذلله، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس: ٧٢].

أرأيتم لو كانت هذه البعير الكبيرة الجسم القوية النشيطة لو لم تسخر هل نركبها؟! هل نقدر عليها؟! الجواب: لا؛ لأن هناك من السباع ما هو دونها بكثير، ولا نستطيع أن نقدر عليه، لكن الله سخر لنا هذا الذي نركبه، حتى إن الصبي الصغير يأخذ بزمام الناقة ويقودها إلى حيث شاء، هذا من تسخير الله عز وجل وتذليله.

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾، أي: مطيقين ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾، هذه الجملة جملة عظيمة، كأن الإنسان لما ركب مسافراً على هذه الذلول أو الفلك كأنه يتذكر السفر الأخير من هذه الدنيا، وهو سفر الإنسان إلى الله عز وجل إذا مات، وحملته الناس على أعناقهم فيتذكر ويقول: ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ جلّ وعلا.

فالمُنْقَلَبُ إلى الله، والله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ

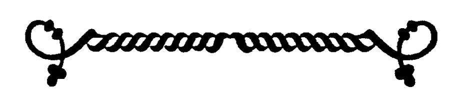
كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الإنشقاق: ٦]، كادح إلى ربك، لم يقل كادح لربك، بل كادح إليه، يعني سيكون مآلك ومآل كدك وكدحك إلى الله عز وجل ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: عامل وراجع إلى ربك. ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ [الإنشقاق: ٦] كلنا سوف يلاقي الله، ولكن على أي شيء وشأن نُلاقي الله عز وجل؟! يعني: الإنسان لا يهمه أن يموت ولا متى يموت، ربما أنه يحب أن يطيل الله عمره، وأن يموت في بلد مقدّس كما اختار ذلك موسى ﷺ.

لكن الشأن كل الشأن على أي شيء يموت - نسأل الله أن يتوفانا وإياكم على الإيمان والتوحيد - هذا هو المهم، فإنْ متّ على خير فإنه لا فرق أن تموت هنا أو هناك أو في بلد مقدّس أو غير مقدّس، ولا في هذا الشهر، ولا في هذا اليوم، ولا في هذا الوقت، المهم أن تموت على خير.

فينبغي للإنسان إذا ركب سيارته أو الطائرة أن يقول هذا الذكر الوارد عن النبيّ ﷺ في حديث ابن عمر: يُكبر ثلاثًا ويقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ ثم يدعو بهذا الدعاء الذي ذكره ابن عمر ﷺ وتأمل في هذا الحديث كلمة تدل على إحاطة الله بكل شيء يقول: «أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل».

«الصاحب في السفر» يعني: تصحبني في سفري تيسره على تسهله عليّ.

«وأنت الخليفة في الأهل»، أي: الخليفة في الأهل من بعدي تحوطهم برعايتك وعنايتك، فهو جلّ وعلا مع الإنسان في سفره وخليفته في أهله؛ لأنه جلّ وعلا بكل شيء محيط. والله الموفق.



رؤيا رسول الله ﷺ

وعنه: قال رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، أو كأنما رآني في اليقظة لا يتمثل الشيطان بي»[1].

الرؤيا: يعني رؤيا المنام، فالإنسان إذا نام، فإن الله تعالى يتوفى روحه، لكنها وفاة صغرى، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وهذه الوفاة الصغرى تذهب فيها الروح إلى حيث يشاء الله.

ولهذا كان من أذكار المنام أن تقول: «اللهم بك وضعت جنبي وبك أرفعه، فإن أمسكت روحي فاغفر لها وارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

ثم إن الروح في هذه الحال ترى منامات ومرائي، تنقسم إلى ثلاثة أقسام: رؤيا محبوبة، ورؤيا مكروهة، ورؤيا عبارة عن أشياء ليس لها معنى وليس بها هدف، قد تكون من تلاعب الشيطان، وقد تكون من حديث نفس، وقد تكون من أسباب أخرى.

القسم الأول: الرؤيا الصالحة الحسنة، وهي ما يحب الإنسان يراه في المنام، فهذه من الله عز وجل، وهي من نعمة الله على الإنسان أن يريه ما يحب؛ لأنه إذا رأى ما يحب نشط وفرح وصار هذا من البشرى، فمن عاجل بشرى المؤمن الرؤيا الصالحة يراها أو تُرَى له؛ ولهذا قال النبيّ ﷺ: «لم يبقَ من النبوة إلاّ المبشرات»[2]، والرؤيا الصالحة يراها الإنسان أو تُرى له، هذه بشرى خير، وهي من الله عز وجل.

---

(١) البخاري (٦٩٩٣) ومسلم (٢٢٦٧).
(٢) رواه البخاري (٦٩٩٠).

القسم الثاني: الرؤيا المكروهة، وهي من الشيطان، حيث يضرب الشيطان للإنسان أمثالاً في منامه يزعجه بها، لكن دواءها أن يستعيذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأى، ولا يذكرها لأحد؛ لأنها لا تضره، ولا يحرص على أن تُعَبَّر؛ لأن بعض الناس إذا رأى ما يكره حرص على أن تُعبَّر وذهب إلى العابرين، أو يطالع في الكتب لينظر ما هذه الرؤيا المكروهة، ولكنها إذا عبّرت فإنها تقع على الوجه المكروه.

وإذا استعاذ الإنسان من شر الشيطان ومن ما رأى، ولم يُحدّث أحدًا؛ فإنها لا تضره مهما كانت وهذا دواء سهل أن الإنسان يتصبر ويكتمها ويستعيذ من شر الشيطان ومن شرها حتى لا تقع.

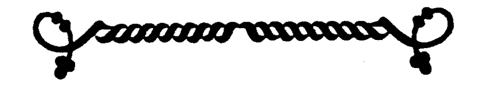
أما القسم الثالث: وهو الذي ليس له هدف معيّن، فهذا أحيانًا يكون من حديث النفس، حيث يكون الإنسان متعلقًا قلبه بشيء من الأشياء يفكر فيه، وينشغل فيه، ثم يراه في المنام، أو أحيانًا يلعب به الشيطان في منامه، يريه أشياء ليس لها معنى، كما ذكر رجل للنبيّ ﷺ، قال: يا رسول الله، رأيتُ في المنام أن رأسي قد قُطع، وذهب رأسي يركض وأنا أسعى وراءه، فقال النّبيّ ﷺ: «**لا تحدث الناس بتلاعب الشيطان بك في منامك**»، فهذا ليس له معنى، رأسٌ يُقطع ويركض الرأس وهذا يركض بجسده وراءه، هذا ليس له معنى.

المهم أن هذه هي أقسام الرؤيا، وإذا ضرب للإنسان مثل بأبيه أو أمه أو أخيه أو عمه أو غير ذلك، فقد يكون هذا هو الواقع، وقد يكون من الشيطان، يتمثل الشيطان للنفس في صورة هذا الإنسان ويراه النائم، إلاّ النّبيّ ﷺ فإن الإنسان إذا رأى النّبيّ ﷺ على هذا الوصف المعروف، فإنه قد رآه حقًا؛ لأن الشيطان لا يتمثل بالنّبيّ ﷺ أبدًا ولا يجرؤ.

فإذا رأى الإنسان شخصًا ووقع في نفسه أنه النّبيّ ﷺ فليبحث عن أوصاف هذا الذي رأى، هل تطابق أوصاف النّبيّ ﷺ، فهو هو، وإن لم تطابق فليس

النّبيّ ﷺ وإنما هذه أوهام من الشيطان؛ ولذلك يأتي دائمًا واحد يقول: رأيت الرسول ﷺ وقال كذا وفعل كذا، ثم إذا وصفه لا تطابق أوصافه أوصاف النّبيّ ﷺ، مع أنه في منامه وقع عليه أنه النّبيّ ﷺ، لكن إذا تحدث عن أوصافه، فإذا هو ليس النّبيّ ﷺ، فنجزم أن هذا ليس هو الرسول ﷺ.

أما لو وصف لنا من رآه، وانطبقت أوصافه على النّبيّ ﷺ فهو النّبيّ، ولكن يجب أن نعلم أنه لا يمكن أن يحدثه النّبيّ ﷺ بشيء يُخالف شريعته، يعني لو جاء إنسان، وقال: رأيت الرسول ﷺ، وقال لي: كذا وأوصاف كذا، فإن كان يخالف الشريعة فهو كذب، ويكون الكذب ممن تحدث به إذا انطبقت أوصاف من رآه على أوصاف النّبيّ ﷺ.



صفة ذكره ﷺ

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله تعالى على كل أحيانه»(١).

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾

[آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

في خلق السماوات والأرض، يعني في ذات السماوات، وذات الأرض بما فيهما من عجائب مخلوقات الله تعالى، آيات لأولي الألباب أولي العقول الذين يُدركون ما بآيات الله من الحكم والأسرار، فالسماء واسعة عالية والأرض مسطحة مذللة للخلق، فيها من آيات الله تعالى من البحار والأنهار والأشجار والجبار وغير ذلك، مما يستدل به على خالقها جلّ وعلا.

وأما اختلاف الليل والنهار فاختلاف الليل والنهار في الطول والقصر، والحر والبرد، والرخاء والشدة، والأمن والخوف، والبؤس والعافية، وغير ذلك فيها أيضًا آيات عظيمة، والإنسان إذا طالع التاريخ ورأى التقلبات، الليل والنهار، واختلافهما رأى من آيات الله العجيبة ما يزداد به إيمانًا، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ هذا هو الشاهد يذكرون الله في كل حال، قيامًا وقعودًا، وعلى جنوبهم في كل حال.

وكذلك ذكر – رحمه الله – حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النّبيّ ﷺ يذكر الله على كل الأحيان، أي على كل الأزمان، في كل زمن يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا، حتى أن النّبيّ ﷺ ندب الإنسان أن يذكر الله عند جماع أهله،

---

(١) رواه مسلم (٣٧٣) وأبو داود (١٨) والترمذي (٣٣٨٤) وابن ماجه (٣٠٢).

فقال: «لو أن أحدكم أتى أهله، قال: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إذا قضى بينهما ولد لم يضره الشيطان»(١).

ففي هذا دليل على أنه ينبغي لك أن تُكثر من ذكر الله في كل حال، إلاّ أن العلماء قالوا: لا ينبغي أن يُذكر الله تعالى الأماكن القذرة، مثل أماكن قضاء الحاجة (المراحيض) ونحوها تكريمًا لذكر الله عز وجل عن هذه المواضع، هكذا ذكر بعض أهل العلم، والله أعلم.

وعن ثوبان ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا، وقال: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

قيل للأوزاعي – وهو أحد رواة الحديث –: كيف الإستغفار؟ قال: تقول: أستغفر الله، أستغفر الله (٢).

وكذلك حديث ثوبان، لكنه ذكر مقيد، أن النّبيّ ﷺ كان إذا انصرف من صلاته، قال: أستغفر الله، ويعني: أستغفر ثلاثًا، وقال: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، إنما يستغفر الإنسان إذا فرغ من صلاته من أجل ما يكون فيها من خلل ونقص ويقول: «اللهم أنت السلام» يعني: اللهم إني أتوسل إليك بهذا الإسم الكريم من أسمائك أن تُسلم لي صلاتي حتى تكون مكفّرة للسيئات ورفعة للدرجات.

وعن المغيرة بن شعبة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة وسلّم قال: «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير: اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(٣).

وعن عبد الله بن الزبير ﷺ أنه كان يقول دبر كل صلاة، حين يُسلم: «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول

---

(١) رواه البخاري (٥١٦٥) ومسلم (١٤٣٤).
(٢) رواه مسلم (٢٢٣).
(٣) رواه البخاري (٧٢٩٢) ومسلم (٥٩٣).

ولا قوة إلاّ بالله، لا إله إلاّ الله، ولا نعبد إلاّ إياه، له النعمة، وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلاّ الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» قال ابن الزبير: وكان رسول الله ﷺ يُهلل بهن دبر كل صلاة مكتوبة»[1].

هذان الحديثان في بيان الأذكار المقيدة؛ لأن الأذكار تنقسم إلى قسمين، مطلقة ومقيدة، منها مقيد بالوضوء، ومنها ما هو مقيد بالصلاة، فهذان الحديثان مقيدان بالصلاة، حديث المغيرة بن شعبة، وحديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم.

أما حديث المغيرة بن شعبة، فقد أخبر رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ كان يقول إذا سلّم من صلاته: **«لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»**.

ومعنى لا إله إلاّ الله: يعني: لا معبود بحق إلاّ الله، فلا معبود في الكائنات يستحق أن يُعْبَد إلاّ الله عز وجل، أما الأصنام التي تعبد من دون الله، فليست مستحقة للعبادة، حتى وإن سماها عابدوها آلهة؛ فإنها ليست مستحقة للعباد، بل هي كما قال الله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، فالمعبود حقًا هو الله عز وجل.

وقوله: **«وحده لا شريك له»** هذا من باب التأكيد، تأكيد وحدانيته جلّ وعلا، وأنه لا مشارك له في ألوهيته، **«له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»** له الملك المطلق العام الشامل الواسع، ملك السماوات والأرض وما بينهما، ملك الآدميين والحيوانات والأشجار والبحار، والأنهار والملائكة والشمس والقمر، كل هذه ملك لله عز وجل ما علمنا وما لم نعلم،له الملك كله يتصرف فيه كما يشاء وعلى ما تقتضيه حكمته جلّ وعلا.

«وله الحمد» يعني: الكمال المطلق على كل حال، فهو جلّ وعلا محمود على كل حال في السراء والضراء، أما في السراء فيحمد الإنسان ربه حمد

---

(١) رواه مسلم (٥٩٤).

الشكر، وأما في الضراء فيحمد الإنسان ربه حمد تفويض؛ لأنه الشيء الذي يضر الإنسان قد لا يتبين له وجه مصلحته، ولكن الله تعالى أعلم، فيحمد الله تعالى على كل حال، وكان النبيّ ﷺ إذا أتاه ما يسره قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا أتاه ما لا يسرّه قال: «الحمد لله على كل حال».

وأما ما يقوله بعض الناس: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه؛ فهذه كلمة خاطئة لم ترد، معناها غير صحيح، وإنما يقال: الحمد لله على كل حال.

«اللهم لا مَانِع لما أعطَيْتَ ولا مُعطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد» هذا أيضًا تفويض إلى الله عز وجل بأنه لا مانع لما أعطى، فما أعطاك الله لا أحد يمنعه، وما منعك لا أحد يعطيك إياك؛ ولهذا قال: «ولا معطي لما منعت» فإذا آمنّا بهذا فممَّن نسأل العطاء؟ من الله إذا آمنّا بأنه لا مانع لما أعطى ولا مُعطي لما منع، إذًا لا نسأل العطاء إلاّ من الله عز وجل، ونعلم أنه لو أعطانا فلان شيء، فالذي قدّر ذلك هو الله، والذي صَيَّره حتى يعطينا هو الله، وما هو إلاّ مجرد سبب، لكن نحن مأمورون بأن نشكر من صنع إلينا معروفًا، كما قال النّبيّ ﷺ: «من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»[1].

لكن نعلم أن الذي يسّر لنا هذا العطاء وصَيَّر لنا هذا المعطي هو الله عز وجل، «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد» الجد يعني: الحظ والغنى، يعني الإنسان المحظوظ الذي له حظّ وعنده أولاد وعنده زوجات وعنده كل ما يشتهي من الدنيا، فإن هذا لا ينفعه من الله، لا ينفع ذا الجد منك الجد، الجد فاعل، يعني: أن الجد هو الحظ والغنى ما يمنع من الله عز وجل؛ لأن الله تعالى له ملك السماوات والأرض، وكم من إنسان تراه مسرورًا في أهله وعنده المال والبنون وجميع ما يناله من الدنيا ولا ينفعه شيء من الله،

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٢١).

يُصاب بمرض ولا يقدر أن يرفعه عنه إلاّ الله عز وجل، يُصاب بغم وهم وقلق، لا ينفعه إلاّ الله عز وجل.

وهذا كله في التفويض إلى الله، إذًا ينبغي لنا إذا سَلّم الإنسان واستغفر ثلاثًا، وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام أن يذكر الله تعالى بهذا الذكر.

والترتيب بين الأذكار ليس بواجب، يعني: لو قدمت بعضها على بعض فلا بأس، لكن الأفضل أن تبدأ بالاستغفار ثلاثًا، و«اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام» ثم تذكر الله تعالى بالأذكار الواردة، وسيأتي الكلام إن شاء الله عن حديث عبد الله بن الزبير.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دبر كل صلاة من الصلوات بهؤلاء الكلمات: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من فتنة القبر»[1].

وعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك» فقال: «أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»[2].

فهذه من الأذكار التي تُقال دبر كل صلاة، والحديث الأول عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النّبيّ ﷺ كان يتعوذ بهذه الكلمات دُبُر كل صلاة: «اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أُردّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من فتنة القبر».

وكذلك حديث معاذ بن جبل أن النّبيّ ﷺ كان يقول دُبُر كل صلاة: «اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك».

---

(١) رواه البخاري (٦٣٧٠).

(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح (١٣٢٢) والنسائي (١٣٠٣) وأحمد (٥/ ٢٢٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩).

فكلمة «دُبر» القاعدة فيها أنها إذا كان المذكور أذكاراً فإنه يكون بعد السلام، وإذا كان المذكور دعاء، فإنه يكون قبل السلام؛ لأن ما قبل السلام وبعد التشهد هو دبر الصلاة، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: دبر الشيء من الشيء، كما قال: دبر الحيوان: المؤخرة.

وعلى هذا فيكون حديث سعد بن أبي وقاص وحديث معاذ بن جبل يكون هذا الدعاء قبل أن تُسلِّم، إذا انتهيتَ من التشهد ومن قولك: أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال، تقول: اللهم إني أعوذ بك من البخل والجبن، وأعوذ بك من أن أُردَّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من فتنة القبر.

هذه خمسة أشياء نستعيذ بالله منهن:

البخل: وهو الشح بالمال.

الجبن، وهو: الشح بالنفس، فالبخل أن يمنع الإنسان ما يجب عليه بذله من ماله من زكاة أو نفقات أو إكرام ضيف أو غير ذلك، وأما الجبن فأن يشح الإنسان بنفسه، لا يُقدِم في جهاد الله يخشى أن يُقتَل ولا يتكلم بكلام حق يخشى أن يُسجن، وما أشبه ذلك، فهذا جُبن.

وأما «أعوذ بك أن أُردَّ إلى أرذل العمر» أرذل: يعني أرداه وأنقصه، وذلك على وجهين:

الوجه الأول: أن يحدث للإنسان حادث فيختل به عقله فيهذي، فيُرد إلى أرذل العُمُر ويصير كالصبي، كما يوجد هذا في الحوادث، يوجد أحد يصاب بحادث فيختل به مخه، ثم يكون كالصغير.

الوجه الثاني: أو أن يكون ذلك عن كبر؛ لأن الإنسان كلما كبر إذا استوى وبلغ أربعين سنة بدأ يأخذ في النقص، ولكن الناس يختلفون، أحد ينقص كثيراً، وأحد ينقص قليلاً؛ لكنه لابد أن ينقص إذا بلغ الأربعين، فقد استوى وكمل، والشيء إذا استوى وكمل أخذ في النقص.

فمن الناس من يُرد إلى أرذل العمر في قواه الحسية وقواه العقلية، فيضعف بدنه ويحتاج إلى من يحمله ويوضّئهُ ويوجّهُهُ وما أشبه ذلك، أو عقليًا بحيث يهذي ولا يدري ما يقول، فالرد إلى أرذل العمر يشمل هذا وهذا، وما كان بحادث وما كان بسبب تقادم السن به .

ثم إن الإنسان إذا وصل إلى هذه الحال - نسأل الله أن يُعيذنا وإياكم منها - فإنّ أهله يملونه، أهله الذين هم أشفق الناس به يتعبون منه ويملونه، وربما يتركونه في مكان تتكفل به الحكومة - مثلاً - وهذا لا شك أن الإنسان لا يرضاه ولا يرضى لنفسه أن يصل إلى هذا الحد، وتسقط أيضًا عنه الصلاة، ويسقط عنه الصوم، وتسقط عنه الواجبات؛ لأنه وصل إلى حد يرتفع عنده التكليف.

«وأعوذ بك من فتنة الدنيا» وما أعظم فتنة الدنيا وما أكثر المفتونين في الدنيا لاسيما في عصرنا هذا، وعصرنا هذا هو عصر الفتنة، كما قال النبيّ ﷺ : **«والله ما الفقر أخشى عليكم، وإنما أخشى أن تُفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تَنافَسَهَا مَنْ قبلكم فتهلككُم كما أهلكَتْهُم»** (١) .

وهذا هو الواقع في الوقت الحاضر، فُتحت علينا الدنيا من كل جانب، من كل شيء، من كل وجه، منازل كقصور الملوك، ومراكب كمراكب الملوك، وملابس ومطاعم ومشارب، فتحت فصار الناس الآن ليس لهم همّ إلاّ البطون والفروج، فُتنوا بالدنيا، نسأل الله العافية.

ففتنة الدنيا عظيمة، يجب على الإنسان أن ينتبه لها، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾

[لقمان: ٣٣].

«وأعوذ بك من فتنة القبر» أو **«من عذاب القبر»** وفتنة القبر أيضًا فتنة عظيمة، إذا دُفن الميت وانصرف عنه أصحابه حتى أنه ليسمع قرع نعالهم

(١) أخرجه البخاري (٤٠١٥) ومسلم (٢٩٦١) .

منصرفين عنه، أتاه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه، إن كان مؤمنًا خالصًا أجاب بالصواب، وقال: ربي الله، ونبيي محمد، وديني الإسلام. وإن كان مرائيًا أو منافقًا - أعاذنا الله وإياكم من ذلك - قال: ها ها لا أدري، ها ها لا أدري. فيُضرب بمرزبة من حديد، والمرزبة من الحديد قالوا مثل المطرقة، وقد ورد في بعض الأحاديث أنه لو اجتمع عليها أهل منًى ما أقلوها من عظمتها [(١)] - نسأل الله العافية - فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلاّ الثقلين، الإنس والجن، وهذا من رحمة الله أن الله تعالى لا يُسمعنا عذاب القبر؛ لأننا إذا سمعنا الناس يُعذبون في قبورهم ما طاب لنا عيش ولتنكدنا، فإن كان قريبًا لنا تنكدنا من وجهين: من قرابته، ومن هذه الأصوات المزعجة.

وإن كان غير قريب أيضًا انزعجنا منه، ففتنة القبر فتنة عظيمة، نسأل الله أن يُعيذنا وإياكم منها.

هذه أشياء كان النّبيّ ﷺ يُعلمها أصحابه، خمسة أشياء: اللهم إني أعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر ومن فتنة القبر.

أما حديث معاذ، فإن النبيّ ﷺ قال له: «إني أُحبك»، وأقسم قال: «والله إني لأُحبك» وهذه منقبة عظيمة لمعاذ بن جبل رضي الله عنه أن نبينا ﷺ أقسم أنه يحبه، والمحب لا يدخر لحبيبه إلاّ ما هو خير له، وإنما قال هذا له لأجل أن يكون مستعدًا لما يلقى إليه؛ لأنه يلقيه إليه من مُحبٍّ.

ثم قال له: «لا تدعن أن تقول دُبُر كل صلاة مكتوبة: اللهم أعني على ذكرك وعلى شكرك وعلى حسن عبادتك» ودبر كل صلاة يعني في آخر الصلاة قبل السلام، هكذا جاء في بعض الروايات أن يقولها قبل السلام، وهو حق، وكما ذكرنا أن المقيد بالدبر، أي: دبر الصلاة إن كان دعاء فهو قبل التسليم، وإن كان ذكرًا فهو بعد التسليم، ويدل لهذه القاعدة أن رسول الله ﷺ قال في حديث ابن

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

مسعود في التشهد لما ذكره، قال: ثم ليتخير من الدعاء ما شاء، أو ما أحب أو أعجبه إليه، أما الذكر فقال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء: ١٠٣].

«**أعنّي على ذكرك**» يعني كل قول يُقرب إلى الله، كل شيء يُقرب إلى الله، كل تفكير يُقرب إلى الله فهو من ذكر الله، و«**شكرك**» أي: شكر النعم واندفاع النقم، فكم من نعمة لله علينا، وكم من نقمة اندفعت عنّا، فنشكر الله على ذلك، ونسأل الله أن يعيننا عليه، وعلى حسن عبادته، وحسن العبادة يكون بأمرين، بالإخلاص لله عز وجل، كل ما قوى الإخلاص كان أحسن، وبالمتابعة لرسول الله ﷺ، والله الموفق.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا تشهّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال**»[1].

وعن عليّ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة، يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: «**اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخّر، لا إله إلا أنت**»[2].

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا تشهّد أحدكم - وفي لفظ: التشهد الأخير - فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال**».

هذه أربعة أمور أمر النبيّ ﷺ أن نستعيذ بالله منها إذا فرغنا من التشهد، يعني قبل التسليم، أعوذ بالله من عذاب جهنم، وهي النار، فتتعوذ بالله من

(١) رواه مسلم (٥٨٨).
(٢) رواه مسلم (٧٧١).

عذابها، وهذا يشمل ما عملت من سوء تسأل الله أن يعفو عنك منه، وما لم تعمل من السوء، نسأل أن يجنبك إياه.

ومن عذاب القبر؛ لأن القبر فيه عذاب، عذاب دائم للكافرين، وعذاب قد ينقطع للعاصين، وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنه مرّ بقبرين، فقال: «إنهما ليُعذبان، وما يُعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرأ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»[(١)].

ومن فتنة المحيا والممات، وفتنة المحيا ما يفتتن به الإنسان في حياته وتدور على شيئين، إما جهل وشبهة وعدم معرفة بالحق، فيشتبه عليه الحق، لكنه لا يريده، وإنما يريد الباطل، وأما فتنة الممات، فقيل: إنها فتنة القبر، وهي سؤال الملكين للإنسان إذا دُفن عن ربه ودينه ونبيه، وقيل: فتنة الممات هي ما يكون عند موت الإنسان؛ وذلك أن أشد ما يكون الشيطان حرصًا على إغواء بني آدم عند موتهم، يأتي للإنسان عند موته ويوسوس له ويشككه وربما يأمره بأن يكفر بالله عز وجل.

فهذه الفتنة من أعظم الفتن، وأما فتنة المسيح الدجال، فالمسيح الدجال هو من يبعثه الله عز وجل عند قيام الساعة، رجل خبيث كاذب، مكتوب بين عينيه: كافر. يقرؤه المؤمن الكاتب وغير الكاتب، ويفتن الله تعالى الناس به؛ لأنه يُمَكَّن له في الأرض بعض الشيء، يبقى في الأرض أربعين يومًا، اليوم الأول طوله طول السنة الكاملة، والثاني طول الشهر، والثالث طوله أسبوع، والرابع كسائر الأيام. يدعو الناس إلى أن يكفروا بالله، وأن يُشركوا به، يقول: أنا ربكم، ومعه جنّة ونار، لكنها جنة فيما يرى الناس، ونارٌ فيما يرى الناس، وإلاّ فحقيقة جنته أنها نار، وحقيقة ناره أنها جنة، كما جاء في الحديث عن النّبيّ ﷺ[(٢)]، فيغتر الناس به ويفتتن به مَن شاء الله أن يفتتن، وفتنة عظيمة فإن النّبيّ ﷺ قال: «ما في

(١) أخرجه البخاري (١٣٦١) ومسلم (٢٩٢).
(٢) انظر ما أخرجه البخاري (١٥٥٥) ومسلم (٢٩٣٤).

الدنيا فتنة أعظم منذ خلق آدم إلى قيام الساعة مثل فتنة المسيح الدجال، وما من نبي إلاَّ أنذر به قومه» [١] .

ولهذا خصّه من بين فتنة المحيا بأن فتنته عظيمة، نسأل الله أن يعيننا وإياكم منها، وهذه الأربع يذكرها الإنسان قبل أن يُسلم، واختلف العلماء رحمهم الله، هل هذا واجب أو سُنة؟ فأكثر العلماء على أنه سُنة، وأن الإنسان لو تركه لم تبطل صلاته، وقال بعض أهل العلم: إنه واجب، إنه يجب على الإنسان أن يستعيذ بالله من هذه الأربع، قبل أن يُسلم وأنه لو ترك ذلك فصلاته باطلة وعليه أن يُعيدها.

وقد أمر طاووس وهو أحد كبار التابعين ابنه حين لم يقرأ هذه التعويذات الأربع أمره أن يُعيد صلاته؛ فينبغي للإنسان ألاّ يدعها، وأن يحرص عليها لما فيها من الخير الكثير، ولئلاّ يُؤدي بصلاته إلى أنها تكون باطلة عند بعض أهل العلم، والله الموفق.

وعن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي» [٢] .

وعنها أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبوح قدوس رب الملائكة الروح» [٣] .

هذه أذكار في أقوال معينة، عن عائشة ﵂ أن النّبيّ ﷺ كان يُكثر أن يقول في ركوعه: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» وهذا بعد أن أنزل الله عليه: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ [النصر]، وهذه السورة هي أجل رسول الله ﷺ، فإن الله نَعَاه إلى نفسه بأنه إذا جاء نصر الله وتم الفتح فقد قرب

(١) رواه مسلم (١٩٤٦) .
(٢) البخاري (٨١٧) ومسلم (٤٨٤) .
(٣) رواه مسلم (٤٨٧) والنسائي (٢/١٩١) وأبو داود (٧٨٢) .

أجله، كما فهم ذلك ابن عباس رضي الله عنهما؛ فإن ابن عباس رضي الله عنهما كان صغير السن، وكان عمر رضي الله عنه يحضره مع مجالس الرجال وكبار القوم، فقال بعضهم: لماذا يُحْضِر عمرُ ابنَ عباس ويترك أبناءه؟ فأراد أن يبين لهم رضي الله عنه فضل ابن عباس، فقال لهم يومًا من الأيام: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر]، ما معنى هذه السورة؟ قالوا: معناها أنه إذا جاء الفتح فسبّح بحمد ربك واستغفره، فقال: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: هذا أجل رسول الله ﷺ أن الله أعطاه علامة وهي الفتح والنصر، وإذا جاءت فقد قرب أجله. فقال: ما فهمت منها إلاّ ما فهمت [١].

فالحاصل أن في هذه الآية أمر الله نبيه أن يسبح بحمد ربه ويستغفره، وكان ﷺ يفعل ذلك، يُكثر أن يقول في ركوعه، وهو كذلك في سجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» ومعنى هذا أنك تُثني على الله عز وجل بكمال صفاته وانتفاء صفات النقص عنه وتسأله المغفرة.

أما حديثها الثاني فقالت: كان النّبيّ ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح» يعني: أنت سبوح قدوس، وهذه مبالغة في التنزيه وأنّه جلّ وعلا سبوح قدوس رب الملائكة وهم جند الله عز وجل، عَالَم لا نشاهدهم، وأما الروح فهو جبريل، وهو أفضل الملائكة.

فينبغي للإنسان أن يُكثر في ركوعه وسجوده من قوله: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك،اللهم اغفر لي» تأسّيًا برسول الله ﷺ وأن يقول كذلك في ركوعه وسجوده: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح».

رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يقول في سجوده: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وعلانيته وسره، وأوله وآخره» [٢].

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٠).

(٢) رواه مسلم (٤٨٣) وأبو داود (٨٧٨).

الحديث فيه أن النّبيّ ﷺ كان يقول: «**اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجلّه، علانيته وسره، وأوله وآخره**».

وهذا من باب التبسُّط في الدعاء والتوسُّع فيه؛ لأن الدعاء عبادة فكل ما كرره الإنسان ازداد عبادة لله عز وجل، ثم إنه في تكرار هذا يستحضر الذنوب كلها السر والعلانية، وكذلك ما أخفاه وكذلك دقه وجلّه، وهذا هو الحكمة في أن النّبيّ ﷺ فصل بعد الإجمال، فينبغي للإنسان أن يحرص على الأدعية الواردة عن رسول الله ﷺ؛ لأنها أجمع الدعاء وأنفع الدعاء، وفّقنا الله وإياكم لما فيه الخير والصلاح.

وعن عائشة ﵂ قالت: «افتقَدتُ النّبيّ ﷺ ذات ليلة، فتحسَّسْتُ فإذا هو راكع - أو ساجد - يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلاّ أنت**»، وفي رواية: «فوقعت يدي على بطن قدميه، وهو في المسجد، وهما منصوبتان وهو يقول: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» [(١)].

عن عائشة ﵂ أنها افتقدت النّبيّ ﷺ ذات ليلة، فخرجت تتحسس عنه؛ لأنها ﵂ هي أحب نسائه إليه وهي تحبه أيضًا، فتخشى أن يكون حدث له شيء، فذهبت تتحسس فوجدته ﷺ في المسجد وهو ساجد يدعو الله تبارك وتعالى بهذا الدعاء، قالت: ووقعت يدي على بطن قدميه وهو ساجد، واستدل العلماء بذلك على أن الساجد ينبغي له أن يضم قدميه بعضهما إلى بعض، ولا يفرقهما؛ لأنه لا يمكن أن تقع اليد الواحدة على قدمين متفرقتين، وكذلك هو أيضًا في صحيح ابن خزيمة أن النّبيّ ﷺ كان يضم رجليه في السجود [(٢)].

أما الركبتان فهما على طبيعتهما لا يفرقهما ولا يضمهما.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٨).

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه (١/ ٣٢٨).

وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام: **«اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك»** والمعنى: أنه ﷺ يستعيذ بالله عز وجل بالأعمال الصالحة عن الأعمال السيئة؛ لأن الأعمال السيئة توجب الغضب والسخط، والأعمال الصالحة توجب الرضا، والشيء إنما يُداوَى بضده، فالسخط ضده الرضا، فيستعيذ بالرضا من السخط.

«وبمعافاتك من عقوبتك» يعني أستعيذ بمعافاتك من الذنوب وآثارها وعقوباتها من عقوبتك على الذنوب، وهذا يتضمن سؤال المغفرة، وأعوذ بك منك، وهذا أشمل وأعم، إنه يتعوذ بالله من الله عزّ وجل، وذلك لأنه لا مَنْجَى ولا ملجأ من الله إلاّ إليه، لا أحد ينجيك من عذاب الله إلاّ الله عز وجل، فتستعيذ بالله من الله سبحانه وتعالى، أي: تستعيذ به من عقوبته، وغير ذلك مما يقدره، ودل هذا على أن النّبيّ ﷺ كان ﷺ يصلي أحيانًا النافلة في المسجد، [انظر مسلم (٨٨١)] مع أن الأفضل أن تكون النوافل في البيت كما قال رسول الله ﷺ: **«أفضل صلاة المرء في بيته إلاّ المكتوبة»** (١) لكنه عليه الصلاة والسلام أحيانًا يُصلي النافلة في المسجد.

وفيه أيضًا: دليل على محبة عائشة لرسول الله ﷺ ولا غرابة، فإنه عليه الصلاة والسلام كانت هي أحب نسائه اللاتي عنده، ولا يساميها أحد، اللهم إلاّ خديجة رضي الله عنها فإن خديجة هي أول نسائه ﷺ ولم يتزوج عليها أحد حتى ماتت، وكان يذكرها دائمًا أي يذكر خديجة، لكن عائشة رضي الله عنها هي أحب نسائه الموجودات في عهد عائشة.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الإنسان يستعيذ بصفات الله عز وجل من ضدها بالرضا من السخط، وبالمعافاة من العقوبة، وأنه لا ملجأ له من الله إلاّ إليه، فيستعيذ بالله منه تبارك وتعالى. والله الموفق.

وعن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النّبيّ ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلّى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة

---

(١) رواه البخاري (٧٢٩٠) ومسلم (٧٨١).

فقال: «مازلت على الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم، فقال النبيّ ﷺ: «لقد قلتُ بعدكِ أربعَ كلمات ثلاث مرات، لو وُزِنَت بما قُلتِ منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته» (١).

وفي رواية له: «سبحانه الله عدد خلقه، سبحان الله رضاء نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته».

وفي رواية الترمذي: «ألا أعلمك كلمات تقولينها؟ سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله مداد كلماته» (٢).

هذه الأحاديث من الأحاديث التي فيها بيان فضيلة نوع من أنواع الذكر، وهو ما روته أم المؤمنين جويرية بنت الحارث عن النبيّ ﷺ أنه خرج من عندها الفجر ثم رجع إليها ضحىً، وهي تُسبح وتهلل، فبيّن لها ﷺ أنه قال بعدها كلمات تزن ما قالت منذ الفجر أو منذ الصبح: «سبحان الله وبحمده عدد خلقه» ثلاث مرات، «سبحان الله وبحمده رضا نفسه» ثلاث مرات، «سبحان الله وبحمده زنة عرشه» ثلاث مرات، «سبحان الله وبحمده مداد كلماته» ثلاث مرات، أما «سبحان الله وبحمده عدد خلقه»: فمعناه أنك تسبح الله عز وجل وتحمده عدد مخلوقاته، ومخلوقات الله عز وجل لا يُحصيها إلاّ الله كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وأما: «سبحان الله وبحمده زنة عرشه» وزنة عرشه لا يعلم ثقلها إلاّ الله سبحانه وتعالى؛ لأن العرش أكبر من المخلوقات التي نعلمها، فإن النبيّ ﷺ يروى

---

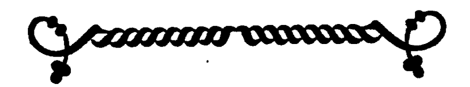
(١) رواه مسلم (٢٧٢٦).
(٢) رواه الترمذي (٣٥٥٥).

عنه أنه قال: «إن السماوات السبع والأراضين السبع في الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة»[1]، إذًا فهو مخلوق عظيم لا يعلم قدره إلاَّ الله عز وجل.

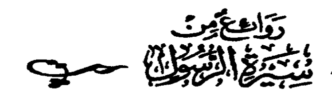
وأما: «سبحان الله وبحمده رضا نفسه» فيعني: أنك تُسبح الله وتحمده حمداً يرضى به الله عز وجل، وأي حمد يرضى به الله إلاَّ وهو أفضل الحمد وأكمله.

وأما: «سبحان الله وبحمده مداد كلماته» والمداد ما يكتب به الشيء وكلمات الله تعالى لا يُقارن بها شيء، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ﴾ [لقمان: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف: ١٠٩]، فكلمات الله تعالى، لا نهاية لها.

فالمهم أن ينبغي لنا أن نحافظ على هذا الذكر. سبحان الله وبحمده عدد خلقه (ثلاث مرات)، سبحان الله وبحمه رضا نفسه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده زنة عرشه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده مداد كلماته (ثلاث مرات) فيكون الجميع اثنتى عشرة مرة.



(١) وانظر الصحيحة (١٠٩) للشيخ الألباني .



ما جاء في مرضه ﷺ

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَمعتُ النبيَّ ﷺ وهو مستند إليّ يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى»(١) .

وعنها قالت: رأيتُ رسولَ الله ﷺ وهو بالموت، عنده قدح فيه ماء، وهو يدخل يده في القدح، ثم يمسح وجهه بالماء، ثم يقول: «اللهم أعني على غمرات الموت وسكرات الموت»(٢) .

في هذا الحديث تقول عائشة رضي الله عنها ان النبيّ ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى» هكذا يقول الرسول ﷺ عند موته وهو الذي غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر!.

من هم الرفيق الأعلى؟ هم النّبيّون والصدّيقون والشهداء والصالحون وحسن أولئك رفيقًا، هكذا كان الرسول الله ﷺ يقول عند موته، وكان عنده إناء فيه ماء، وقد أتى من شدة الموت وسكراته ما لم يؤتَ أحد؛ لأنه ﷺ يمرض مرض رجلين، شُدّد عليه المرض، وشُدّد عليه النزع، لماذا؟ من أجل أن ينال أعلى درجات الصبر؛ لأن الصبر يحتاج إلى شيء يصبر عليه، فكأن الله قد اختار لنبيه ﷺ أن يكون مرضه شديداً، ونزعه شديداً؛ حتى ينال أعلى درجات الصابرين ﷺ .

فكان ﷺ يضع يده في الإناء الذي فيه الماء، ويمسح بذلك وجهه ويقول: «اللهم أعني على سكرات الموت» أو قال: «سكرات الموت».

أي: أعني عليها حتى أتحمل وأصبر وأتروى، ولا يزيغ عقلي، وحتى يختم لي بشهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله؛ لأن المقام مقام عظيم، مقام هول وشدة إذا لم يُعنك الله عز وجل ويصبرك فأنت على خطر؛ ولهذا كان يقول:

---

(١) رواه البخاري (٤٤٤٠)، ومسلم (٢٤٤٤) .

(٢) رواه الترمذي (٩٧٨) وضعفه الألباني في المشكاة (١٥٦٤) .

«اللهم أعني على غمرات الموت» وفي رواية أخرى يقول: «لا إله إلاَّ الله، إن للموت سكرات»، وصدق النبيّ ﷺ، فقد قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ⑲﴾ [ق: ١٩]، نسأل الله أن يعيننا وإياكم على غمرات الموت، وأن يحسن لنا ولكم الخاتمة ويتوفانا على الإيمان والتوحيد، وأن يتوفانا وهو راضٍ عنّا إنه على كل شيء قدير.

وعن أنس ﷺ قال: لما ثقل النبيّ ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة ﷺ: واكرب أبتاه، فقال: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»، فلما مات قالت: «يا أبتاه أجاب ربًا دعا، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه»، فلما دُفن قالت فاطمة ﷺ: «أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟» (١).

قوله: «جعل يتغشاه الكرب» أي: من شدة ما يصيبه، جعل يُغْشَى عليه من الكرب؛ لأنه يشدد عليه الوعك والمرض، كان يوعك كما يوعك الرجلان من الناس، والحكمة في هذا من أجل أن ينال ﷺ أعلى درجات الصبر، فإن الصبر منزلة عالية لا يُنال إلاَّ بامتحان واختبار من الله عز وجل؛ لأنه صبر على مكروه.

فإذا لم يصب الإنسان بشيء يكره فكيف صبره، ولهذا قال الله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]، فكان الرسول ﷺ يوعك كما يوعك الرجلان من الناس، فجعل يتغشاه الكرب فتقول فاطمة ﷺ: «واكرب أبتاه» تتوجع له من كربه؛ لأنها امرأة، والمرأة لا تطيق الصبر.

فقال عليه الصلاة والسلام: «لا كرب على أبيك بعد اليوم»؛ لأنه لما انتقل من الدنيا انتقل إلى الرفيق الأعلى، كما قال ﷺ وهو يغشاه الموت يقول: «اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى» وينظر إلى سقف البيت، وتوفي الرسول عليه الصلاة والسلام، فجعلت ﷺ تندبه لكنه ندب خفيف لا يدل على التسخط من قضاء الله وقدره.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٦٢).

فجعلت تقول: «يا أبتاه إلى جبريل ننعاه» النعي هو الإخبار بموت الميت، وقالت: إننا ننعاه إلى جبريل؛ لأنه هو الذي كان يأتيه بالوحي صباحًا ومساءً؛ فإذا فُقد الرسول ﷺ فُقد نزول جبريل إلى الأرض بالوحي؛ لأنه انقطع بموت الرسول ﷺ.

وقوله: «أجاب ربًا دعاه»؛ لأن الله هو الذي بيده ملكوت كل شيء، آجال الخلق بيده، تصريف الخلق بيده، كل شيء إلى الله، إلى الله المنتهى وإليه الرجعى، فأجاب داعي الله وهو أنه ﷺ إذا توفي صار كغيره من المؤمنين يصعد بروحه حتى تقف بين يدي الله عز وجل فوق السماء السابعة.

وقولها: «جنة الفردوس مأواه» ﷺ لأنه أعلى الخلق منزلة في الجنة كما قال الرسول ﷺ: **«اسألوا لي الوسيلة؛ فإنها أعلى درجة في الجنة، ولا تكون إلاّ لعبد من عباد الله، فأرجو أن أكون أنا هو».**

ولا شكّ أن الرسول ﷺ مأواه جنة الفردوس، وجنة الفردوس هي أعلى درجات الجنة، وسقفها الذي فوقها عرش الرب جلّ جلاله، والرسول ﷺ في أعلى درجة منها.

ثم لما حمل ودُفن قالت ﵂: «أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟» يعني من شدة وجدها عليه وحزنها ومعرفتها بأن الصحابة ﵃ قد مُلأتْ قلوبهم بمحبة الرسول عليه الصلاة والسلام.

والجواب: أنها طابت لأن هذا ما أراد الله عز وجل وهو شرع الله ولو كان الرسول ﷺ يُفدَى بكل الأرض لفداه الصحابة ﵃.

لكنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي له الحكم وإليه المرجع، وكما قال الله في كتابه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١].

وفي هذا الحديث بيان أن رسول الله ﷺ كغيره من البشر يمرض ويجوع

ويعطش ويبرد ويحتر، وجميع الأمور البشرية تعتري النّبيّ ﷺ كما قال ﷺ: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون».

وفيه: ردٌّ على هؤلاء القوم الذين يُشركون بالله تعالى، يدعون الرسول ﷺ ويستغيثون به وهو في قبره، بل إنّ بعضهم والعياذ بالله لا يسأل الله ويسأل الرسول، كأن الذي يجيب هو الرسول، ولقد ضلوا في دينهم وسفهوا في عقولهم، فإن الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا فكيف يملك لغيره.

قال الله آمرًا نبيه ﷺ: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، بل هو عبد من عباد الله ولهذا قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

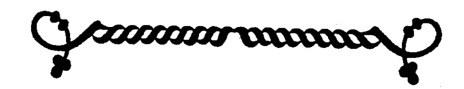
وقال سبحانه له أيضًا: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا﴾ أي هذه وظيفتي، ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣]، ولما أنزل الله قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دعا قرابته وجعل يُنادي إلى أن قال: «يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا».

إلى هذا الحد!! ابنته التي هي بضعة منه والتي يريبه ما يرابها، فهذا دليل على أن من سواها من باب أولى، ففيه بيان ضلال هؤلاء الذين يدعون الرسول ﷺ، تجدهم في المسجد النبوي عند الدعاء يتجهون إلى القبر ويصمدون أمام القبر كصمودهم أمام الله في الصلاة أو أشد.

وفي هذا الحديث: دليل على أنه لا بأس بالندب اليسير إذا لم يكن مؤذنًا بالتسخط على الله عز وجل؛ لأن فاطمة ندبت الرسول ﷺ لكنه ندب يسير، وليس ينم عن اعتراض لقدر الله عز وجل، وفيه دليل على أن فاطمة بنت محمد ﷺ بقيت بعد موته، ولم يبقَ من أولاده بعده إلاّ فاطمة، كل أولاده من بنين وبنات ماتوا في حياته.

بقيت فاطمة وليس لها ميراث ولا أزواجه ولا عمه العباس، ولا أحد من عصبته؛ لأن الأنبياء لا يورثون كما قال الرسول ﷺ: **«إنّا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»**.

وهذا من حكمة الله عز وجل؛ لأنهم لو وَرَّثُوا لقال من يقول إن هؤلاء جاءوا بالرسالة يطلبون ملكًا يُورَّث من بعدهم، ولكن الله منع ذلك، فالأنبياء لا يورثون، بل ما يتركونه صدقة يصرف للمستحقين له، والله الموفق.



وفاة الرسول ﷺ

ابتدأ به المرض ﷺ في آخر شهر صفر وأول شهر ربيع الأول، فخرج إلى الناس عاصباً رأسه، فصعد المنبر، فتشهد وكان أول ما تكلّم به بعد ذلك أن استغفر للشهداء الذين قُتلوا في أُحُد ثم قال: «إن عبداً من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله، فاختار ما عند الله» ففهمها أبو بكر رضي الله عنه فبكى وقال: بأبي وأمي نفديك بآبائنا وأمهاتنا وأبنائنا وأنفسنا وأموالنا، فقال النبيّ ﷺ: «على رسلك يا أبا بكر» ثم قال: «إن أمن الناس على في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن خلة الإسلام ومودته» وأمر أبا بكر أن يصلي بالناس.

ولما كان يوم الإثنين الثاني عشر أو الثالث عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة اختاره الله تعالى لجواره، فلما نزل به جعل يدخل يده في ماء عنده، وجعل يمسح وجهه ويقول: «لا إله إلاّ الله، إنّ للموت لسكرات» ثم شخص بصره نحو السماء وقال: «اللهم الرفيق الأعلى».

فتوفي يوم الإثنين، فاضطرب الناس عند ذلك وحقّ لهم أن يضطربوا، حتى جاء أبو بكر رضي الله عنه فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت، ثم قرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠].

فاشتد بكاء الناس وعرفوا أنه قد مات فَغُسّل ﷺ تكريما له، ثم كُفّن وصلّى الناس عليه أرسالاً بدون إمام، ثم دُفن ليلة الأربعاء صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن

تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) ﴾ [آل عمران: ١٤٤، ١٤٥].

الصلاة على رسول الله ﷺ

الأمر بالصلاة عليه وفضلها

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من صلى عليَّ صلاة، صلَّى الله عليه بها عشراً»[(١)].

باب الأمر بالصلاة على النَّبيِّ ﷺ، الأمر يكون تارة للوجوب وتارة يكون للإستحباب، فالذي للوجوب يعني أن الإنسان إذا تركه فهو آثم عاصٍ مستحق للعقوبة، وأما للاستحباب أن الإنسان إذا فعله فله أجر، وإذا تركه فليس عليه إثم، فيتفق الواجب والمستحب بأن فيهما ثواب لفعلهما، لكن ثواب الواجب أعظم وأكثر؛ لقول النَّبيِّ ﷺ في الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه»[(٢)].

ويختلف الواجب عن المستحب بأن تارك الواجب آثم عاص لله ومستحق للعقوبة، وتارك المستحب لا يأثم، لكن فاته خير، والأمر بالصلاة على النَّبيِّ ﷺ هل تجب الصلاة على النبيِّ ﷺ في العمر مرة أو بأسباب أو لا تجب، والصحيح أنها تجب بأسباب، وإلاَّ فالأصل أنها مستحبة، فما معنى الصلاة على النَّبيِّ ﷺ؟ أي: ما معنى «اللهم صلِّ على محمد»؟ أكثر الناس يقرأ هذا أو يدعو هذا الدعاء، وهو لا يدري معناه، وهذا غلط، كل شيء تقوله يجب أن تعلم معناه، كل شيء تدعوا به يجب أن تعلم معناه حتى لا تدعو بإثم.

فقولك: اللهم صلِّ على محمد، يعني: اللهم اثنِ عليه في الملأ الأعلى،

---

(١) رواه مسلم (٣٨٤).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

ومعنى اثنِ عليه يعني: اذكره بالصفات الحميدة، والملأ الأعلى هم الملائكة، فكأنك إذا قلت: اللهم صلِّ على محمد، كأنك تقول: يا رب صِفْهُ بالصفات الحميدة، واذكره عند الملائكة حتى تزداد محبتهم له، ويزداد ثوابهم بذلك، وهذا معنى اللهم صلِّ على محمد.

واختلف العلماء - رحمهم الله - هل يصلي على غير النّبيّ ﷺ أم لا؟ يعني: هل يجوز أن نقول: اللهم صلِّ على فلان، أو العالم الفلاني، أو الشيخ الفلاني، أو اللهم صلِّ على أبي، أو ما أشبه ذلك؟.

والصحيح: أن في ذلك تفصيلاً، فإن كان ذلك تابعًا للصلاة على النّبيّ ﷺ فلا بأس؛ ولهذا قال الرسول ﷺ حين سألوه كيف يصلون عليه؟ قال: «قولوا اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد».

وإن كان مستقلاً، فإن كان لسبب فلا بأس، ومن ذلك إذا أتى الإنسان عليك بصدقته لتوزعها، فقل: اللهم صلِّ عليه، واحد أعطاك مائتين ألف ريال، يقول: هذه للزكاة وزعها، فقل: اللهم صلِّ على فلان، ويسمع هذا منك، لقول الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال عبد الله بن أوفى: فأتيتُ بصدقتي، أو قال: أتاه أبي، فقال: اللهم صلِّ على آل أبي أوفى. هذا أيضًا لا بأس.

كذلك إذا صليتَ على إنسان دون أن تجعل ذلك شعارًا له كلما ذكرته صليتَ عليه، فلا بأس، يعني حتى لو قلنا: اللهم صلِّ على أبي بكر أو عمر أو على عثمان أو عليّ فلا بأس، ولكن لا تجعل هذا شعار كلما ذكرت هذا صليتَ عليه؛ لأنك إذا فعلت ذلك جعلته كأنه لقب.

والآية الكريمة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فتأمل ما في هذه الآية من خير وأمر

وتأكيد، ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ هذا خبر أخبرنا الله بذلك، حثٌّ لنا على الصلاة والسلام عليه، ﴿ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ ﴾ كل الملائكة في كل السماوات والأرض يصلون على النّبيّ، والملائكة عالم الغيب من مخلوقات الله، لا يحصيهم إلاّ الله عز وجل، البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه، يعني يجيء ملائكة غيرهم، إذن من الذي يحصيهم،لا يحصيهم إلاّ الله.

وفي الحديث عن النّبيّ ﷺ : «أطت السماء وحق لها أن تئط» والأطيط: هو صرير الرحم، يعني صرير الشتايل التي على البعير، ولا يصر إلاّ إذا كان عليه حمل ثقيل، تسمع له صرخة. ويقول: «وحق لها أن تئط» ما من موضع أربعة أصابع إلاّ وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد.

والسماء ليست كالأرض، السماء أوسع من الأرض، انظر الآن بعدها الشاسع، وهي على الأرض كالكرة، فتكون واسعة وعظيمة، والسماء الثانية أوسع، والثالثة أوسع، والخامسة أوسع، والسادسة أوسع، والسابعة أوسع، كل سماء فيها ملك بين أربع أصابع ملك قائم لله، أو راكع، أو ساجد، إذًا من الذي يحصي الملائكة،إذا كنّا لا نحصي الملائكة، فهل يمكن أن نحصي الصلاة على النّبيّ ﷺ، لا؛ لأن النّبيّ ﷺ أعطاه الله هذه الفضيلة العظيمة التي لا ينالها أحد فيما نعلم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ، هذا خبر أراد الله منّا ان نتشجع، ولهذا قال بعدها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ بمقتضى إيمانكم صلوا عليه، وجّه الخطاب لنا بصدد الإيمان؛ لأن الإيمان هو الذي يحمل الإنسان على امتثال الأمر ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ صلاة وسلامًا.

﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ أي ادعوا الله لأن يثني عليه في الملأ الأعلى، ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ أي: ادعوا الله أن يسلمه تسليمًا تامًا، ومما يسلمه: في حياته من الآفات

الجسدية والآفات المعنوية، وبعد موته، من الآفات المعنوية بمعنى أن تسلم شريعته من أن يقضي عليها قاض، أو ينسخها ناسخ، وكذلك الجسد؛ لأنه ربما يعتدي عليه بعد موته في قبره كما سيأتي في قصة مشهورة أن رجلين أرادا أن يستخرجا جسد النّبيّ ﷺ، فنزل المدينة رجلان غريبان وبدءا يحفران من تحت الأرض حفرة، حتى يتوصلا إلى قبر النّبيّ ﷺ فيأخذا جسده الشريف، فبقيا على ذلك مدة، فرأى أحد الملوك في المنام أن رجلين يحفران إلى جسد النّبي ﷺ ويأخذاه، فاهتم بذلك اهتمامًا عظيمًا، ثم ارتحل إلى المدينة حتى وصل إليها، فمن أين يعلم هو هذين الرجلين؟ وكيف يتوصل إلى معرفتهما، فقال لأمير المدينة: ادعُ لي أهل المدينة، فدعاهم وأطعمهم ومشواء، وما رأى الرجلين، فقال: ادعُ لي أهل المدينة – دعاهم أظن مرتين أو ثلاثًا – ولم يرَ الرجلين، والرؤيا التي رآها حق، لابد أن يكون هذا قال: أين أهل المدينة؟ قالوا: لم يتخلف أحد، لكن رجلين غريبين في المسجد، يعني لهما قيمة، قال: أحضرهما، فجيء بهما فإذا هما اللذان رآهما في المنام،فعرفهما ثم أمر بأن يحفر إلى تخوم الأرض حفرة على جوانب الحجرة التي فيها قبر النّبيّ ﷺ قبل أن تكون حجرة بالبناء، ثم صبّ النحاس والرصاص حتى يحمي الله جسد هذا النبي الكريم، فصب الرصاص إلى الأرض؛ ولهذا قبر النبي محفوظ حفظًا تامًا.

فالمهم أن قول المسلم: اللهم صلّ وسلم على محمد، يعني سلّمه من الآفات الجسدية حيًا وميتًا، وسلّمه أيضًا، سلّم شريعته من أن يطمسها أحد أو أن يعدو عليها أحد، ثم اعلموا أيها الإخوان أن أجساد الأنبياء، لا يمكن أن تأكلها الأرض، لا يمكن لأن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، إذن فأجساد الأنبياء سالمة من الأرض، الأرض تأكل كل جسد إلاّ من شاء الله، لا تأكل أجساد الأنبياء.

والحاصل: أن في هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى أن نصلّي ونسلّم عليه

تسليماً، والصلاة عليه واجبة في مواضع، إذا ذكر اسمه عندك فصلى عليه؛ لأن جبريل أتى إلى النبيّ ﷺ وقال: «رغم» يعني: سقط في الرغامة، وهي الأرض الترابية «رغم أنف امرئ ذكرتَ عنده فلم يصلِّ عليك» يعني إذا سمعت ذكر الرسول ﷺ فقل: «اللهم صلِّ وسلم عليه» فإن له حقًا عليك تجب الصلاة على النّبيّ ﷺ أيضًا عند كثير من العلماء في الصلاة في التشهد الأخير، فعند كثير من العلماء أنها ركن لا تصح الصلاة إلا به، وعند بعضهم أنها سنة، وعند بعضهم أنها واجب، والإحتياط أن لايدعها الإنسان في صلاته - أي الصلاة على النّبيّ ﷺ - ولو أن الإنسان جعل كل دعاء يدعو به مقرونًا بالصلاة على النّبيّ ﷺ لكان كما جاء في الحديث، يكفي همه ويغفر ذنبه.

ولهذا أكثر يا أخي من الصلاة والسلام على الرسول ﷺ؛ ليزداد إيمانك ويسهل لك الأمر، ثم اعلم أن الرسول ﷺ بشرٌ لا يملك لك نفعًا ولا ضرًا، فلا تسأله، لا تقلْ: يا رسول الله، افعل كذا، يا رسول الله، استغفر لي، يا رسول الله، أغنني، يا رسول الله سهّل أمري. هذا حرام، شرك أكبر؛ لأنه لا يجوز أن تدعو مع الله أحداً، الدعاء خاص بمن؟ قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝ ﴾ [غافر: ٦٠].

فإن قال قائل: أيهما أعظم حقًا الوالدين (يعني: الأم والأب) أم الرسول؟ الرسول أعظم من حق نفسك عليك؛ ولهذا يجب على الإنسان أن يفدي نفسه للرسول؟ الرسول أعظم من حق نفسك عليك، ولهذا يجب على الإنسان أن يكون الرسول أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين.

فإن قال قائل: أليس يذكر حق الوالدين بعد حقه؟ قلنا: بلى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ولكن حق الرسول متبوع بحق الله؛ لأن عبادة الله لا تتم إلا بإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ، والله الموفق.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»** (١).

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من أحد يُسلم عليّ إلاّ ردّ الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام»** (٢).

وعن عليّ رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: **«البخيل من ذُكرتُ عنده، فلم يصلّ عليّ»** (٣).

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجد الله تعالى، ولم يُصلّ على النّبيّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«عجل هذا»** ثم دعاه فقال له – أو لغيره –: **«إذا صلّى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه والثناء عليه، ثم صلي على النّبيّ ﷺ، ثم يدعو بعد بما شاء»** (٤).

هذه الأحاديث الأربعة أيضاً فيها الأمر بالصلاة عن النّبيّ ﷺ، وفضيلة منها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النّبيّ ﷺ قال: **«لا تجعلوا قبري عيداً، وصلّوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم»**.

المعنى: لا تجعلوا قبري عيداً تُكرمونه بالمجيئ إليه كل سنة مرة أو مرتين، أو ما شابه ذلك، وفيه دليل على تحريم شد الرحال لزيارة قبر النّبيّ ﷺ، وأن الإنسان إذا أراد الذهاب إلى المدينة لا يقصد أن يسافر من أجل زيارة قبر الرسول ﷺ، ولكن يسافر من أجل الصلاة في مسجده؛ لأن الصلاة في مسجده خير من ألف صلاة فيما سواه، إلاّ المسجد الحرام، فقال: **«وصلوا عليّ فإنّ صلاتكم تبلغني حيثما كنتم»** إذا صليت على الرسول ﷺ فإن صلاتك تبلغه حيثما كنت في بر أو بحر أو جو، قريب كنت أم بعيد.

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٤٢) بإسناد صحيح، وصححه الألباني على الشواهدفي صحيح أبي داود (١٧٩٦).

(٢) رواه أبو داود (٢٠٤١) بإسناد صحيح، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٦٧٩٥).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٤٦) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨١١).

(٤) رواه أبو داود (١٤٨١) والترمذي (٣٤٧٧) وقالا: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣١٤).

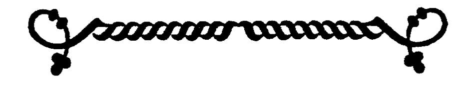
وكذلك الحديث الثاني أنه ما من رجل مسلم يُسلم على النّبيّ ﷺ إلاّ ردّ الله عليه السلام، والظاهر أن هذا فيمن كان قريبًا منه كان يقف على قبره، ويقول السلام عليك أيها النّبيّ ورحمة الله وبركاته، ويحتمل أن يكون عامًا والله على كل شيء قدير.

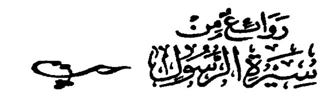
وذكر حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وحديث فضالة بن عبيد وفيهما أيضًا الحثّ على الصلاة على الرسول ﷺ.

ولكن حديث فضالة الظاهر أن المراد بذلك للتشهد، وأن هذا الرجل تشهّد ولم يثنِ على الله، ولم يمجده، ولم يُصلّ على النّبيّ ﷺ، ولكنه دعا مباشرة، ومعلوم أن التشهد فيه أولاً الثناء على الله، في قوله: التحيات لله والصلوات والطيبات، وفيه أيضًا السلام على النّبيّ ﷺ، والصلاة عليه ثم الدعاء، فيحمل - أعني حديث فضالة بن عبيد على هذا - على أنّ المراد بذلك الدعاء في الصلاة، وأنه يسبق بالتحيات، ثم بالصلاة والسلام على النّبيّ ﷺ، ثم الدعاء، والله الموفق.

فائدة: «من الجائز أن يفرد السلام أو الصلاة، لكن الأفضل أن يجمع بينهما».

أما في التشهد: فإن الحديث يأبى؛ لأن خاتمته عبده ورسوله، والرسول علّم أصحابه أول ما علمهم التشهد: «السلام عليك أيها النّبيّ ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».





آيات النبي ﷺ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح» قال: والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ كثيرة، وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويسميها من يسميها من النظار (معجزات) وتُسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة ونحو ذلك، وهذه الألفاظ التي سميت بها آيات الأنبياء كانت أدلّ على المقصد من لفظ المعجزات، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب والسنة، وإنما فيه لفظ الآية والبيّنة، والبرهان.

قال - رحمه الله -: والآيات نوعان منها ما مضى وصار معلوماً بالخبر، ومنها ما هو باقٍ إلى اليوم كالقرآن، والإيمان، والعلم اللذين في اتباعه، وكشريعته التي جاء بها وذكر أمثلة أخرى؛ لذلك سنعرض إن شاء الله لشيء منها تفصيلاً، فمن هذه الآيات:

١- القرآن الكريم:

وهو أعظم آيات النّبيّ ﷺ؛ لأنه الآية السابقة الباقية، فمنذ أوحى الله إليه به حتى اليوم وهو آية شاهدة على نبوة محمد ﷺ؛ فالقرآن كلام الله تعالى لفظاً ومعنى، تكلم الله به كلاماً حقيقيا، فأوحاه إلى جبريل، ثم نزل به جبريل على قلب النّبيّ ﷺ فوعاه، وحفظه وتكفل الله له بحفظه حيث قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٧- ١٩].

وإذا كان الله قد تكفّل ببيانه، فمعناه أن الرسول ﷺ سيحفظه ويعيه حتى يبلغه الناس ويبينه لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

والقرآن آية من آيات النبي ﷺ الدالة على صدقه من عدة أوجه:

الأول – عجز الخلق كلهم أن يأتوا مجتمعين أو منفردين بمثل هذا القرآن، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]. يعني: لا يمكن أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم معينًا لبعض؛ وذلك لأن القرآن كلام الله ولا يمكن أن يشبهه شيء من كلام المخلوقين، لا من حيث اللفظ، ولا من حيث المعنى، ولا من حيث التأثير، ولا من حيث الثمرة والآثار الحميدة.

الثاني – من حيث اللفظ في قوّته، ورصانته، وتركيبه، وأسلوبه، ونظمه، وبيانه، ووضوحه، وشموله للمعاني العديدة الواسعة التي لا تزال تظهر عند التأمل والتفكير، حتى كأنك لتسمع الآية التي ما تزال تقرؤها فينقدح لك منها معنى جديد، كأنك لم تسمع الآية من قبل وكأن الآية نزلت لتوها من أجله..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع، ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب، فإنه ليس من جنس الشعر، ولا الرجز، ولا الرسائل، ولا الخطابة، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته، هذا عجيب خارق للعادة، ليس له نظير في كلام جميع الخلق.

وقال الشيخ/ محمد رشيد رضا في كتابه «الوحي المحمدي» تحت عنوان:

الفصل الرابع: إن القرآن لو أنزل بأساليب الكتب المألوفة المعهودة وترتيبها لفقد عظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الأول.

وأقول أيضا: أنه لو أنزل هكذا لفقد بهذا الترتيب أخص مراتب إعجازه المقصود بالدرجة الثانية .

وقال: لو كان القرآن مرتبًا مبوبًا، كما ذكر لكان خاليًا من أعظم مزاياه شكلاً وموضوعاً، يعلم هذا وذاك مما نبينه من فوائد نظمه وأسلوبه الذي أنزل به رب

العالمين، العليم الحكيم، الرحيم، وهو مزج كل المقاصد، هذه كلها بعضها ببعض، وتفريقها في سوره الكثيرة الطويلة منها، والقصيرة بالمناسبات المختلفة وتكرارها بالعبارات البليغة المؤثرة في القلوب المحركة للشعور المنافية للسآمة والملل إلى أن قال: والقابلة لأنواع أخرى من إلقاء الخطب في الترغيب والترهيب، والتعجب والتعب، والتكْريه، والتَّحْبيب، والزَّجْر، والتأنيب، والاستفهام، والإنكار، والتقرير، والتَّهكُّم، والتوبيخ، بما لا نظير له في كلام البشر من خطابة، ولا شعر ولا رجز ولا سجع، فبهذا الإسلوب الرفيع في النظم البديع، وبلاغة التعبير الرفيع كان القرآن كما ورد في معنى وصفه لا تبلى جدّته ولا تخلقه كثرة الترديد. اهـ.

الوجه الثالث – من إعجاز القرآن من حيث أهدافه العالية وآدابه الكاملة وتشريعاته المصلحة، فقد جاء بإصلاح العقيدة كالإيمان بالله، وبما له من الأسماء والصفات والأفعال، والإيمان بجميع ملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وما يتعلق بذلك، وجاء بإخلاص العبادة لله، وتحرير الفكر والعقل والشعور من عبادة غير الله والتعلق به خوفًا، ورجاءً، ومحبة، وتعظيمًا، وجاء بالآداب الكاملة التي يشهد بكمالها، وصلاحها، وإصلاحها كل عقل سليم أمر بالبر والصلة، والصدق، والعدل، والرحمة والإحسان، ونهى عن كل ما يخالف ويناقض من الظلم، والبغي، والعدوان.

أما تشريعاته فبها من نظم المصلحة للعباد والبلاد في المعاش، والمعاد، وإصلاحًا في العبادة، وإصلاحًا في المعاملة، في الأحوال الشخصية، والإجتماعية، والإقتصادية والفردية، فيما لو اجتمع الخلق كلهم على سنّ نُظُم تماثلها أو تقاربها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

الوجه الرابع – من إعجاز القرآن هو تأثيره على النفوس والقلوب، فإنه ينفذ إلى القلب نفوذ السهم في الرمية، ويُسيطر على العقول سيطرة الشمس على أفق

الظلام كما شهد بذلك الموالي والمعادي، حتى إن الرجل العادي – فضلاً عن المتعلم – ليسمع القرآن فيجد من نفسه جاذبية عظيمة تجذبه إليه قسراً، يعرف أن هذا ليس من كلام البشر، فقد سمع الوليد بن المغيرة عمّ أبي جهل القرآن مرة من رسول الله ﷺ، فقال لقومه من بني مخزوم : لقد سَمِعتُ من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه.

واجتمع مرة كبراء قريش، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر، والكهانة، والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا فليُكلمه ولينظر ما عليه. فقالوا: ما نعلم أحد غير عتبة بن ربيعة، فكلّم النبيّ ﷺ، وعرض عليه كل ما يمكن إغراؤه به من المال والجاه والنساء، فلمّا أتمّ كلامه تلا عليه رسول الله ﷺ أول سورة فصلت، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ فصلت: ١٣].

قام عتبة فأمسك بفم النّبيّ ﷺ، وناشده الرحم أن يكف عنه، فلما رجع عتبة بن ربيعة إلى قومه، وجدوه متغيراً، وقصّ عليهم خبره وما وقع من الرعب في قلبه بقراءة النّبيّ ﷺ، وقال لهم: لقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئًا لم يكذب فَخِفْتُ أن يَنزِلَ بكم العذابُ، ولقد كلّمني بكلام ما سَمِعت أُذُنَاي بمثله قط، فما دريت ما أقول.

ولقد كان بعض الكبراء من قريش يأتون ليلاً خفية يستمعون تلاوة النّبيّ ﷺ للقرآن كما جرى ذلك لأبي جهل وأبي سفيان وغيرهما.

وهذه القصص وأمثالها تدل دلالة ظاهرة على تأثير القرآن في النفوس وأخذه بمجامع القلوب، ولكن هذا التأثير قد لا يظهر لكل أحد إنما يظهر لمن كان له ذوق ومعرفة بأساليب الكلام، وبلاغة اللسان.

ومن يكُ ذا فم مر مريض يجد مرًا به الماء الزلالا

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – بعد أن ذكر أنواعًا من إعجاز القرآن: وهذه الأمور من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة ظهر له إعجازه من هذا الوجه، ومن لم يظهر له ذلك اكتفى بالأمر الظاهر الذي يظهر له ولأمثاله كعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله مع تحدي النبيّ ﷺ وإخباره بعجزهم فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد.

الوجه الخامس – من إعجاز القرآن تلك الآثار الجليلة التي حصلت لأمة القرآن باتباعه والعمل بأهدافه السامية، وتعاليمه الرشيدة، فقد ارتقى بأمة القرآن التي اعتنت به لفظًا، وفهمًا، وتطبيقًا ارتقى بها إلى أوج العلى في العبادة والآداب والكرامة والعزة، لقد عرف سلف هذه الأمة قيمة هذا القرآن الكريم، فكانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، فتعلموا القرآن والعلم، والعمل جميعًا، قادوا جميع العالم،وصارت لهم العزة والغلبة ، والظهور، والتمكين في الأرض، والعلوم النافعة مع أنهم كانوا قبل ذلك متفرقين، ضالين، أُمّيّين، مغلوبين بين الأمم.

ولن يعود لأمة القرآن ذلك العز، والظهور والغلبة حتى يرجعوا إلى المعين الذي رُويَ به أسلافهم، فيأخذوا منه صافيًا من غير كدر، لن يعود لهم ذلك حتى يرجعوا إلى كتاب الله، وسُنّة رسول الله ﷺ، ويتفهمونهما ويطبقوهما اعتقادًا،وقولاً، وعلمًا وعملاً، وكيفًا، مؤمنين بذلك، معتقدين أن هذا هو طريق الصلاح والإصلاح والسلامة.

وإن من المؤسف حقًا أن ترى الكثير من المسلمين اليوم لا يلتفتون إلى الكتاب والسنة، ولا يفهمونهما ولا يطبقونهما، بل أكثرهم لا يقرأ من القرآن في عامه كله إلاّ ما يقرؤه في صلاته، هذا مع قلة تفهم في اللغة العربية، وآدابها، وأساليبها، فلم يكن عندهم ذوق لغوي، ولا شرعي لكتاب الله، وسنة رسوله

ﷺ؛ ولذلك ابتعدوا عن مقومات الدين وآثاره ونتائجه بقدر ما ابتعدوا عن كتاب الله وسنة رسول الله، وإنا لنرجو من الله تعالى أن يهيئ لأمة القرآن من أمرها رشداً، و أن يبعث لها قادة فكر وسياسة لما فيه الخير والصلاح، والرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها(١).

٢ - ومن آيات النّبيّ ﷺ ما أظهره الله شاهداً على صدقه من الآيات الأفقية:

كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ ﴾ [فصلت: ٥٣]، ولذلك أمثلة:

المثال الأول: انشقاق القمر، فقد انشقّ القمر وصار فرقتين وشاهد الناس ذلك، وقد أشار الله إلى ذلك في القرآن، قال الله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾ [القمر: ١، ٢].

وقد أجمع العلماء على وقوع ذلك في عهد النّبيّ ﷺ قبل الهجرة، وقد رآه الناس بمكة، وقال النّبيّ ﷺ حين رآه: «اشهدوا اشهدوا» وقدم المسافرون من كل وجهة فأخبروه أنهم رأوه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : وجعل الآية في انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب؛ لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم، وكان الإنشقاق فيه دون سائر أجزاء الفلك؛ إذ هو الجسم المستنير الذي يظهر الإنشقاق فيه لكل من يراه ظهوراً لا يتمارى فيه، وأنه إذا قبل الإنشقاق، فقبول محله أولى بذلك وقد عاينه الناس وشاهدوه، وكان النّبيّ ﷺ يقرأ هذه السورة في المجامع الكبار مثل صلاة العيدين، وكل الناس يقرّ بذلك، ولا ينكره ولو لم يكن قد انشقّ لأسرع الناس إلى تكذيب ذلك.

وقد استبعد أناس وقوع انشقاق القمر، وحاولوا تحريف معنى القرآن في ذلك، وقد أخطأوا خطأ كبيراً في هذا الإنكار؛ فالقرآن لا يتحمل المعنى الذي

(١) راجع للأهمية سلسلة «إعجاز القرآن» للدكتور طارق السويدان.

حرفوه إليه، والنصوص الثابتة الكثيرة من الأحاديث الصحيحة الصريحة في انشقاقه انشقاقًا حسيًا مشهودًا، و لا يقدح في ذلك ما زعمه بعضهم من كونه لم ينقل في تاريخ غير التاريخ الإسلامي، فإن نقله في التاريخ الإسلامي كافٍ في ذلك، وقد جاء به القرآن الكريم، ولعلّ الذين لم ينقلوه لم يشاهدوه، لعله وقع وهم نيام أو كانوا في النهار، ولم يشعروا به، أو كان في تلك الساعة مانع من سحاب أو غيره، وقد أخبر المسافرون الذين قدموا مكة بمشاهدته، وهو لم يستمر فيما يظهر، وإنما كان آية شاهدها الناس ثم عاد إلى حاله الأولى.

المثال الثاني: المعراج فإنه من أكبر الآيات فلقد أُسريَ بالنّبيِّ ﷺ في ليلة واحدة إلى بيت المقدس، واجتمع هناك بالأنبياء، وصلّى بهم، ثم عرج به جبريل حتى بلغ سدرة المنتهى فوق سبع سموات، وأوحى الله تعالى إليه ما أوحى، وشاهد ﷺ من آيات الله الكبرى ما شاهد، ومر بالأنبياء في كل سماء، ورجع إلى مكة، وكل ذلك في ليلة واحدة مع بعد المسافة الأرضية بين مكة وبين بيت المقدس، ثم البعد العظيم بين السماء والأرض، وبين السماء الدنيا وما فوقها إلى سدرة المنتهى، وقد أخبر الله تعالى في القرآن عن الإسراء في سورة الإسراء وعن المعراج في سورة النجم إذا هوى.

المثال الثالث: نزول المطر باستسقائه مباشرة، وإقلاع المطر باستصحائه مباشرة ففي صحيح البخاري وصحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «أصابت سنَة - أي جدب - على عهد رسول الله ﷺ فبينا النّبيّ ﷺ يخطب في يوم الجمعة قام أعرابيّ، فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال، فادعُ الله لنا. فرفع ﷺ يديه وما نرى من السماء قزعة (أي قطعة سحاب، فوالذي نفسي بيده) ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته، فَمُطِرْنا يوم ذلك، ومن الغد، ومن بعد الغد حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي، أو غيره، فقال: يا رسول الله، تهدّم البناء، وغرق

المال، فادعُ الله لنا، فرفع يديه وقال: «**اللهم حوالينا لا علينا**، فما يشير إلى ناحية من السحاب إلاَّ انفرجت، فاقلع المطر وخرجنا نمشي في الشمس[1].

٣ - ومن آيات النَّبيِّ ﷺ ما وقع مطابقًا لما أخبر به ﷺ من أمور الغيب التي وقعت في عهده وبعده:

المثال الأول: ما رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُرينا مصارع أهل بدر قبل ابتداء القتال، يقول: «**هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، هذا مصرع فلان**» فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حددها رسول الله »[2].

المثال الثاني: إخباره ﷺ عن ظهور نار في أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى**»[3].

فقد خرجت هذه النار في جماد الآخرة سنة (٦٥٤ هـ) شرقي المدينة، فأقامت نحو من شهر وملأت تلك الأودية وشاهد الناس أعناق الإبل ببصرى وهي بلدة بالشام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذه النار كانت تحرق الحجر.

ومن أمثلة ذلك : ما أخبر به النَّبيّ ﷺ من الفتن، وتغير أحوال الناس وغير ذلك.

ومن آيات النَّبيِّ ﷺ: ما رواه البخاري وغيره عن جابر رضي الله عنه قال: «عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة (إناء للماء) فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به، ونشرب إلا ما في الركوة التي

---

(١) رواه البخاري (٩٣٣) ومسلم (٨٩٧).

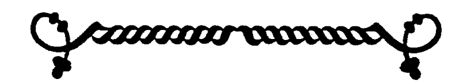
(٢) رواه مسلم (١٧٧٩)، (٢٨٧٣).

(٣) رواه البخاري (٧١١٨)، ومسلم (٢٩٠٢).

عندك، فوضع النّبيّ ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه، كأمثال العيون، قال: فشربنا وتوضأنا، قيل لجابر ﷺ كم كنتم؟ قال: لو كنّا مئة ألف لكفانا، كنّا ألف وخمسمائة» (١).

ومن آيات النّبيّ ﷺ: تكثير الطعام كما جرى ذلك يوم الخندق وجرى ذلك لأبي هريرة مع أهل الصُّفَّة وآياته ﷺ كثيرة جداً (٢)، وقد ذكر أهل العلم من ذلك الشيء الكثير، من أوسع ما رأيت في ذلك تاريخ ابن كثير - رحمه الله - حيث كتب في آيات النبيّ ﷺ مجلداً كبيراً، وذلك أن جميع آيات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد جرى مثلها للنبيّ ﷺ وأمته أو ما هو أعظم منها.

وهذه الآيات التي يجريها الله على أيدي أنبيائه وأوليائه كلها شاهدة بما له تعالى من كمال العلم، والقدرة، والرحمة، وأن الأمور كلها بيده يجريها كما يشاء، لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون، فلله الحمد والمنّة، سبحانه لا نحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.



(١) انظر «الصحيح المسند من دلائل النبوة» للشيخ مقبل بن هادي الوادعي.
(٢) المرجع السابق.

أغراض زواج النبي ﷺ

من المعلوم أن النّبيّ ﷺ بشر أكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة إلى الناس كافة، وأن اتصافه بما تقتضيه الطبيعة البشرية من الحاجة إلى الأكل والشرب والنوم والبول والغائط ومدافعة البرد والحر والعدو ومن التمتع بالنكاح وأطايب المأكول والمشروب وغيرها من مقتضيات الطبيعة الشرية، لا يقدح في نبوته ورسالته، بل قد قال الله تعالى له: ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال ﷺ عن نفسه: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون».

وانتفاء علم الغيب وطرد النسيان على العلم قصور في مرتبة العلم من حيث هو علم، لكن لما كان من طبيعة البشر الذي خلقه الله ضعيفًا في جميع أموره، لم يكن ذلك قصورًا في مقام النبوة، ونقصًا في حق النبيّ ﷺ.

ولا ريب أن شهوة النكاح من طبيعة الإنسان فكمالها فيه من كمال طبيعته، و قوتها فيه تدل على سلامة البنية واستقامة الطبيعة، ولهذا ثبت في صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: كنّا نتحدث أنه – يعني النّبيّ ﷺ – أُعطِيَ قوة ثلاثين يعني على النساء، وهذا – والله أعلم – ليتمكن من إدراك ما أحل الله منهن بلا حصر ولا مهر، ولا وليّ، فيقوم بحقوقهن، ويحصل بكثرتهن ما حصل من المصالح العظيمة الخاصة بهن، والعامة للأمة جميعًا، ولولا هذه القوة التي أمدّ الله بها ما كان يدرك أن يتزوج بكل هذا العدد، أو يقوم بحقهن من الإحصان والعشرة.

ولو فرض أن النّبيّ ﷺ تزوّج امرأة لمجرد قضاء الوطر من الشهوة والتمشي مع ما تقتضيه الفطرة، بل الطبيعة لم يكن في ذلك قصور في مقام النبوة، ولا نقص في حقه ﷺ، كيف وقد قال ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، وحسبها، وجمالها، ودينها، فاظفر بذات الدين» بل قد قال الله له: ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ

بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

لكننا لا نعلم حتى الآن أن رسول الله ﷺ تزوج امرأة لمجرد قضاء الوطر من الشهوة، ولو كان كذلك لاختار الأبكار الباهرات جمالاً، الشابات سنّاً، كما قال لجابر ؓ حين أخبره أنه تزوج ثيبًا، فقال ﷺ: «فهلاّ بكرًا تلاعبها وتُلاعبك؟»، وفي رواية: «تضاحكها وتضاحكك»، وفي رواية: «ما لك وللعذارى ولعابها؟!» [رواه البخاري]، وإنما كان زواجه ﷺ إما تاليفا أو تشريفا، أو جبرًا، أو مكافاة، أو غير ذلك من المقاصد العظيمة.

وقد أجملها في «فتح الباري» (ص١١٥ ج٩) حيث قال: «والذي تحصل من كلام أهل العلم في الحكمة في استكثاره من النساء عشرة أوجه:

أحدها – أن يُكثر من يُشاهد أحواله الباطنة فينتفي عنه ما يظن به المشركون من أنه ساحر أو غير ذلك.

ثانيها – لتشرف به قبائل العرب بمصاهرته فيهم.

ثالثها – الزيادة في تألفهم لذلك.

رابعها – الزيادة في التكليف حيث كلف أن لا يشغله ما حبب إليه منهن عن المبالغة في التبليغ.

خامسها – لتكثر عشيرته من جهة نسائه فتزداد أعوانه على من يحاربه.

سادسها – نقل الأحكام الشرعية التي لا يطلع عليها الرجال؛ لأن أكثر ما يقع من الزوجة مما شأنه أن يختفي مثله.

سابعها – الإطلاع على محاسن أخلاقه الباطنة، فقد تزوج أم حبيبة وأبوها يعاديه، وصفية بعد مقتل أبيها وعمها وزوجها، فلو لم يكن أكمل الخلق في خلقه لنفرن منه، بل الذي وقع أنه كان أحب إليهن من جميع أهلهن.

ثامنها – ما تقدّم مبسوطًا من خرق العادة له في كثرة الجماع مع التقلل من

المأكول والمشروب وكثرة الصيام والوصال، وقد أمر من لم يقدر على مؤن النكاح بالصوم، وأشار إلى أن كثرته تكسر شهوته، فانخرقت هذه العادة في حقه ﷺ.

تاسعها وعاشرها – ما تقدم عن صاحب الشفاء من تحصينهن والقيام بحقوقهن» اهـ.

قلت: الثامنة حاصلة لأن الله أعطاه قوة ثلاثين رجلاً كما سبقت.

وثمّ وجه حادي عشر – وهو إظهار كمال عدله في معاملتهن لتتأسى به الأمة في ذلك.

وثاني عشر – كثرة انتشار الشريعة، فإن انتشارها من عدد أكثر من انتشارها من واحد.

وثالث عشر – جبر قلب من فات شرفها مثل صفية بنت حيي، وجويرية بنت الحارث سيدة بني المصطلق.

ورابع عشر – تقرير الحكم الشرعي وانتشال العقيدة الفاسدة التي رسخت في قلوب الناس من منع التزوج بزوجة ابن التبني، كما في قصة زينب؛ فإن اقتناع الناس بالفعل أبلغ من اقتناعهم بالقول، وانظر اقتناع الناس بحلق النّبيّ ﷺ رأسه في الحديبية، ومبادرتهم بذلك حين حلق بعد أن تباطؤوا في الحلق مع أمره لهم به.

وخامس عشر – التأليف وتقوية الصلة كما في أمر عائشة وحفصة، فإن النّبيّ ﷺ شد صلته بخلفائه الأربعة عن طريق المصاهرة، مع ما لبعضهم من القرابة الخاصة، فتزوج ابنتي أبي بكر وعمر، وزوّج بناته الثلاثة بعثمان وعليّ رضي الله عنهما.

فسبحان من وهب نبيه ﷺ هذه الحكم، وأمده بما يحققها قدرًا وشرعًا، فأعطاه قوة الثلاثين رجلاً، وأحلّ له ما شاء من النساء، يرجي من يشاء منهن،

ويؤوي إليه من يشاء، وهو سبحانه الحكيم العليم.

وأما عدم تزوجه بالواهبة نفسها، فلا يدل على أنه تزوج من سواها لمجرد الشهوة ، وقضاء وطر النكاح.

وأما ابنة الجون فلم يعدل عن تزوجها بل دخل عليها وخلا بها، ولكنها استعاذت منه، فتركها النبيّ ﷺ وقال: «لقد عُذْتِ بعظيم، فالحقي بأهلك» ولكن هل تزوجها النّبيّ ﷺ لمجرد قضاء وطر النكاح ولمجرد جمالها، أو لأمر آخر؟ لو كان لأمر آخر سقط الإستدلال به، على أن النّبيّ ﷺ كان يتزوج لمجرد قضاء الوطر، وإن كان لأجل قضاء الوطر فإن من حكمة الله تعالى أن حال بينه وبين هذه المرأة بسبب استعاذتها منه.

وأما سودة ﵂ فقد خافت أن يطلقها النّبيّ ﷺ لكبر سنها فوهبت يومها لعائشة، وخوفها منه لا يلزم أن يكون قد همّ به، وأما ما رُوِيَ أنه طلقها بالفعل فضعيف لإرساله.

وأما زواجه ﷺ بزينب ليس لجمالها، بل هو لإزالة عقيدة سائدة بين العرب، وهي امتناع الرجل من تزوج مفارقة من تبناه، فابطل الله التبني وأبطل الأحكام المترتبة عليه عند العرب، ولما كانت تلك العقيدة راسخة في نفوس العرب كان تأثير القول في اقتلاعها بطيئًا، وتأثير الفعل فيها أسرع، فقيض الله سبحانه وتعالى بحكمته البالغة أن يقع من النبيّ ﷺ في تزوجه بمفارقة مولاه زيد بن حارثة الذي كان تبناه من قبل ليطمئن المسلمون إلى ذلك الحكم الإلهي، ولا يكون في قلوبهم حرج منه، وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحكمة بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ثم تأمل قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فإنه يشعر بأن تزويجها إياه لم يكن عن طلب منه، أو تشوّف إليه، وإنما هو قضاء من الله لتقرير الحكم الشرعي وترسيخه،

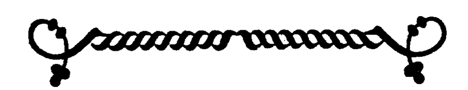
وعدم الحرج منه، وبهذا يعرف بطلان ما يروى أن النبيّ ﷺ أتى زيداً ذات يوم لحاجة، فرأى زينب فوقعت في نفسه وأعجبه حسنها، فقال: «سبحان الله مقلب القلوب» فأخبرت زينب زيداً بذلك، ففطن له، فكرهها وطلقها بعد مراجعة النبيّ ﷺ وقوله: «أمسك عليك زوجك، واتق الله» فهذا الأثر باطل مناقض لما ذكر الله تعالى من الحكمة في تزويجها إياه.

وقد أعرض عنه ابن كثير – رحمه الله – فلم يذكره، وقال: أحببنا أن نضرب عنها – أي عن الآثار الواردة عن بعض السلف – صفحاً؛ لعدم صحتها، فلا نوردها، ويدل على بطلان هذا الأثر أنه لا يليق بحال الأنبياء، فضلاً عن أفضلهم وأتقاهم لله عزوجل.

وما أشبه هذه القصة بتلفيق قصة داود عليه الصلاة والسلام وتحايُله على التزوج بزوجة من ليس له إلاّ زوجة واحدة، على ما ذكر في بعض كتب التفسير عند قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١)﴾ [ص: ٢١] إلى آخر القصة؛ فإنه من علم قدر الأنبياء وبعدهم عن الظلم والعدوان والمكر والخديعة، علم أن هذه القصة مكذوبة على نبيّ الله داود عليه السلام.

والحاصل: أنه وإن كان للنبي ﷺ أن يتزوج لمجرد قضاء الوطر من النكاح وجمال المرأة وأن ذلك لا يقدح في مقامه فإننا لا نعلم أن النبيّ ﷺ تزوج زواجاً استقرت به الزوجة وبقيت معه من أجل هذا الغرض.

والله أعلم



فهرس

